مِيلادُ العُصُورِ الوُسْطى

تأليف

ه. موس



ترجمه : عبد العزيز توفيق جاويد
راجعه : الدكتور الباز العريني

كلمة المترجم

إن نظرة واحدة إلى هذا الكتاب توضح أهميته . فهو ينتظم حقبة طويلة من الزمن تبلغ قروناً أربعة . تبدأ بعالم البرابرة ، ويأخذ فى دراسة تاريخ أوربا قرناً فقرنا ، ودولة فى إثر دولة ، مستعرضاً قبائل البرابرة ، إذ تظهر فى موجات متلاحقة متدافقة : القوط والآفار والجرمان واللومبارد والفرنجة وغيرهم وغيرهم . والكتاب يحدد لكل هؤلاء وغيرهم فى الصورة مكاناً معينا لا يخرج دراسته عن التناسب السليم بينه وبين غيره من الأجزاء التى تقع معه فى إطار واحد . ولم يغفل المؤلف أمر العرب ، فلم يتجاهل أثرهم فى تلك القرون ، وأنه كان لهم ضلع كبير فى تاريخها ، وكانوا عاملا فعالا فى حضارتها . ومن ثم فهو يفرد لهم قسما كاملا من كتابه يدرس فيه عقيدتهم وتاريخهم ، وما أسهموا به من فضل فى خدمة الحضارة .

* * *

والآن ما قصة هذه العصور الوسطى ؟ أين مبتداها ومنتهاها ؟ وكيف يكون لحقبة ابتداء وميلاد ، والتاريخ تدرج وتطور حينا ، وانتقال وتحول أحيانا ، وتوقف وجمود بل حتى موت حينا آخر ؟ بل إن تقسيم التاريخ إلى حقب يكاد يكون — كما ألمع المؤلف نفسه فى مقدمته — تعسفا والتماسا للمحال .

على أن المؤرخين ، التماسا للتسهيل على أنفسهم وعلى قرائهم ، كانوا يستقرئون العناصر والظواهر الغالبة على فترة من الفترات ، ويضمونها بمجموعات يصدرون بها أحكاما عامة ، ويطلقون عليها أسماء ترتضيها القارئ والمؤلف جميعا .

فالعصور الوسطى هى الفترة الممتدة بين العصور القديمة التى يرى المؤرخون أن أغلب ظواهرها ومعظم معالمها انتهت عند قريب من نهاية القرن الرابع الميلادى ، وبرزت ظواهر أخرى واشتدت وغلبت على الناس والزمان حتى أصبحت طابعا واضحا لها ، ولها صفاتها وميزاتها التى أجمع المؤرخون على تسميتها باسم العصور الوسطى . وظلت تلك الظواهر والمميزات حية قوية ما لا يقل عن عشرة قرون ، إلى أن انبثقت أحوال أخرى فى فكر الناس وطريقة عيشهم وأسلوب تصرفاتهم فى الحياة ومعالجاتهم لشئون الفنون والأدب والتجارة والاقتصاد والمعايش

والاجتماع ، بحيث أصبح واضحا ظهور عصر جديد فى تاريخ الإنسانية ، عصر ثقافة وحضارة من نوع جديد هو الذى اصطلح الناس على تسميته باسم عصر النهضة .

على أن المؤلف ـ كما هو واضح من عنوان كتابه ـ لم يتسع مجال بحثه ليشمل بنظرته العصور الوسطى بأكلها بل قصر جهوده على فترة أربعة قرون فقط هى التى ذر فيها قرن تلك العصور إلى أن قامت على سوقها نبتا غضا ، ويافعا فتيا ثم لم يتجاوز بحثه تلك المرحلة .

وإن مؤرخا فى منزلة الأستاذ العلامة « موس Moss » من المؤرخين المحدثين لا يمكن أن يأخذ نفسه إلا بأسلوب الدراسة الحضارية . فهو لا يقتصر على سرد التاريخ فى صورة حقائق وحروب ووقائع وملوك وأفراد ، بل يأخذ على عاتقه ـ أولا وقبل كل شىء ـ دراسة الأحداث والشعوب والعلوم والحضارات والثقافات وخبرات الأمم وتفاعلاتها مع ما يحيط بها من ملابسات ، وردود أفعالها إزاء ما يصطك بها من عوامل ومؤثرات خارجية . ولا غرو فهذه هى الطريقة المحدثة فى دراسة التاريخ ، تهتم بالأمة قبل الملك ، وبالمجتمع دون البلاط ، وتهتم بالعلوم والثقافات اهتمامها بالشعب وأساطيره وأحلام طفولته التى تتكون منها عقليته البدائية .

* * *

والمؤلف يقسم كتابه أقساما أربعة : جعل عنوان القسم الأول منها الرومان والبرابرة ، وتحدث فيه عن العلاقة بين روما والبرابرة ، وكيف أنها بدأت بالتجارة وانتهت إلى زج الإمبراطورية فى أفدح المعاطب . وأما القسم الثانى فتحدث فيه عن عصر جستنيان فى أربعة فصول ، وفاه فيها حقه ، وتناوله وعصره من جميع نواحيه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعسكرية ، ولم يفته أن يبين ما جرته سياسة ذلك الإمبراطور الكبير على الدولة من أضرار . وكما سبق أن ذكرنا أفرد للإسلام ـ وهو حقيقة من أبرز الحقائق فى العصور الوسطى ـ قسما كاملا ، تحدث فيه عن عقيدته حديثا لم يرقنا بعض ما فيه فأعملنا فيه القلم إحقاقا للحق ، كما تحدث عن مآثره العسكرية وفتوحه ، فضلا عن حديثه المسهب عن حضارته وثقافته وعن الزيت الجديد الذى أضافه ذلك الدين القيم إلى مشعل الحضارة حين التقطه باهتاً خابى الضياء ممن سبقه من فرس وروم فسطع وأشرق بمن انضم إلى ركبه من عظماء الإسلام ، ما بين عالم ومشرع ، وفنان ومعمارى ، وفيلسوف ومفكر . ثم يتحول

الألف كتاب ٦٢٣

ميلاد العصور الوسطى

٣٩٥ - ٨١٤

تأليف

ه . سانت ل . ب . موس

ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد

راجعه
الدكتور السيد الباز العريني

١٩٦٧

الناشر
عالم الكتب
٣٨ شارع عبد الخالق ثروت بالقاهرة

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

[illegible]
[illegible]

١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش

تليفون : ٩٣٤٠٩٨

هذه ترجمة كتاب

THE BIRTH OF THE MIDDLE AGES

395 — 814

تأليف

H. ST, L. B. Moss

محتويات الكتاب

قائمة الصور والخرائط

تنبيه : صورة الغلاف تمثل القائد بليساريوس ممتطيا جواده

مقدمة الكتاب

تفصل بين العالمين : القديم والوسيط فجوة كبيرة، قد لا يسد ثغرتها ـ من حيث اهتمام القارئ العام ـ إلا ذلك السفر الجليل « اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها » الذى دبجته يراعة جيبون . وعلى الرغم من الأبحاث المستفيضة التى تمت فى السنوات الأخيرة ، فإن من العبث أن ننكر أن القرون المعروفة باسم « العصور المظلمة » لا تزال من أشد مراحل التاريخ الأوربى غموضا . ومع ذلك ، فلا شك أن الجهود المبذولة فى استجلاء كثير من المسائل الرئيسية قد أحرزت بعض التقدم . فإن بعض الآراء قد نبذ نبذاً قطعيا ، إذ يرى الثقات اليوم مثلا ، أن الإمبراطورية الرومانية لم تنته بسقوط عاصمتها الغربية ولا بخلع رومولوس أو غسطولوس . وتفسير زوال العالم الرومانى بأنه حادث فجائى يفسح المكان بعد المزيد من التحليل،لنظرية تطور قائمة على قسط أكبر من الاستدلال. كما أن ما أسدته بيزنطة فى التاريخ من جلائل الأعمال أخذ ينال حظه من الإنصاف ، فضلا عن التقدير الذى نال العناصر الأصيلة للحضارة التى واصلت حمل لواء التقاليد الرومانية على ضفاف البوسفور .. ولم يعد أحد ينظر إلى الهجوم الإسلامى من خلال أعين خصومه فى القرون الوسطى ، الذين ضرب تهديده لعقيدتهم على أبصارهم غشاوة ، أعمتهم عن الأصل المشترك للثقافتين المسيحية والإسلامية . ذلك لأن الدراسة العميقة النقادة لفن ذلك الزمان وأدبه [1] أفضت فى كثير من الحالات إلى ازدياد تقدير الإسلام ، كما أنها أفضت دون ريب إلى تعميق الإحساس باستمرار الصلة بين النظام القديم والنظام الجديد .

---

(١) يقصد المؤلف هنا لفظة الأدب بمعناها العام الذى يضم جميع ما حوته اللغة من المصنفات والمؤلفات . (المترجم)

وازداد وضوح كبار الشخصيات فى ذلك الزمان عن ذى قبل ، كما أن مستكشفات علم الآثار القديمة (الأركيولوجيا) والاهتمام الحديث بالأحوال الاقتصادية ، هيأت للخيال الناشط صورة أكثر إشراقاً للحياة اليومية للمجتمعات والأفراد. وقد حاولنا فى الصفحات الآتية تقديم خلاصة موجزة لقرون أربعة من التاريخ الأوربى كما تشاهد فى ضوء تلك النتائج .

ومن الأمور الواضحة التى لا تحتـاج إلى تأكيد ذلك الطابع التعسفى للعصور التاريخية التى ليست فى الواقع ، من نواح معينة ـ سوى وسيلة ممتازة للحفظ والتذكر . فالعمليات العضوية لا يمكن أن تشطر شطراً باتا بلمسة قلم ، ولا يكاد عاقل يتوقع أن تتطور جميع أشكال النشاط البشرى بنسبة واحدة متساوية . ولذا وضع العلماء تواريخ مختلفة لبدء العصور الوسطى ، تتراوح بين القرن الثالث والقرن الثامن ، ولـكل من هذه التواريخ من المبررات ما يتفق مع ما يرتبط من أهمية بمظهر من مظاهر الحضارة الأوربية . وبناء على هذا ربما كان يحق لعام ٣٩٥ أن يعد تاريخاً لبدء تلك العصور مثلما يحق لأى عام آخر، ذلك أن وفاة ثيودوسيوس الـكبير حدثت فى لحظة بالغة الأهمية لأوربا . فإن ثيودوسيوس ظل إبان السنوات الثلاث الأخيرة من حياته يحكم دون منازع فى الأملاك الرومانية . ومنذ تلك اللحظة أصبح تقسيم الإمبراطورية إلى شرق وغرب نهائيا ، على الرغم من أن الإمبراطورية لم تبرح من الناحية النظرية متحدة. فنى مدة حياته كان فى الإمكان اعتبار بريطانيا وبلاد الغالة وأسبانيا أجزاء متكاملة من الإمبراطورية الرومانية ، ولـكن ثلاثتهن انتقلن فى أقل من جيل واحد إلى قبضة فاتحين من المتبربرين الهمج ، وسقطت روما فريسة فى يد القوط الغربيين . وهـــذا الإمبراطور المقاتل الذى هلك اثنان من أسلافه

المباشرين صرعى فى ميدان القتال على الحدود ، خلفه على العرش سلسلة من الحكام الضعاف ، وانتقل السلطان الحقيق فى الدولة الرومانية إبان ما يقارب القرن من الزمان إلى قبضة أمراء الجند . ولو نظر المرء إلى الدولة من ناحيتها الداخلية لما وجد فيها إلا تغيرات طفيفة لا تكاد تستلفت الأنظار . ذلك أن غارات المتبربرين ، وإن اتسمت بالفظاعة التامة ، لم تزد على أن عجلت بالفوضى والمحن التى كابدت العناء منها معظم الولايات الغربية منذ بدء نشوب الفوضى فى القرن الثالث . ولم تكن الإصلاحات الخطيرة التى أنجزها دقلديانوس وقسطنطين ، والتى أنهت هذه الفوضى، إلا تحقيقا إلى حد كبير لنزعات كانت واضحة للعيان فى عهد الإمبراطورية الأولى ــ وذلك لأن نهاية القرن الرابع لم تحدث أى انقطاع حقيق فى نظام الحكم الإمبراطورى . وكل ما فعلته أنها اعترفت صراحة بحقيقة واضحة هى أن : « أسرة قيصر » خلّفت فعلا الهيئة التنفيذية الدستورية التى ورثتها الإمبراطورية عن الجمهورية الرومانية . ومع ذلك ، فهناك تغيير واحد كانت له أهمية أعظم من أى تغيير آخر فى مستقبل أوربا أدخله قسطنطين حين أشرك الكنيسة المسيحية فى حكم الدولة . إن هذه الخطوة هى الفاصل بين العالم القديم وعالم العصور الوسطى . ذلك لأن اعتناق العقيدة الجديدة قد غير اتجاه عقول الناس وحدد سياسة حكامهم . ولم تكف الإمبراطورية الرومانية نهائياً عن المحافظة على التوازن بين المسيحى والوثنى إلا فى عهد ثيودوسيوس ، ولذا فإن النتائج الكاملة لإجراء قسطنطين الثورى لم تأخذ فى الظهور إلا فى تلك الآونة . لهذا السبب ، إن لم يكن لغيره ، يجوز حقاً لهذا البحث الذى نضعه بين يديك أن يتخذ من وفاة ثيودوسيوس الكبير مؤسس الدولة المسيحية نقطة بداية .

وربما وجب علينا أن نذكر أن الغرض من الخرائط التخطيطية والصور التى يحتويها الكتاب هو التوضيح والإنارة . وسيجد القارئ فى قائمة المراجع إحالات إلى بعض الأطالس التاريخية والمراجع المصورة للفن فى أوائل العصور الوسطى .

وأود أن أعبر عن شكرى للأستاذ العالم ن . ه . باينز على ما بذله من مساعدة وتشجيع مثمر لى فى أثناء تأليف هذا الكتاب، وإلى المستر ا.ل. ودوارد والأستاذ العلامة ه . ا . ر . جب والمستر د. بيرلى والمستر ج. ن . ل . مايرز على ما قدموه من نقد نفيس واقتراحات قيمة ، وإلى القائمين على مطبعة كلارندون لقاء كرم أخلاقهم وسعة صدورهم .

أغسطس ١٩٣٥ ه . سنت . ل . ب . م

القسم الأول

الرومان والبرابرة

الفصل الأول

العالم الرومانى

إن إجالة الفكر فى روما الإمبراطورية تعرض أمام عين الخيال صورة الحرب والفتوح والكتائب الزاحفة فى ظل النسر المظفر لإخضاع الشعوب القصية. على أن الحقيقـــة البارزة التى يتسم بها القرنان الأولان من الحقبة المسيحية ، هى ذلك السلام العميق الذى ران على حوض البحر المتوسط ، وعم الشطر الأكبر من أوربا الوسطى والغربيـة . وفى عهد أوغسطس كانت الإمبراطورية امتدت فعلا إلى أقصى اتساع لها[1] ، ومن ثم لم يعد همّ خلفائه منصرفا فى معظم أمرهم إلا إلى ربط أطراف البلاد بعضها ببعض . وامتدت داخل الحواجز العظيمة المحصنة على الراين والدانوب والفرات ، شبكة من الطرق تغطى ممتلكات روما المترامية ، وتوصل بين تخوم اسكتلندة وبين الصحارى العربية . وكانت تسرى فى هذه الطرق حركة مرور وتجارة لم تبرح فى ازدياد مستمر ، لا يقتصر أمرها على الجيوش والموظفين ، بل تتجاوز ذلك إلى التجار والسلع ، فضلا عن السائحين . وسرعان ما نمت حركة تبادل السلع التجارية بين الولايات المختلفة ، ولم تلبث تلك الحركة أن بلغت مرتبة لم يسبق لها نظير فى التاريخ ، ولم تتكرر ثانية على صفحته إلا منذ بضعة قرون خلت . وكانت تُحمل فى هذه الطرقات : المعادن المستخرجة من مرتفعات أوربا الغربية ، والجلود والأصواف والأنعام الحية من مراعى بريطانيا وأسبانيا

---

(١) مع بضع استثناءات هامة قليلة مثل بريطانيا والمناطق الواقعة شمال الدانوب وشرق الفرات الأعلى .

وشواطئ البحر الأسود والخمر والزيت من بروفانس وأكيتانيا ، والخشب والقار والشمع من جنوب الروسيا وشمال الأناضول ، والفواكه المجففة من سورية والرخام من سواحل بحر إيجه ، وأهم من ذلك كله الحبوب من مناطق زراعة القمح بشمال إفريقية ومصر ووادى الدانوب سداً لحاجات المدن الكبرى ؛ كل هذه السلع كانت تنتقل بملء الحرية من أقصى الإمبراطورية إلى أقصاها ، فى ظل نظام للنقل والتسويق بالغ الكفاية والدقة .

الصناعة والتجارة

تلقت صناعة السلع المعدة للتصدير بالجملة أيضاً دفعـــة قوية ، فنمت الصناعات الزاهرة بكل ولاية من الولايات . وكانت التجارة وأعمال المصارف نشطت منذ عدة قرون فى العالم الهلينستى ، وكان الطرف الشرقى للبحر المتوسط أول من أفاد من النظام الجديد . وجملة القول ، إن هذه الولايات الشرقية كانت مناطق الإنتاج والصناعة ؛ على حين أن الغرب كان مستودع المواد الخام . وهكذا كانت دمشق وأنطاكية والإسكندرية تصدر البطاطين والبسط والسجاجيد ونسيج الكتان وأرق أنواع الخزف وصنوف الزجاج ، الرخيص منه والنفيس ، والجواهر والعطور وأدوات الزينة . ومع ذلك فإن القرنين الأولين شهدا حركة انتقال للصناعة نحو الغرب . وأخذت الثروات تتكدس بأرض الحنطة ، فضلا عن مناطق إنتاج الخامات مثل بلاد الغالة وأسبانيا وإيطاليا وإفريقية ، ورغبة فى تلبية طلبات الطبقات الثرية والمترفة ، تزايدت هجرة اليونانيين والمصريين والسوريين إلى الغرب ليمارسوا مهاراتهم أطباء وفنانين ومعلمين وموسيقيين وصاغة للفضة . وكان السوريون بوجه خاص أعظم تجار ذلك الزمان ؛ فإنهم كانوا ينتشرون فى كل أرجاء أوربا ، مغامرين أفراداً ،

أو كمجتمعات من التجار ، أو يوجدون بمدن أفريقية وأسبانيا ، أو يشتد تزاحمهم على امتداد طرق التجارة بوادى نهر بو أو حوض الراين . ففى القرن الخامس نفسه ، يلاحظ جيروم برارة وجودهم ، ويقرر أنهم يواصلون حركتهم المربحة بين أنقاض عالم منهار . أما تقدم الصناعة فأ كثر ما يدل عليه دلالة مباشرة ، ظهور مصانع فى الغرب ذات حجم ضخم ، منها مثلا مراكز لصنع الخزف والزجاج بوسط فرنسا وجنوبها ، وبوادى نهر الراين أو ببريطانيا ، حيث تمكنت السلع المنتجة على أساس الإنتاج الكبير من القضاء على حب الأفراد للتصميمات الكلتية أو توجيه ذلك الحب وجهة أخرى .

وفضلا عن ذلك لم تكن التجارة تقتصر بأى حال على داخل حدود الإمبراطورية . فإن الحدود لم تكن من هذه الناحية حداً فاصلا ، بل كانت على العكس من ذلك خط مستوطنات خارجية قائمة على التخوم ، يصل بين نهايات الطرق البرية الرومانية ، ويهيىء للبرابرة النازلين خارجها أسواقا غاصة بالسلع . كانوا يقايضون زينات الخيول ورشماتها والجواهر والنقود والخزف وحليات البيوت والأدوات والآلات الزراعية على ما لدى البرابرة من رقيق وكهرمان وجلود الحيوان ، فتنقل من مصانع الغاليين الرومان[١] (Gallo - Roman) على نهر الراين وتنفذ إلى أعماق وسط ألمانيا ، وتشق طريقها إلى معاقل الرؤساء بالدانيمركة أو جنوب السويد . وكانت السفن التجارية الرومانية ترسو بالموانى الإرلندية ، أو ترتاد جنوباً ساحل أفريقية الغربية المكسو بالغابات . على أن التجارة مع الشرق كانت تنطوى على قدر أكبر من الاحتمالات الرومانسية . وكانت تنتهى فى البحر الأحمر عدة

---

(١) الغاليون الرومان أو (الغالو رومان) هم الرومان النازلون ببلاد غالة أى فرنسا . (المترجم)

خطوط ملاحية عظيمة ، وكان ذلك البحر يتصل بالإسكندرية برفأ وقناة وطريق للقوافل يحرس بكل عناية بقوات من الشرطة ، وهو مزود بمستودعات تخزين وصهاريج مياه . وكان أحد هذه الخطوط الملاحية فى البحر الأحمر يمتد جنوباً عبر بلاد الحبشة والصومال حتى أوغندة ، وإلى الجنوب منه كان تجار العرب يحتفظون فى يدهم بزمام احتكار التجارة ، وكان العاج ومحار السلاحف والزنوج الأرقاء المجلوبون من الداخل ، يجمعون مقايضة على الزجاج والأقمشة الزاهية الألوان ، فضلا عن الفئوس والحلى المصنوعة من الشبهان [١] والنحاس . وكان الركن الجنوبى الغربى من بلاد العرب يصدر البخور والأفاويه إلى الغرب ، وينقل فوق ذلك محصولات بلاد الهند والصين كالقطن والحرير وخشب الساج والأبنوس وخشب الصندل ، التى تفرغها السفن بموانئ البحر الأحمر وبالمرافئ الواقعة عند رأس الخليج الفارسى ، ومنها تنقل بطريق القوافل حتى تصل آخر الأمر إلى الإسكندرية ، أو إلى أحد المراكز التجارية السورية كدمشق أو أنطاكية . ثم لم يلبث القوم أن وفقوا إلى اكتشاف الرياح الموسمية ومنفعتها لهم فى التجارة ، وأن بدءوا التجارة المباشرة مع الهند ، وهى حال استبعدت الوسيط التجارى العربى ، وسرعان ما وظف فيها تجار الإسكندرية وسورية أموالهم . وقد علم استرابون أن عدداً من السفن لا يقل عن مائة وعشرين سفينة كان يسافر منها كل عام إلى الهند ، وتتحدث مصادر أخرى عن مستعمرات التجار الأجانب الذين استقروا بمدن شاطئ مالابار الساحلية ، وعن الموانئ العظيمة بجنوبى الهند وسيلان ، بما تحويه من نظم للمنارات وخدمات من المرشدين ، ومستودعاتها الضخمة وأرصفتها ، وعن

(١) الشبهان والشبه : النحاس الأصفر — كما ورد بالمعاجم . (المترجم)

وصول السفن التجارية[1] الرومانية الضخمة إليها ، وهى تنزل شحناتها من الغلمان المغنين والقيان المرسلين إلى حريم أمراء الهند ، وعن أوانيها الفضية ونسيجها الكتانى الزاهى ، وعن نبيذ البحر الأبيض الذى تحمله ، وكنوز العملة الذهبية الإمبراطورية ، التى تُدفع ثمنا لجوالق[2] الفلفل الضخمة وبالات القطن الثقيلة ، وشتى صنوف الجوهر من ماس ولؤلؤ وزبرجد ، والعقاقير والعطور التى كانت تحملها تلك السفائن إلى العالم الغربى . وأخذ التجار يتوغلون برحلاتهم رويداً رويدا نحو الشرق : حتى عرفوا مصب الكانج وشبه جزيرة الملايو ، ثم استطاع تجار الإمبراطورية الرومانية إنشاء علاقات تجارية مع الموانئ الصينية عام ١٦٠ للميلاد على أن أيام عظمة التجارة الرومانية كانت ولّت آنذاك : فإن الزمن أعد عند ذاك لأوربا قروناً مترادفة من الفوضى ، فلم تتحقق من ثم احتمالات تأثير الصين على حضارتنا .

وكان لسهولة المواصلات ويسر تبادل السلع أثرها القوى فى نشر الوحدة ، بل إذاعة الاتساق فى الدولة الرومانية . وكانت نتيجة ذلك أن اقتسمت غالبية سكانها مستوى مشتركا للعيش ، فلم يكن الفارق كبيراً بين الأدوات التى تستعملها الدور (الفيلات) بجنوب إنجلترة ومثيلاتها بالجزائر ، مثل المصابيح وأكواب الشراب ووسائل التدفئة والزخرفة الداخلية . وكان الدينار الذهبى يحظى فى منطقة الراين بنفس الثقة التى يلقاها فى بلاد القرم وفى أسواق السنجال (Cingal) وتحددت معايير اللغة بأن سادت اللاتينية فى الغرب واليونانية فى الشرق ؛ واختفى اللسان الوطنى اختفاء تاما فى كثير من الأصقاع . وكانت النظم المشتركة

---

(١) وكان يدير هذه السفن رعايا من الرومان فيما يعتقد من شهدهم من الهنود ، ولكن من المحتمل أنهم كانوا سوريين أو مصريين جنسا .

(٢) الجوالق : هى الزكيبة والغرارة كما ورد فى المعاجم (المترجم)

التى تعيش فى ظلها شعوب الإمبراطورية مصدر رابطة أخرى لوحدة تلك الشعوب ، وذلك لأن الحكم بالأقاليم المختلفة ، وإن كان يتكيف طبق الظروف المحلية ، كان نظاماً واحداً فى جوهره يدار من مركز الدولة ، وهو فوق ذلك نظام ينزع إلى تزايد الاتساق بين الأجزاء وإزالة التخالف . وآية ذلك أنه بمقتضى مرسوم كراكلا الصادر فى ٢١٢ ، صار غالبية رعايا الإمبراطور مواطنين رومانيين ، واختفى من الوجود « الوضع المنحط » لساكن الإقليم . وعلى الرغم من أن النظام الإدارى بإيطاليا نفسها ، احتفظ لها طويلا بامتيازات خاصة فيما يتعلق بالضرائب ، فإنه سوِّى فى النهاية بنظام الأقاليم ، كما أن اعتزازها بمنزلتها فى الغرب — وقد تحدته كل من بلاد الغالة وإفريقية وأسبانيا فى ميادين الأدب والتجارة — لقى من هذا الإذلال عناء أشد وأكبر . وما نسوق هذين الأمرين إلا ليكونا مثالين لتطور أبعد أثراً وأوسع مجالا . ولما تزايدت الأخطار المحدقة بالإمبراطورية عمد رجال السياسة والتدبير فيها إلى مضاعفة جهودهم للمحافظة على الصرح المترنح بتحويله إلى بنيان متجانس ، وشد بعضه إلى بعض « بمنطق » حديدى ، قوامه القوانين والشرائع الجائرة ، غير مبالين بما اتخذوه من صرامة مسرفة ولا بقمع جهود الأحياء وما يثيره ذلك من رد فعل مضاد ، ولم يحفلوا إلا بإقامة كتلة متماسكة متينة غير متمايزة من المادة الصلبة .

الشرق والغرب

ولم تكن الشدائد ولا الأخطار التى حاقت بالدولة فى عهدها الأخير هى التى خلقت مواطن الضعف والتجريح فى النظام الإمبراطورى ، بل كانت هى التى كشفت عن تلك المواطن . والحالات الاجتماعية والاقتصادية العصرية

المشابهة لما كان فى العالم البعيد كثيراً ما تضللنا ، وذلك لأنها تنزع إلى إسدال الغموض على نواحى حضارته التى هى أكثر بدائية . وقياساً على معايير زمننا الحاضر ، لا بد أن عدد سكان أوربا فى ذلك الزمان كان مفرط الصغر ؛ إذ إن عدد سكان الإمبراطورية الرومانية لم يتجاوز ربع أعداد السكان الذين ورثوا الأقطار التابعة لها . ولم يكن توزيع السكان متعادلا ، فالشطر الشرقى لم ترجح كفته فحسب فى كثافة سكانه بل أيضاً فى مستواه من الثروة والحضارة . ولم يكن بالغرب من المدن ، باستثناء روما وقرطاجة ما يعدل المدن الزاهرة ، بآسيا الصغرى وسورية ومصر والتى أربى سكان الكثير منها على مائة ألف نسمة . فالولاية الأخيرة (مصر) كانت على الرغم من صغر حجمها ، تضم ما يقارب سُبع سكان الإمبراطورية بأكملها ، كما أن الشطر الأكبر من موارد الإمبراطورية كانت تؤديه الأقطار المطلة على البحر المتوسط الشرقى . ومن الناحية الأخرى ، فالثابت قطعاً أن المجموع الكلى لسكان الإمبراطورية الرومانية ازداد قلة بعد ثلاثة قرون من قيامها . وكانت إيطاليا وبلاد اليونان أشد البلاد تعرضاً لنقص السكان ، كما أن مناطق مترامية من بلاد الغالة أصبحت خالية من الناس ، لما كابدته من الطاعون والحروب الأهلية . ولم يكن تأثير روما الحضارى على الغرب موزعاً توزيعاً متكافئاً .
فإن الطرق الرومانية ، شأن الدروب الجانبية والطرق الرئيسية الشريانية التى تكون شبكة المواصلات ، كثيراً ما كانت تحصر بين خيوطها مناطق مترامية ، لا تكاد فيها لغة السكان وعرفهم وعاداتهم تتأثر بأى حال بلغة غزاتهم الفاتحين وعاداتهم . وأكثر ما اتضح ذلك فى إقليمى الشمال والغرب ، حيث تناثرت قبائل من الرعاة والزراع البدائيين الموزعين توزيعاً خفيفاً بين المستنقعات والغابات ، بصورة لا تفى بالمطلوب لبيت المال والاستغلال التجارى

على عكس منطقة البحر المتوسط التى اتسع بها نطاق الزراعة . يضاف إلى ذلك أن النفوذ الرومانى كان يزداد ضعفاً كلما اقترب من أطراف الإمبراطورية . ولا تنس أن معالم التخوم نفسها أخذت تنطمس ، وتشبع أمراء الألمان وراء الراين بالثقافة الرومانية ؛ وسمح لجماهير غفيرة من البرابرة بالسكنى فى الممتلكات الرومانية بشرق بلاد الغالة وفى الأقاليم الواقعة جنوبى الدانوب. بل لقد حدث فى عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية المعروفة بالبيزنطية أن بعض المواطنين الرومان كانوا يفضلون الإقامة ببلاط حاكم أجنبي على مواجهة المطالب المتزايدة لجابى الضرائب الإمبراطورى .

وفى الشرق نفسه ، حيث دأبت الممالك الهلينستية التى نشأت عن فتوح الإسكندر على أن تنشر فى كل مكان المثل العليا للحياة بالمدن الإغريقية مدة ثلاثة قرون قبل أن تصل إليه روما — ظلت التقاليد الوطنية كامنة تنتظر ساعة الخلاص لكى تنتفض وتجاهد . ولم يكن للإغريق سوى أقلية صغيرة بسورية ومصر ، حيث صارت لهم مكانتهم بفضل تفوقهم الثقافى ، لا العددى. غير أن الحضارات القديمة بتلك الأصقاع احتفظت بحيويتهـا وإن غمرتها إلى حين ثقافة يونان ، كما أن نمو الأدبين القبطى والسوريانى ، اللذين أنعشهما قيام الكنائس المسيحية التى أصبحت ترجماناً يعبر عن العواطف الانفصالية والمحلية ، قد غذّى شعوراً بالتباعد وعدم التجانس مع فاتحيهم الأجانب ، كما زاد فى حدة المعارضة المريرة لسياسة الإمبراطورية وضرائبها . وغنى عن البيان أن فقدان الدولة فى النهاية لهاتين الولايتين إنما يرجع لمثل هذه الأسباب الداخلية ، فإن الغزاة الفرس والمسلمين فى القرن السابع وجدوا عوناً كبيراً من هيئات معادية كثيرة فى هذين الصقعين ، أما آسيا الصغرى فلم يصطبغ

بالصبغة الهلينستية فيها سوى الحواشى المطلة على البحر . بيد أن المناطق الجبلية الداخلية التى كانت مستراداً لعصابات اللصوص والمنطقة الرئيسية لتجنيد الجند للجيش الرومانى فيما عقب ذلك من زمن ، لم تكن لها أية تقاليد ثقافية تستطيع أن تكونّ بؤرة يتجمع فيها التذمر ، ومن ثم استطاعت بيزنطة الاحتفاظ بقبضتها على شبه الجزيرة كله إلى عهد متأخر من العصور الوسطى[1].

الإمبراطورية فى خطر

كشفت الضربات المتعاقبة التى تلقتها المنطقة المتحضرة بأوربا منذ نهاية القرن الأول عن مكامن الخطر على البنيان الإمبراطورى . وشهد عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) انحسار الرغد المرفرف على الدولة ، وأعقب حكم بيت الأنطونيين قرن من الفوضى والاضطراب تضعضعت فيه قوة الحكومة المركزية ، حيث كانت السلطة سرعان ما تنتقل من إمبراطور قصير العهد إلى آخر ، تتولى تنصيبه أو عزله الفيالق الرومانية حسبما يمليه عليها جشعها أو تقلّب أهوائها . وظهر الحكم العسكرى الاستبدادى فقضى على آخر آثار « الحكم الثنائى » غير الواقعى الذى أقامه أوغسطس ، وتزايد نفوذ الجيوش مع ازدياد الحاجة إليها . ذلك لأن الحدود أخذت تتعرض لتهديد متزايد ؛ وأخذت القبائل الجرمانية الضاربة فى الشمال من الأراضى المنخفضة إلى وادى الدانوب تضغط على الحواجز القائمة فى سبيلها ، وكان للقراصنة السكسون فى بحر المانش ضريب هو لصوص البحر من القوط فى البحر الأسود وسواحل بحر إيجـــة الشمالية . ونشأ فى الشرق خطر جديد عندما حل

---

(١) انظر للمترجم كتاب : « الحضارة البيزنطية » تأليف ستيفن رانسيمان الذى صدر بمجموعة الألف كتاب ، فضلا عن « الحضارة الهلينستية بنفس المجموعة » . (المترجم)

آل ساسان (٢٢٧) ذوو النزعة العدوانية محل البارثيين فى عرش فارس . وعندئذ أصبح خط الفرات بحاجة دائمة إلى التعزيزات والإمداد ، ومنذ تلك اللحظة كان لزاماً على الدولة الرومانية التى لم يعد يتوافر لديها العدد الكافى من الجند ، أن تعالج مشكلة الجبهة المزدوجة . وبعد انقضاء فترة دامت نحو ستة قرون ، جددت فارس محاولاتها لاسترداد سلطانها على غرب آسيا بعد أن قضى عليها زحف الإسكندر الأكبر المكلل بالنصر . وهنا ظهر من جديد ضريب الملك المعظم فى أيام ماراتون ، مدعياً أنه ند للحاكم العالمى الآخر نزيل روما . وحدث أكثر من مرة إبان القرن الثالث أن راكبة الفرس اجتاحوا سورية حتى أوشكوا بلوغ بحر إيجة ، فهددوا بذلك تجارة إقليم من أغنى الأقاليم . وبلغ الأمر ذروته فى حملة عام ٢٦٠ الفاجعة ، عندما أسر عاهل الفرس خصمه الإمبراطور فاليريان .

ومن المحتمل أن هيبة روما فى الشرق الأدنى لم تعد إليها قط بعد تلك الضربة . ولا بد أن ذلك الفوز الساسانى الذى جد الفرس فى تسجيله حفراً فى الصخر وتصويراً جصيا (Fresco)[1] على الجدران ، قد انتشر خبره انتشار النار فى الهشيم ، فى مدن ذلك العالم الذى امتدت فيه طرق القوافل من شرق البحر المتوسط إلى الخليج الفارسى ، الذى اجتمع فيه خليط عجيب من الترف العالمى الباذخ والشظف الصحراوى الجاسى ، والمصالح التجارية ومناسر اللصوص والتعصب الأعمى الشديد الأوار ، ما كان من أثره أن صيغت بعد ذلك بعدة قرون حياة النبي محمد وتشكل تقدم الإسلام . فما كان لروما من قوة عاتية ،

---

(١) انظر « التقرير عن حفائر دورا يوروبوس » الموسم الرابع (نيوهافن ١٩٣٣ ، ص ١٨٣ — ١٩٩ والحفر البارز الذى لا يزال مرئيا قرب نقش رستم . أنظر اللوحة رقم ١



(١) صورة الإمبراطور فاليريان وهو يركع أمام سابور الأول

وصفت طرق الصحراء بكتل الحجر ، وملأت حصون الواحات بالحاميات ، وواصلت بسط دائرة نفوذها أملاً على امتداد خطوط التجارة المجلوبة على ظهور الإبل من الهند والشرق الأقصى ، شغلت آنئذ في حرب القوات الإيرانية التي صارت نداً لها ، ولم تعد تحافظ على تخومها التقليدية[١] إلا بمشقة بالغة متزايدة . ومن آيات ضعف روما أن ظهرت على الفجاءة دولة تدمر (Palmyra) التي لم تعمر طويلا ، والتي اعتمدت في حياتها على تجارة القوافل والتي احتفظت باستقلالها المجيد والوجيز الأمد حتى تغلب أورليان على ملكتها زنوبيا[٢] (Zenobia) . وكانت ظاهرة مماثلة لهذه تجرى في الغرب ، حيث نجحت ولايات الغالة التي خرجت على طاعة السلطة المركزية ، في مقاومة الدولة الرومانية مدة تربو على عشر سنوات . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إن إيطاليا نفسها تعرضت لغزو البرابرة : وتشهد أسوار أورليان العظيمة التي لا تزال تحيط بروما ، مثلما تشهد أسوار المدن الإيطالية الأخرى المبنية في ذلك الوقت ، بقرب تحول المدن المفتوحة في العالم القديم إلى معاقل القرون الوسطى[٣] المحوطة بالخنادق والمحصنة بالأبراج .

وفي أثناء هذه السنوات بلغت الأزمة الاقتصادية في الإمبراطورية ذروتها ،

---

(١) عن تاريخ حدود الفرات فيما أعقب ذلك من زمن ، انظر كتابنا هذا الفصل السادس .

(٢) وهي المشهورة عند العرب باسم الزباء (المترجم)

(٣) إن المدن المسورة لم تكن بطبيعة الحال شيئاً جديدا ؛ ولكن الأمن الذي أتاحه « السلام الروماني Fax Romana » وتطور المواصلات في عهد الإمبراطورية الأولى قللت من الحاجة إلى التحصين وشجعت على انتشار الضواحي على امتداد الطرق الرئيسية . ولا بد أن التباين الواضح بين مظهر المدن القديمة ومظهر مدن القرون الوسطى بغرب أوربا كان لافتاً جداً للأنظار .

واتفق أن الحاجة إلى المعادن النفيسة اللازمة لدفع أعطيات الفيالق ، التى كانت سلطة الإمبراطور تعتمد على ولائها المشترى بالمال ، اجتمعت إلى نقص كارث فى خام الذهب والفضة وهبوط عاجل فى إيرادات الضرائب . والراجح أن الميزان التجارى فى أثناء القرنين الأولين للميلاد كان يجنح لصالح دول آسيا المصدرة . وإن بين أيدينا الآن من الدلائل الأكيدة (وإن كانت التقديرات الدقيقة غير متيسرة) مايشير إلى تسرب عملتى الذهب والفضة من الإمبراطورية الرومانية نحو الشرق . وربما كان ثمة عامل أخطر من هذا ، هو هبوط إنتاج المناجم الأوربية . فإن من الأمور الملحوظة فى ذلك الزمن فساد نظام العملة . فاختفى الذهب من التداول ، ولم تعد الفضة المعروفة فى الأيام الأولى إلا مجرد عملة نحاسية عليها طلاء رقيق من الفضة . وعلى الرغم من انخفاض قيمة العملة فقد احتفظت الأسعار بشىء من الثبات حتى عهد جالينوس (٢٥٣—٢٦٨)، وذلك بغض النظر عن ارتفاع ضخم ترتب على تخفيض قيمة السبيكة فى الدينار . وعندئذ بدأت فترة تضخم مالى مفرط . إذ حلقت أسعار الحنطة بمصر فى عهد أورليان حتى بلغت أرقاماً خيالية ، وتبعتها معدلات الأجور وإن كانت بدرجة أقل . وأغلقت المصارف أبوابها ، ولكنها أمرت بأن تعود إلى العمل؛ وباتت المضاربة فى العملة من الأمور المألوفة . وتأثرت التجارة مع الشرق تأثراً جدّيا ، وهى التى كانت تقوم على عملة ذهبية كاملة الوزن والنقاء ، ولم تنتعش بعد ذلك إلا فى عهد جستنيان ، على الرغم من أن تجارة البحر المتوسط ظلت تحتفظ بقدر كبير من قوتها السابقة .

دقلديانوس وقسطنطين

ومن أوائل الأعمال التى قام بها دقلديانوس فى أثناء اضطلاعه بإعادة تنظيم الإمبراطورية ، إعادة العملة الذهبية والفضية ، ولقى هذا الأمر من النجاح

مالم تصادفه محاولاته التالية لضبط أسعار المواد الغذائية بما أصدره من مراسيم. وهناك سؤال ربما كان من المستحيل تقديم الإجابة عنه : ــ وهو إلى أى حد يمكن القول بأن دقلديانوس أوقف تيار تحول الاقتصاد النقدى المعروف فى الإمبراطورية الأولى ، إلى الاقتصاد « الطبيعى Natural » الذى اشتهرت به العصور الوسطى[١] . وقد استمر الجيش وموظفو الخدمة المدنية يتلقون أعطيات هزيلة ، ولكنهم كانوا يعولون أنفسهم إلى حد كبير من مصادر أخرى ــ هى حصولهم على الإقامة والجراية ، كما أن النقل وخدمات أخرى غيره كانت مما يفرضه الجند على الناس ، كما كان الموظفون يحتمون على الناس دفع الأتعاب والحلوان وتسهيلات السفر والإقامة المجانية . ومن العسير علينا أن نحدد تقديراً للقيمة النقدية لكل هذه الأمور ، على أن ذلك النظام ظل معمولا به لعهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ولم يكن الجهاز المالى الذى ابتدعه هذان العاهلان ، فى جوهره إلا مجرد تسويغ قانونى لهذه التدابير شبه النظامية .

وعندى أنه ليس من الغض من قدر الخدمات الجليلة التى أسداها هذان الرجلان اللذان أنقذت أعمالهما الإمبراطورية مما أحدق بها من انحلال ، أن نرى أن إعادتهما تنظيم الدولة لم يكن فى حقيقته سوى قبول واقعى للموقف الفعلى الذى كانت تقفه البلاد ، لا ابتداعاً لنموذج جديد للحكومة . على حين أتم من سبقوهما من الحكام التغييرات اللازمة للجيش؛ أما التفرقة الشديدة بين جيوش الحدود التى كانت تنحط على الدوام فتصبح قوات حراسة مرابطة (Militia) من فلاحين مستقرين ، وبين الجيوش النظامية المؤلفة من صفوة المقاتلة الأشداء ، فلم تكن إلا اعترافاً بحاجات الزمان ومقتضياته . ذلك أن

---

(١) انظر التذييل ب

قوة ضاربة سريعة الحركة يمكن إنفاذها فى وقت قصير إلى أحد أقاليم الأطراف، تستطيع على الأقل أن تطرد المغيرين البرابرة الذين لم تستطع حاميات التخوم منعهم من الدخول إليها . ومما يشهد بضعف الحكومة المركزية استقلال حكومات الولايات عن السلطة المركزية ، حيث أنشئت وحدات أصغر التماساً للكفاية ، على حين أن مركز الإمبراطور نفسه ـ وقد غَضّ منه فى العهد الأخير الاعتماد على أهواء الكتائب ، ـ كان يرفع عالياً فوق كل مصلحة محلية لأى قطاع فى الدولة بازدياد مكانته شبه المقدسة ، التى سبق أن تكهن بها فعلا بعض من سلفوها من الأباطرة ، كما أن التعبير عن ذلك التقديس ، بما كان يجرى عليه من مراسم محكمة بالبلاط ، ربما كان متأثراً بالمثال الفارسى الماثل فى بلاط كسرى . وحتى إنشاء القسطنطينية ذاته ، وهو أمر يسجل —والحق يقال— بداية حقبة جديدة ، يمكن من ناحية أخرى أن يعتبر بغاية البساطة مجرد اعتراف تام بحقيقة مقررة . هى أن مدينة روما لم تعد مركز الإمبراطورية .

الوثنية فى عهدها المتأخر

على أن هناك تجديداً مثيراً آخر قدر له أن يغير أساس الدولة الرومانية بأكمله ـ هو تحويل وضع المسيحية بفضل ما فعله قسطنطين ـ من ديانة محرمة إلى العقيدة المكرمة للبيت الإمبراطورى . وكانت سلخت من عمرها وقتذاك قروناً ثلاثة من النمو والتطور من نواحيها الاعتقادية (Dogma) والإدارية واتساع رقعتها الجغرافية . وبلغ عدد أنصارها بضعة ملايين ، كان ينتمى الجانب الأكبر منهم إلى الأماكن الشرقية ، وذلك فضلا عن أن ما أشرنا إليه آنفاً من نشاطات اليونان والسوريين فى أوربا الغربية أفضى إلى حمل التعاليم الجديدة

إلى المراكز التجارية بتلك الأصقاع . فالمجتمعات البدائية الأولى حل مكانها منذ أمد بعيد بدايات النظام الطبقى فى سلم الوظائف الأكليروسى ، الذى اتخذ له جهاز الإدارة المدنية لحكومة الأقاليم مثالا يحتذيه ، وذلك على حين أن الأهمية السياسية والاقتصادية للحواضر العظيمة قيدت ، إلى حد ما ، السلطة التى يستمتع بها أساقفة روما وقرطاجة وأنطاكية وإفيسوس والإسكندرية . وقد بدأت المسيحية بين أدنى طبقات المجتمع مرتبة ، وكان الانتماء إليها لا يزال قاصراً على الأميين غير المتعلمين ، وإن أمكن وجود المسيحيين فى كل فئات المجتمع ، بل حتى فى دوائر القصر نفسها . على أن ثلاثة قرون من الاتصال بينها وبين عالم الإمبراطورية الرومانية القديمة أفضت إلى إحداث تعديل عميق فى الطرائق التى كانت تعبر بها عن نفسها ، كما أن القرن الرابع بما مر به من صروف التغير أدى إلى التعجيل بنتائج ذلك التفاعل . على أنه لا بد من الإدلاء ببعض بيانات ، مهما يكن عدم كفايتها ، عن الجو الذى كان يسود العالم فى عهد ثيودوسيوس الأكبر .

وفى إبان هذه القرون تغيرت روح الوثنية تغيراً تاماً . ذلك أن الولاء الحق لآلهة دول المدن القديمة ببلاد اليونان وروما توقف من زمن بعيد بين أفراد طبقة المفكرين من المجتمع ، ولكن عروش تلك الآلهة لم تظل شاغرة . فإن التشكك وإن كان بارزاً فى الأدب المسطر ، كانت تحل محله على توالى الأيام فكرة مخالفة عن الدين ، مؤسسة على الرغبة فى الاتصال الشخصى بالمعبود المقدس . وما أكثر الأشكال والتجمعات التى ظهرت فيها تحل الأسرار الخفية السائدة فى تراقيا ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وفارس ، وتبناها العالم

الرومانى ، هذا إلى أن الرطازات[1] (Myths) الهلينية كانت (إن لم تنبذ) تنسج بطريقة ذات أسلوب خاص فى التكوين الجديد لهذه العقائد المركبة . وكانت الظروف السياسية تساعد على صهر العبادات المحلية فى التركيب الأكبر منها . بل حدث حتى فى البدايات السحيقة لدول المدن بأرض اليونان الأصلية، أن كثيراً من آلهة القرى ذوى شأنها حتى أصبح اسمهــا مجرد صفات تضاف إلى اسم زيوس أو أثينا ؛ وحدثت عملية مماثلة لهذه فى روما ، وإن عُوضت النزعة إلى الوحدة هنا بما كانت تظهره من استعداد لتقبل الآلهة الأجنبية فى بانثيونها[2] المزدحم . وأفضى قيام الملوكيات الهلينستية الذى قضى على الحياة المشرقة للمجتمعات بدول المــدن ، إلى تحويل أفكار الناس إلى دخيلة نفوسهم ، حيث شرع كل إنسان يبحث لنفسه عن سبيل إلى الخلاص الفردى، على حين أن الاستبداد الذى ران على الممالك الجديدة التى قامت على النسق الأسيوى ، عود العالم الناطق بالإغريقية على فكرة عبادة الحاكم ، وهى فكرة تغذوها وترعاها بكل عناية الأسر المالكة المتربعة فى العروش، بوصف كونها أداة قوية تعتمد عليها الدولة . وجنت روما ثمار هذه الحال عندما أدخلت عبادة الإمبراطور ، كما أن المبدأ الرواقى القاضى بالاعتقاد « بالعناية Providence » البصيرة بكل شىء والمحسنة الخيّرة ، ربمــا عاد بالعون على أبناء الولايات المتواضعين فى إذكاء فكرتهم التى تصوروها عن الإمبراطور القادر على كل شىء ، الذى كانت عدالته تتصرف فى حياة ورفاهية الجموع الهائلة من السكان .

---

(١) الرطازات (Myths) هى القصص التقليدى المهيد عن الآلهة والأبطال ، وخاصة ما يقدمه العقل البدائى تفسيراً لاحدى الحقائق أو الظواهر . (المترجم)

(٢) البانثيون : معبد يجمع الآلهة جميعاً . (المترجم)

ولم يعد نمو الفكر الفلسفي معادياً للمعتقدات الشعبية ، بل أصبح يعاون بقوة تيارات التوحيد المشوب[1] التي كانت تعمل ناشطة في المشاعر الدينية. وقد بدأ الأمر بوضع المسوغات العقلية للرطازات القديمة ، ثم استحداث رموز لها ، ثم لم تلبث الظواهر المشتركة بين مختلف الملل والنحل التي اعتبرت معالجات لقوة إلهية واحدة ، - حتى مزجت في كتلة كالسديم حاول أفلوطين بتفكيره السليم أن يستخرج منها قاعدة منتظمة ، مستخدماً في ذلك قوانين الاستدلال العقلي عند اليونانيين ، ومطبقاً إياها على مادة لا تتقبل مثل تلك المعالجة. على أن الأفلاطونية الحديثة كانت في يديه منهاجاً للحياة لا مبدأ ونظرية. وحلت في الأنفس نزعة تأملية محل النظرة الرواقية العملية ، وطريقتها في التشديد على الخُلُق ، ومع أنه لا ينبغي إغفال عنصر التسويغ العقلي (Rationalizing) عند أفلوطين ، وهو افتراض الإغريق أن العالم ممكن الفهم ، لأن أدواره المتعاقبة إنما هي نتائج منطقية إحداها للأخرى ، فإن جوهر فكره إنما هو فهم تصوفي للحقيقة يكاد يكون حسياً أي أنه إدراك مباشر يتم دون تدخل من ملكة الاستدلال العقلي . ويتيسر هنا بفضل الوشائج الجوانية المتبادلة بين جميع ما في العالم من أشخاص وأشياء ، والتي ترقد متوارية تحت سطح الظواهر ، وبهذه النظرية أيضاً يصبح تفسير الظواهر الطبيعية كالتخاطر (Telepathy) والفأل واقتران النجوم ممكنا . على أن صنع المعجزات والتطهر اتباعاً للطقوس والعرافة ليس إلا جزءاً يسيرا من فلسفة أفلوطين. وقد تحتم على خلفائه في أثناء محاولاتهم تجميع قوى الوثنية كلها على العدو المشترك ، أن يدخلوا تلك الوسائل السحرية المساعدة ليتهيأ لهم اقتناص عواطف

---

(١) التوحيد المشوب (Henotheism) : هو الإيمان بإله واحد ولكن مع عدم انتفاء الإيمان بغيره . (المترجم)

الجماهير ، على حين أنهم التماساً للتقريب بين المفكرين راحوا يمزجون بنماية الأحوذية بين العقائد والمذاهب التى قامت فى العالم العهيد ابتداء من أفلاطون وأرسطوطاليس إلى الرواقيين والكلبيين . وهكذا يتضح أن علم الكون (Cosmology) التصوفى الذى اشتهرت به الفلسفـــة الأفلاطونية الحديثة وما حوى من فكرة عن الخلاص ، على صورته التى طورها إيامبليكوس (Iamblichus) ، يعتبر الشكل النهائى الذى اتخذته الوثنية المظلمة أداة فى أثناء كفاحها مع المسيحية[١] ، وينبغى ألا ينظر إلى الصراع على أنه معركة بين الإيمان والتشكك ، بل منافسة بين ديانتين غريمتين ذواتى خفايا وكل منهما تعبر عن زمانها[٢] . وبغض النظر عن الاعتقاديات (Dogma) لا تكاد تكون ثمة ناحية غير مشتركة عند كل من الوثنيين والمسيحيين : ـ الزهد والصوم والتهجد والتطهر والطقوس والقديسين والملائكة والشياطين والاعتماد على الرؤى والتكهنات باستفتاح الكتب[٣] (Sortes) . والفن الوثنى والمسيحى يستخدمان طريقة رمز واحدة ، حتى ليعسر التمييز بينهما ، إلا فى الحالات التى

---

(١) وهذا الوضع ينطبق بوجـــه رئيسى على الشرق ، حيث يتم مصطلح « الهللينستية Hellenism » الذى يطلقه المسيحيون على خصومهم ، على المحاولة الواعية وغير الناجحة لبعث تقاليد الثقافة الكلاسيكية دفاعا عن العقيدة القديمة . على حين أن مصطلح « الوثنية » وهى النظير اللاتينى للهللينستية فى الغرب يشير إلى وجود الشعائر القروية البدائية بشكل متناثر . ولقد كانت روما بما اجتمع لها من ذكريات تاريخية هى المكان الوحيد الذى صمدت فيه نحلة سياسية وأرستقراطية لعبادة الآلهة القدماء .

(٢) إن جوليان نصير الوثنية يهاجم الكلبيين الآخذين بالمذهب العقلى الذين يسخرون من الرطازات الكلاسيكية ، مهاجمة أكثر شدة ومرارة مما يهاجم أتباع المسيحية . أنظر ج . بيديه فى : « La Vie de l' Empereur Julien » (باريس ١٩٣٠) ص ص ٢٤٨ ع ع .

(٣) كان الأقدمون يستفتحون الكتب السماوية أو إليانة هوميروس أو إينيادة فرجيل التماساً للفأل . (المترجم)

نستخدم فيها الموضوعات المسيحية البحتة ؛ وفضلا عن ذلك ، فإن النقاد المصريين يتجهون إلى تخفيض عدد هـذه الحالات[١] التى يفترق فيها المسيحيون عن الوثنيين . إذ إن المسيحيين كانوا عندما هلّ القرن الرابع تقبلوا الدراسات والعلوم الوثنية وتشربوها ، وشاهد ذلك أن المنازعات التى دارت فى المجالس الكنسية الكبرى تدور حول أفكار أفلاطون وأرسطو التى كانت تلوّن أفكار الناس فى ذلك العصر وتمدّها على نفس الشاكلة التى تريم بها نظريات النشوء والارتقاء وعلم النفس على العالم اليوم . ومما هو جدير بالذكر أن جوليان فى أثناء محاولته إعادة العبادات الوثنية الأولى كان يهدف إلى تأسيس نوع من هيئة دينية أو « كنيسة » تشبه المنظمة المسيحية من أوجه كثيرة ؛ فوضع لها مذهباً اعتقادياً محدداً وأقام فيها سلّما للوظائف الكنسية ومجموعة من المستشفيات وبيوت الصدقات ومعونة الفقراء وسجلا بالكتب المحرمة[٢] على المؤمنين (Index Expurgatorius) .

ديانة القرن الرابع

والشاهد المقنع على قوة مركز المسيحية ، إخفاق جوليان فى تحقيق هدفه إزاء الرأى العام ومعارضته . ذلك أن الرطازات المسوّغة عقلياً والآلهة المندمجة بعضها فى بعض كان يعوزها التقبل الشعبي الحسن الذى تجده قصص الكتاب المقدس ، وهى شىء أقرب فى روحه وزمانه لعالم القرن الرابع . ذلك وإن ما فى الأفلاطونية الحديثة من نقاط دقيقة خفية ، وما يتصف به

---

(١) مثل رمز لسمكة . انظر ف . ز . ج . دولجر فى (Ixoye) (مونستر ١٩١٠ — ١٩٣٢) .

(٢) انظر بيديه (Bidez) بالمصدر نفسه ص ٢٦٩ .

التقريب بين النحل عند الوثنية من ليونة وعدم تحديد وراحة نفسية، كانا بمنزلة سواء، من حيث ضعف قوتهما على إجبار القلوب على الإذعان. وكانت المسيحية فى توحيدها القاطع النافى لكل ما عداه تشارك اليهودية فى أنها مصدر قوى للاستقرار، (على النقيض من سائر الديانات القديمة). فهى عقيدة ليس فيها مكان لآلهة أخرى عدا ما يتوارى فى زى الشياطين الشريرة. وكانت مذاهب العقيدة تتشكل وتشتد صلابة على مدى الزمن، يعززها فى ذلك امتلاكها لكتاب مقدس معتمد، وهنا أيضاً حققت المسيحية لهذا الزمان حاجة كان يطلبها، وذلك لأن من خصائص المراحل المتأخرة فى الفكر اليونانى الرومانى، ازدياد اعتماده على سلطان الشواهد المتمدة. وغير خاف أن عبقرية بلاد اليونان الأصيلة القادرة على الخلق والابتكار اختفت من زمن بعيد، وأن الانتصارات التى أحرزها الرومان فى ميادين الأدب والفن والعمارة والهندسة بل حتى القانون، كانت فى أغلب أمرها ثمرة التطبيق الذكى لمبادئ مكتشفة من قبل[1]. وكان الناس يحسون أن العصر الذهبى قد ولى. ومن الموضوعات المألوفة فى كتابات ذلك الزمان ازدياد الشغف بالماضى والشعور بالنقص فى الحاضر. فإن الإمبراطور قسطنطيوس طوى فى نفسه عند زيارته روما لأول مرة فى أخريات أيامه، إعجابه بالسوق (الفوروم) التى أنشأها تراجان؛ ولكنه رأى أنه ليس فى وسع الإنسان الفانى أن يطاول مثل هذا العمل العظيم، وصرح

---

(١) انظر الحكم القاطع الذى أصدره بيورى حيث قال: «لم يبتكر رومان الامبراطورية شيئا. وليس من الغلو فى شىء أن نقول، إن الصفة الغالبة على العالم الرومانى من عهد أوغسطس حتى سقوط أوغسطولوس، الافتقار إلى الأفكار والعجز عن التفكير الجاد المبتكر، وفرط التوقير للمراجع المعتمدة».

بأنه ليس كفوا إلا لمحاكاة حصان تمثال تراجان (Trajan) الذى يمثله في هيئة[1] الفارس .

وفوق هذا ، كان القرن الرابع عصراً يسيطر عليه « المجهول » . فإن خيوطاً خفية كانت تسلك كل شيء فى العالم مجموعات من التعاطف أو التنافر . فالشمس والقمر يمارسان سلطانهما على المخلوقات التابعة لمملكتيهما . ولصيحة الديك فى الصباح وشخوص عين الزهر إلى ضياء الشمس معناها الخفى[2] . والإنسان نفسه ، ذلك الكائن الذى يولد فى ظل اقتران النجوم ، والذى ترافقه مدى الحياة الروح الحارسة ، اتخذ وضعه فى عالم كل شيء فيه — حتى الجمادات — له صفات سحرية ، وقد يعود عليه أقل الأفعال أو الأحداث بالشؤم أو الثبور . ولم يأت على الإنسان حين سمع فيه الصوت السماوى أكثر ولا أوضح منه فى هذا الزمان . وكانت الرؤى وتأويلاتها تزداد على الأيام بروزاً ، وأخذ عالم الأحلام يجتاح على الدوام ساعات يقظة الإنسان . واتخذ الفكر فى ذلك الزمن صبغة ذاتية قوية ؛ وازدادت قيمة ما انطوى عليه الإنسان من صراع داخلى وتجربة عاطفية ، بينما أخذ العالم الخارجى يختفى فى سحب الوهم والخيال . ولو أنك نظرت إلى العمل العظيم الذى ألفه القديس أوغسطين ، وهو عمل لا يمكن إيفاؤه حقه من تبيان أثره على الناس فى العصور الوسطى ، لوجدته يتصف بهذه الصفة الشبيهة بالأحلام . وإن الأسنة المشحوذة فى بيانه القوى الفاخر والمتناقض أيضاً فى كثير من الأحيان ، لتزود الجدليين فى مختلف المدارس بل حتى فى المدارس المتضادة بمستودع كامل السلاح ، كما

---

(١) أميان ق ١٦ ، ١٠ ص ١٥ .

(٢) تلمس فى أعمال السحر بالعصور الوسطى آثاراً لكثير من هذه الوثنية المتأخرة .

أن مزاعم البابوية والإمبراطورية فى غرب أوربا والتى لم يتصورها خيال أوغسطين قط ، كانت تدور المناظرات فيها على أساس جدلياته. ولكن ينبغى لنا أن نفرق بين أوغسطين ابن القرن الرابع وبين البناء الجديد الذى شيدته على أساساته طاقات قادرة على التنظيم ظهرت فى القرون التالية . وإن أوغسطين ليقف وسط العالم القديم تحده حدود الإمبراطورية الرومانية ، ومع ذلك فهو يملك جميع موارد الثقافة الغربيـــة . على أنه فى الحين نفسه يقف بمعزل من هذا العالم ، ملتفاً فى حلمه الجليل بمدينة سماوية ليس من فيها من القطان إلا غرباء وحجاجاً على هذه الأرض . وكان هذان المظهران جميعا : وأعنى بذلك وحدة الحضارة الوثنية والمسيحية من ناحية ، والصدع العميق القائم بينهما من ناحية ثانية ، غريبين جميعاً عن العصور الوسطى ، يوم لم يعد خضوع الحضارة الوثنية والمسيحية السابق لأباطرة الرومان سوى ذكرى فى غرب أوربا[1] ، ويوم ذوى نهر الدراسات الكلاسيكية حتى أصبح مجرد بضعة جداول قليلة توجه بعناية إلى قنوات الكنيسة ورجالها . ولو نظرنا من زاوية ذلك العصر إلى كتاب « مدينة الله Civitas Dei » الذى وضعه أوغسطين لوجدناه تأكيداً حاراً للتدخل الإلهى فى الشئون البشرية ، أكثر منه « فلسفة للتاريخ » : ووجدناه رؤيا وجدية أكثر منه صوغا تكهنياً للحدود القادمة مستقبلا للكنيسة والدولة ، ألفه متصوف فيلسوف تعالى عن الحقائق المحزنة التى يحتويها زمانه ، بما دبج من وصف لمجتمع مثالى ، يقوم على مبدأ العدالة الحقة ، فيلسوف لم يتطلع إلى عالم الحس بل إلى شرفات مدينة سرمدية لم تبنها يد[2] .

---

(١) إن الأثر العميق لتلك الذكرى معروف مشهور : ولكنه أثر يمارس فى عالم الفكر لا الحقائق .

(٢) انظر المقارنة التى عقدها المستشرق جرونيباوم فى كتاب « حضارة الاسلام » الذى صدر للمترجم بمجموعة الألف كتاب ، بين القديس أوغسطين وبين الإمام الغزالى ص ٣٤٨ (المترجم)

وحدة الإمبراطورية

عند وفاة ثيودوسيوس ، قسمت الإمبراطورية بين ولديه ، أركاديوس وعمره ١٨ سنة وقد ورث الجزء الشرقى ، وهنوريوس وعمره ١١ سنة ونال الجزء الغربى . ولم يكن فى ذلك التقسيم شىء جديد . إذ كانت هناك دوما فروق معينة بين الولايات الغربية ، التى كانت ثقافتها وحياة المدن فيها مما أنشأته روما ، والمناطق الشرقية التى كانت لا تزال تحتفظ بالتقاليد الهلينستية. وقد كان تنظيم الإمبراطورية فى عهدى دقلديانوس وقسطنطين ، ذلك التنظيم الذى مهد السبيل لتولى إمبراطورين فى الإمبراطورية ، تهيأ له أن يستقر بوصفه التنظيم الطبيعى للأمور ، الذى استطاع أن يثبت على اضطرابات القرن الرابع[١] . ولذا كان أول ما قام به فالنتنيان من أعمال (٣٦٤) عندما تولى عرش الإمبراطورية ، أن عين فالنز إمبراطوراً شريكا . ومنذ تلك الساعة أخذ شطرا الإمبراطورية فى الافتراق السريع . ولم تتهيأ إلا فرص قليلة ، وعلى أزمنة متباعدة لقيام الشطرين بعمل موحد ؛ ولعل آخرها الحملة البحرية الكبرى التى سيرت فى ٤٦٨ على جزريك (Gaiseric) فاتح أفريقية الوندالى ، الذى كانت قرصنته تهـــدد تجارة البحر المتوسط بأكملها ؛ على أن هذه المحاولة القائمة على التعاون انتهت بالإخفاق التام .

ومع ذلك فمن الأمور الهامة أن يتذكر القارئ أن الإمبراطورية ظلت فى عين معاصريها ، وحدة واحدة غير قابلة للتقسيم . ومن الأمور الزائفة والغريبة عن فكرات ذلك الزمان التحدث عن « الإمبراطورية الشرقية

---

(١) انظر ما يلى فى هذا الفصل بعنوان « الإمبراطور » . إذ عادت الإمبراطورية منذ عام ٤٨٠ فأصبحت من جديد تخضع لإمبراطور واحد .

والإمبراطورية الغربيـة » ؛ ذلك أن الناس كانوا يفكرون فى شطرى الإمبراطورية باعتبار كونهما : «الجزئين الشرقى أو الغربى» Partes orientis) (Veloccidentis) . ومن الأمور الشائعة قولهم إن « الإمبراطورية الغربية » سقطت فى ٤٧٦ عندما خلع أودواكر الإمبراطور رومولوس أوغسطولوس ، بيد أن ذلك القول ينطوى على غلطة مزدوجة . ذلك أن رومولوس كان مغتصباً للعرش . إذ إن الإمبراطور الشرعى للأجزاء الغربية الذى لجأ إلى دالماشيا قبل ذلك ببضع سنوات ، قد مات فى ٤٨٠ . وكان معنى ذلك من الناحية الدستورية أن زينون أصبح يحكم آنئذ الإمبراطورية كاملة غير مقسمة من بيزنطة . واعترف المتبربرون بمبدأ استمرار الإمبراطورية ذاك ، كما أن بعض زعمائهم كانوا يناصرون ذلك المبدأ مناصرة حقة [١] . ومن شواهد ذلك أيضاً ، أنه حدث بعد ٤٧٦ بزمن بعيد أن السنوات لم تزل تؤرخ باسمى القنصلين ، اللذين ينزل أحدهما بروما ويقطن الآخر القسطنطينية ، كما أن الدساتير الإمبراطورية لم تبرح تُعلَن باسم الإمبراطورين كليهما ، وإن كان الذى حدث بعد ٤٥٠ هو أن القوانين الغربية لم تعد تنتشر فى الشرق . فإن الإمبراطورية كانت من الناحية النظرية دولة واحدة (Respublica) ، يعقد البرابرة معها المعاهدات ، على أننا نصادف مرتزقة البرابرة (Foederati) فى الشرق يقاتلون مرتزقة الغرب من البرابرة . وحدث ذات مرة أن استيليكو قائد هونوريوس اعتبرته القسطنطينية « عدواً للدولة » لأنه حاول أن يفصل إقليم (Prefecture)

---

(١) أمثال ألاريك وأتولف وثيودريك . انظر القوط الترببيون بالفصل الثانى وانظر مملكة ثيودريك بالفصل الثالث . ومن الحقائق البارزة طوال العصور المظلمة ، أن حكام بيزنطة ظلوا على الدوام يؤكدون إدعاءهم الحق فى ممارسة السيادة على ممتلكات روما بأوربا الغربية ؛ وأن مركز شرلمان لا يمكن أن يفهم دون الرجوع إلى ذلك الادعاء . بل إن . ؤرخا بيزنطيا كتب فى القرن الثامن نفسه يقول إن فرنسا قسم من الأقسام الإدارية (Diocese) بالامبراطورية الرومانية .

إلبريا (Illyricum) عن الشرق وبضمه إلى نصيب سيده . ولم يتردد الإمبراطور زينون فى شهر السيف على إيطاليا ، يوم استطاع بإرساله ثيودوريك لمهاجمة أودواكر ، أن يخلص تراقيا من شر قومه من القوط وأن يرحم الخزانة البيزنطية من النفقات الطائلة التى يدفعها لهم أعطيات .

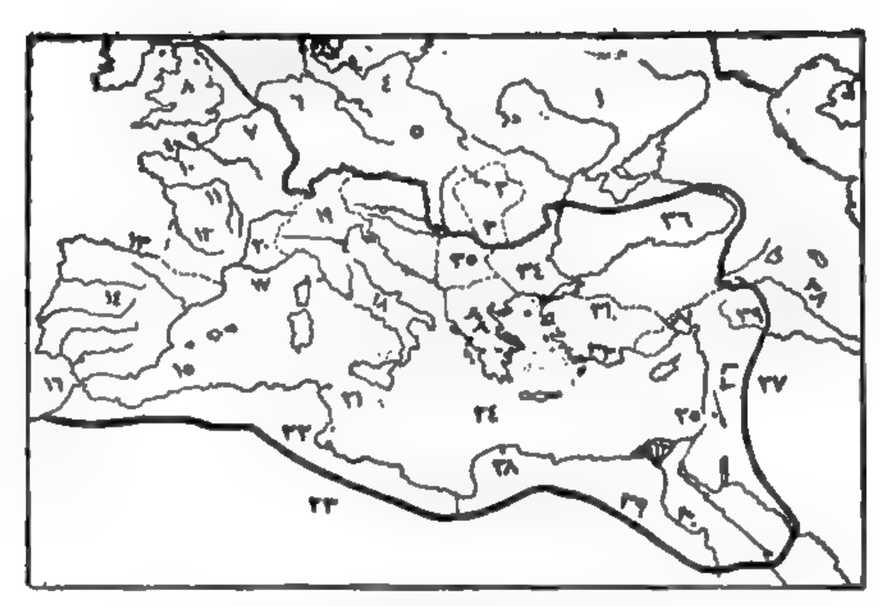
ومنذ أن افتتح قسطنطين عاصمته الجديدة فى (٣٣٠) أخذت القسطنطينية تنمو على حساب روما . وكانت من الناحية التجارية أهم منها كثيراً ؛ ذلك أن مركز التجارة العالمية انتقل إلى شرق البحر المتوسط ، وظهر فى الأفق منافس قوى لأنطاكية والإسكندرية . وكانت عظمة الأساقفة تطابق إلى حد كبير عظمة مدنهم ؛ وبذا صار كرسى القسطنطينية الأسقفى الذى كان تابعاً أول الأمر لهرقلية مثار حسد المطارنة ، ثم صار آخر الأمر يفوق فى المكانة كرسى الإسكندرية وأنطاكية جميعا ، ولا يسبقه سوى كرسى القديس بطرس بروما ، وذلك لأن : « القسطنطينية هى روما الجديدة » . وكانت المدينة من الناحية السياسية مركز القيادة العليا لنظام عسكرى وإدارى عظيم . بل لقد كان لها مجلس شيوخ خاص ، وإليها كان يرد القمح من مصر ، وقد كان الحصول عليه امتيازا لروما فى أحد الأيام .

وفى أثناء المائة الأخيرة من السنين ، لم يدخل روما سوى أباطرة ثلاثة ، وهو أمر يتفجع عليه الشاعر كلوديانوس . ذلك أن روما أصبحت مدينة إقليمية . وظلت ميلانو التى تقع على مسافة دانية من الحدود الإيطالية ، مقراً للإمبراطور حتى انسحب منها هونوريوس خشيــة سطوة الأريك ، إلى مستنقعات رافنا ، التى أصبحت قصبة الحكم نيفا وقرنا من الزمان . وقد كانت غيبة الأباطرة سبباً فى أن روما صارت فى قبضة البابوات ، الذين شرعوا

آنذاك رويداً رويداً فى تنمية سلطانهم فى أثناء القرون الوسطى . كان البابوات يستطيعون فى الحين المناسب أن يتحدّوا الإمبراطور ، وأن يتفاوضوا مع المتبربرين ، وأن يرفعوا الرأس عاليا إزاء البقية الباقية من الأرستقراطية الرومانية التى يتزعمها والى (Prefect) المدينة رئيس جماعتهم ، بعكس بطاركة القسطنطينية الذين كانوا يعيشون فى ظل القصر . ولما أن سقطت روما أصيب العالم المتحضر بهزة شديدة ابتداء من أوغسطين فى هيبو إلى جيروم فى بيت لحم . ولكن الصدمة قد أصابت العواطف وحدها (وإن لم تكن رغم ذلك إلا صدمة حقيقية) . إذ إن روما كانت المدينة المقدسة : التى استودعت كلا من النظام القديم والعقيدة الجديدة ، ففيها كوخ رومولوس وقبر بطرس القديس . ولكنها لم تعد منذ زمن بعيد المركز الفعلى للإمبراطورية .

الحــــدود

وفى (٣٩٥) أصبحت الأقاليم الشمالية الغربيــة من الإمبراطورية على عتبات تغيرات هامة . ففى بريطانيا بات الدفاع عن « الشاطئ السكسونى » ، أى صفحة البحر المعرضة لهجمات السكسون فى بحر الشمال وعلى كل من جانبى بحر المانش ، أهم مصدر لقلق روما فى أثناء القرن الرابع ؛ إذ يبدو أن مجموعة من القلاع امتدت قرب نهاية ذلك القرن على ساحل يوركشير . ولكن الجيوش الرومانية انسحبت فى (٤٠٢) لتسهم فى الدفاع عن إيطاليا . وفى (٤٠٧) عبر مرشح للعرش اسمه قسطنطين حدود بلاد الغالة بمعظم القوات الرومانية ، وهناك هزم هزيمة تامة ولقى مصرعه على يد قواد هونوريوس . ولم تعد الجنود إلى موطنها ، ثم انقضت مائة سنة لم يسمع فيها إلا القليل عن بريطانيا . ويشهد علم الآثار ولا سيما ما عثر عليه من النقود بما حدث من التخلى عن المواقع



(٢) خريطة الإمبراطورية الرومانية فى القرن الرابع

١ — القوط الشرقيون	٢ — داكيا	٣ — القوط الغربيون
٤ — اللومبارد	٥ — الوندال	٦ — السكسون
٧ — الفرنجة	٨ — إقليم بريطانيا	٩ — نهر السين
١٠ — باريس	١١ — بلاد الغال	١٢ — بوانييه
١٣ — بوردو	١٤ — إقليم أسبانيا	١٥ — قرطاجنة
١٦ — أشبيلية	١٧ — مرسيليا	١٨ — إيطاليا
١٩ — ميلان	٢٠ — ارلس	٢١ — قرطاجة
٢٢ — إقليم إفريقية	٢٣ — الماوريون	٢٤ — البحر المتوسط
٢٥ — بيت المقدس	٢٦ — إقليم الشرق	٢٧ — العرب
٢٨ — برقة	٢٩ — إقليم مصر	٣٠ — نهر النيل
٣١ — آسيا	٣٢ — أزمير	٣٣ — مقدونيا
٣٤ — تراقيا	٣٥ — إقليم داكيا	٣٦ — إقليم بنطش
٣٧ — إيساوريا	٣٨ — الدجلة	٣٩ — نهر الفرات

الرومانية وبإحراق المدن ، وأخذ اسكتلنديو إيرلندة يلاحقون الساحل الغربى بالغارة والدمار ، وفى إحدى غاراتهم سيق باتريك أسيراً من مصب نهر السيفون فيما يرجح . واندفعت القبائل التيوتونية فى أودية الأنهار وعلى الطرق الرومانية شرقاً وجنوباً . ومنذ تلك اللحظة لم تعد تصل إلى العالم الرومانى عن بريطانيا سوى الشائعات والأساطير . إذ إن بروكوبيوس فى القرن التالى يصفها بلاداً تكاد تمتلئ بالثعابين ، وجزيرة أشباح لا يقطنها إلا الموتى، تنقل إليها الأرواح عبر البحر من بريتانى .

وكانت حدود الراين أيضاً على شفا الانهيار . وكان جوليان (يوليانوس) أعاد إليها النظام فى (٣٥٧) بسلسلة من الحملات الباهرة على الفرنجة والألامان المهاجمين ، وواصل فالنتنيان الكفاح ونصّب البورجنديين الوافدين حديثاً لمقاتلة الألامان ، وتمكن استيليكو فى (٣٩٥) من توكيد الدفاع عن بلاد الغالة ، فضلا عن بريطانيا ـ مدة عشر سنوات أخرى . ولكن النواحى الشرقية اصطبغت بصباغ جرمانى ثقيل . فقامت مستوطنات لأقوام من التيوتون على جانبى الراين ، وكان الدفاع عن تلك المنطقة موكلا إلى الجند المرتزقة أو الفرق المساعدة (Foederati) وهم القبائل المتبربرة الذين كانوا يظهرون فى كل يوم استعداداً لقتال أبناء قرابتهم أو منافسيهم لقاء أعطيات الرومان أو ما يقطعهم الرومان من أرض ، ثم ينضمون فى اليوم التالى إلى أعدائهم بالأمس ، أملا فى ابتزاز السلب ، أو الحصول من الإمبراطورية على شروط أفضل . وعندما استدعى معظم حرس الحدود للدفاع عن إيطاليا من الأريك ، استطاعت قبائل بأكملها عبور النهر وقد تجمد ماؤه فى ليل بهيم ، وأن تدخل الأراضى الرومانية دون التعرض لشىء من العقاب . وعلى هذا النحو عبر الراين حشد

مختلط من الواندال والسويف والألان حوالى (٤٠٦) ، فقضوا على مقاومة الفرنجة، وشرعوا يجوبون فى أرجاء بلاد الغالة ردحاً من الزمان ، وهم ينهبون معظم المدن ويتسببون فى الفوضى والمجاعة ، حتى تمكنوا فى النهاية فى (٤٠٨) من عبور جبال البرانس ، واستقروا بأسبانيا ، محدثين بها نتائج مماثلة للتى أحدثوها بغيرها وإن كانت هنا أدوم . ومن الجلى أن قبضة الإمبراطورية على ممتلكاتها وراء جبال الألب أخذت تهن وتتقلقل . فإن شئنا سوق دليل آخر صح أن نلتمسه فيما فعله قسطنطين المغتصب القادم من بريطانيا ، إذ تمكن من أن يطلق على نفسه اسم سيد بلاد الغالة مدة أربع سنوات ، لمجرد تجنبه لقاء البرابرة المتجولين . وإن حملات قسطنطين وغيره من زعماء الرومان على قواد هونوريوس لتتسم بجو من الزيف واللاحقيقة عندما نتبين أنه فيما عدا ولاية بروفانس والركن الشمالى الشرقى من أسبانيا ، كانت هذه الولايات تنتقل فعلا واسمًا إلى قبضة البرابرة .

ومع ذلك فإن هذه الحقائق لم تتضح فى (٣٩٥)[١] ؛ إذ إن الضغط الرئيسى كان مركزاً فيما يبدو على منطقة الدانوب . إذ حدث فى (٣٧٦) أن القوط وقد دفعهم إلى الأمام غزو الهون ، تدفقوا على الحدود ، وعاثوا فساداً بمقدونيا ، وتمكنوا فى (٣٧٨) فى معركة أدرنة الكارثة من إنزال الهزيمة بجيش رومانى وقتل الإمبراطور . ومن الجلى أنهم قد وصلوا فى زحفهم هذا إلى أسوار القسطنطينية نفسها ، ومع أن ثيودوسيوس تمكن من الاتفاق معهم ، فإنهم ظلوا يهددون العاصمة . إذ إن أعداداً غفيرة منهم كانت

---

(١) إن كلوديانوس وهو شاعر معاصر يتغنى ثقة تامة بما أحرزه استيليكو والجيوش الرومانية ببريطانيا وغالة من انتصارات باهرة ، مقارنا إياها بما أنزله ماريوس بقبائل الكيمبرى والتيوتون من هزائم ولكن لايعزب عن البال أنه كان شاعر القصر وداعية ماهراً ذكيا .

تعمل فى الجيش الرومانى ، بينما نزلت جموع المحالفين منهم بداخل الإمبراطورية بوصفهم وحدات وطنية تطالب بإعانات ضخمة .

ولكن القسطنطينية نجت من المهلكة . ولم يكن ذلك إلا لشىء واحد كما سنرى بعد : هو أن القوط حولوا وجهتهم نحو الغرب ؛ ولسبب آخر هو أن الحدود الشرقية خيم عليها الهدوء طوال القرن الخامس بأكمله . وقد اقتسمت أرمينية فى (٣٨٧) بعد أن ظلت « دولة حاجزة » بين روما وفارس منذ عهد أوغسطس ، فانتهى بذلك النزاع الطويل على اكتساب « مناطق النفوذ » — وإلى أبعد من ذلك جنوبا ، أى بأرض الفرات ، ظل خطر الدفاع هادئاً لا يكدره مكدر ، وذلك لما أحدق بفارس من تهديد أعداء أخر بمنطقة نهر آموداريا : كما أن سلسلة القلاع الرومانية كانت كافية لردع شراذم الأعراب المتجولة بتلك المنطقة .

وحافظت الدولة فى إفريقية أيضاً على حدود الصحراء من البدو المغيرين ، على الرغم من تضاؤل كفايتها ؛ وشاهد ذلك أن سينيزيوس (Synesius) أسقف برقة (Cyrene) وجد القوات النظامية أجبن من الجند المحلية التى كان يجمعها من جيرانه ويقودها بنفسه . فإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا السكان المغاربة والبونيين[1] قد اغتنموا فرصة الاضطرابات[2] الاجتماعية والدينية للتخلص من نفوذ الرومان .

---

(١) المغاربة (Moors) والبونيون : هم الفينيقيون وأحفادهم النازلون بشمال إفريقية (المترجم)
(٢) انظر ص ٢٧ الحديث عنه بعنوان الهون وما تبعه .

الجيش

وكان الجيش فى قريب من ٤٠٠ للميلاد مرآة تعكس الأحوال العامة التى تشيع فى الإمبراطورية . فقد كان معروفاً رسمياً أن البنيان الأساسى لإصلاحات دقلديانوس وقسطنطين كان لا يزال قائماً . وكان الغرض من هذه الإصلاحات هو أولا ـ تشجيع الكفاية بفصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وثانياً المحافظة على الحدود بإقامة خط متصل من المعسكرات ، على حين أن زهرة الجيش (بغض النظر عن فرق الجند الإقليميين على اختلاف أنواعهم) كانت تؤلف قوة متحركة تستطيع أن تبادر بالتحرك إلى أية نقطة تتعرض للغزو[١] . وتزايد إبان القرن الرابع الفرق فى النوع بين جيش الميدان (Comitatenses) وقوات الحدود أو الثغور (Limitanei) ؛ فإن الأخيرين، وكانوا موزعين على معسكرات دائمة أو مستوطنات صغيرة ، ألحقت بها بعض الأرض الزراعية ، ما لبثوا أن أصبحوا تقريباً جند رديف من الفلاحين : وكثيراً ما كانوا أقواماً أشبه بالبرابرة بسبب تزاوجهم المختلط بالأجانب والتسرب المستمر بين الناس على امتداد مناطق الحدود ؛ ولا يختلفون كثيراً عن سكان المستوطنات التامة البربرية (Laeti or Gentiles) الذين سمح لهم بالاستقرار فى نواح مختلفة داخل الإمبراطورية ، مقابل قدر معلوم يؤدونه من الخدمة العسكرية . وكانوا ، على أحسن الأوضاع ، يعدون جنداً من الدرجة الثانية ، ونقيضاً غير كريم للجند النظاميين .

وتبين قوائم الجيش زيادة كبيرة فى عدد الكتائب : ولكننا نستنتج

---

(١) انظر التذييل ا

نقلا عن مصادر أخرى أن الكثير من هذه الكتائب لم تكن موجودة إلا على الورق فقط ، أو كانت مجرد فصائل من نفس الكتيبة . إذ الواقع أنه فى تلك الأيام صار العدد المألوف للوحدة الفعالة ألف رجل لا ستة آلاف . ولم بعد يقودها آنئذ وال (Prefect) بل تريبيون . وكثيراً ما كانت تستخدم وحدات أصغر من أنواع مختلفة هى الفصائل (Nu meri) تتكون من حوالى خمسمائة رجل . ويبدو أن الأعداد الفعلية لقوات الميدان الرومانية فى أثناء القرن الخامس كانت بالغة القلة ، وكانت تزاد عادة باستئجار الحلفاء المتبربرين ، وهم قوم لا يعتمد عليهم فى الغالب كما أنهم يتقاضون دائماً أجوراً باهظة .

غلبة البرابرة على الجيش

وبلغ من تغير الجندى الرومانى فى ذلك الزمان أن زميله من جند الإمبراطورية الأولى لم يكن ليستطيع تمييزه كجندى ، إذ لم يكن يرتدى الزرد سوى الخيالة وقلة من المشاة . وحل محل الترس المثلث القديم ، درق مستدير مجوف ، غالباً ما كان يحمل شارة الفرقة . وكان السيف القصير (Gladius) المستخدم فى الطعن لا يزال يستخدم ، ولكن النصل العريض (Spatha) الطويل ، وهو من أسلحة البرابرة ، أخذ يحل محله . وندر الآن حمل حربة الرمى الثقيلة (البيلم Pilum) فلم تعد تستخدم إلا عند الجند البرابرة . وكانت دبابيس[١] (Pikes) القرون الوسطى آخذة فى الشيوع ، وأصبح جميع الراكبة فى القرن التالى يحملون المزاريق . ونقل القوس عن البارثيين ، ولم ينقض طويل زمن حتى صار سلاحاً للفارس والراجل على السواء . وحدث

---

(١) الدبوس آلة حربية تشبه الحربة طويلة القناة مدببة ذلبية . (المترجم)

تقدم فعلى فى الخيالة فى أثناء القرن الرابع : إذ أظهرت أهميتها (أى الخيالة) كارثة أدرنة ، وظهرت الفرسان المدرعة للقرون الوسطى فى صورة الخيالة الثقيلة (Cataphractarii) لأول مرة ، وما لبثت منذ تلك اللحظة حتى صارت القوة الفاصلة فى المعارك . وتسرب إلى الجيش كثير من الكلمات والعادات الألمانية فإنا نسمع اسم الدرانجوس (Drungus) ، وهو نوع من تشكيلات الجيش ؛ على حين أن صيحة الباريتوس (Barritus) وهى صيحة حرب كانت تبدأ بهمهمة خافتة وتنتهى بزئير رهيب ، قد انتقلت آنئذ من الجند المساعدة (Auxilia) الألمانية إلى صفوف الجيش بأكملها .

ومما يلفت النظر إلى المظهر غير الرومانى الذى اتسمت به القوات الإمبراطورية فى تلك الفترة ، ـ عَلَم الكتائب الجديدة المنقول فيما يرجح عن كتائب الفرقة الرومانية الكاملة القديمة ، التى تكاد الكتائب الجديدة تضارعها فى العدد . وكان العلم على هيئة أفعوان (Draco) ـ وهو شارة لعلها اقتبست عن الداكيين (Dacians) ، وهو مخلوق ضخم بربرى الشكل يمتلىء بالهواء ويثبت على رأس رمح .

وهذه الشارات البربرية ليست إلا أعراضاً لتغير بالغ العمق . فإن الجندى الرومانى كان يحارب آنذاك على قدم المساواة مع الهمجى المتبربر . وكان فى الأيام السالفة يقل عن المتبربر عدداً وقوة احتمال ؛ ولكن كانت له وقتذاك الغلبة على المتبربر بفضل تدريبه ونظامه الكامل وتفوقه فى السلاح ووسائل المواصلات . فأما الآن فإن ذلك كله قد ذهب . إذ إن التكتيك المعقد لم يعد فى مكنة الرومان ؛ بل إن المعسكرات العظيمة التى كان الفيلق الرومانى يقيمها كل ليلة ـ وبها كان يزيد روحه المعنوية قوة وحركته سرعة ـ لم تعد مألوفة

فى ذلك الحين . وكان كثير من البرابرة مزودين بسلاح أفضل ، بل لقد خدم بعضهم فى القوات الرومانية فترة من الزمن . هذا إلى أن الجهاز الإمبراطورى كان يتداعى . وكانت إدارة المهمات الحربية مقلقلة الأسس ، والأعطيات مضطربة ، وكان الجو مفعما بالاضطراب وسوء النظام .

وهناك نتيجة ترتبت على ذلك ، هى نمو عدد الأتباع الشخصيين ؛ وأصبح القانون ألعوبة فى يد كبار الملاك يتناولونه بالعبث كيف يشاءون ، وصاروا يدفعون الأجور لأتباعهم ويسلحونهم ويطعمونهم . ونمت تلك العادة متأثرة فيما يحتمل بنظام حراس الأمراء أو الأتباع (Comitatus) الألمانى الذى يصفه تاكيتوس[1] . لم يلبث نظام الأتباع أن أصبح معترفاً به فى عهد جستنيان ، يوم أصبح جميع القواد ، بل حتى الموظفين المدنيين والأفراد العاديين يتخذون من البقلار (Buccellarii) أتباعاً لهم[2] . وبلغ عددهم عند بليساريوس (Belisarius) مثلا ٧٠٠٠ رجل ، ولكن كانت تلك حالة استثنائية . إذ لم يكن لدى نارسيس (Narses) سوى أربعمائة .

كانت الكتائب الرومانية مكونة فى الأصل من الإيطاليين ؛ ثم استدعت الحال فيما بعد اللجوء إلى أبناء الأقاليم ، حتى ترامى الأمر إلى أن أصبحت أقل أجزاء الإمبراطورية مدنية مثل بلاد الغالة وإلليريا وإيسوريا

---

(١) انظر من الفصل الثانى فى عنوان ألمانيا الباكرة وتاكيتوس : (٥٥ ؟ — ١٢٠ ؟) مؤرخ رومانى ذائع الصيت [المترجم] .

(٢) يظهر أن كلمة البوقلار أو البوكلارية مشتقة من لفظ Buccella ، وهو ضرب من البسكويت ؛ ولعل ذلك يرجع إلى أنهم كانوا يحصلون على طعام أفضل من الوجبات الخشنة التى كان يعطاها الجند العاديون .

(Isauria) —مناطق التجنيد الرئيسية فى الدولة . أجل إن التجنيد الإجبارى كان لا يزال موجوداً فى الإمبراطورية — إذ كان يتحتم على الملاك تقديم عدد معين من الرجال ؛ ولكن نظراً لأنهم كانوا يرسلون أقل الرجال صلاحية أو يستعيضون عن رجالهم بما يؤدونه من الأموال ، فإن هذا الإجراء كاد يبطل . وعندئذ صارت المادة التى يأتلف منها الجيش مكونة من أسرى المتبربرين والقبائل التى خضعت بشروط ، والشعوب التى أنزلت على الحدود أو بالقرب منها أو الجند المتبربرين المتحالفين (Foed erati) الأحرار وما إلى ذلك . وكلما كان الرجل متبربراً أكثر ، كان جندياً أفضل . وبلغت الأمور نقطة التحول عند نهاية القرن الرابع . إذ سمح ثيودوسيوس بأن يدخل البلاد عدد جارف من القوط ، فلم يعد من الممكن بعد ذلك أن ينالوا أى نصيب من العلم — بالطرائق الرومانية ، ولو كان ذلك عن طريق توزيعهم بين مختلف الوحدات .

أما القيادات العليا ، فقد تولى الجرمان نصفها على الأقل منـــذ عهد جوليان ، فضلا عن أن كثيراً من الباقين كانوا من أرومة بربرية . وكان القوم على الدوام يستخدمون اللغة الدارجة لملاءمتها لحقائق الموقف . فكانت الخزانة العسكرية تسمى بالخزانة البربرية (Fiscus baricus) . ومما له دلالته ومغزاه أن أما مصرية تذكر فى التماسها تسريح ولدها أنه «انطلق مع البرابرة» وهى تعنى بذلك أنه قد انخرط فى الكتائب الرومانية .

الإمبراطــور

إن مركز الإمبراطور فى ذلك الأوان كان — بمعنى ما — النتيجة المنطقية لمــا عمله أوغسطس . فإن ما يسمونه باسم «الحكم الثنائى Diarchy» أو اقتسام سلطة السيادة العليا بين الإمبراطور (Princeps) ومجلس الشيوخ ،

كان منذ البداية أقصوصة إلى حد كبير ، وصرف عنه النظر قبل عهد دقلديانوس ، ومنذ تلك اللحظة أصبح الإمبراطور هو المتحكم فى كل المجالات، وبهذا يمكن القول بأن حكومة الإمبراطورية كانت حتى سقوطها فى ١٤٥٣ حكومة استبـدادية مطلقة (أوتوقراطية) . ولـكنها مع ذلك كما قال مومسن[1] : « حكومة مطلقة يلطف من عنفوانها الحق المشروع فى الثورة ». وكان الإمبراطور يخشى على الدوام ظهور منافس له . وبناء على النظرية الأصلية التى رسمها أوغسطس ، كان مجلس الشيوخ والشعب ينتخبان الإمبراطور ويوليانه مهام منصبه . ثم تعدل هذا الوضع عملياً بمناداة السناتو والجيش بالإمبراطور ، وإن بقى المبدأ الأصلى قائماً فى بيزنطة على صورة احتفال يقام بحلبة السباق (Hippodrome) على أعين العالم كافة . وإن استطاع منافس أن ينصبه جزء من الجيش إمبراطوراً ، صار له « وضع دستورى فرضى ، إما أن يثبته الاحتفال وإما أن يلغيه » (فيما يقول بيورى) ، فإن أخفق فيما قام به من انقلاب (Coupd' etat) عُدّ ثائراً متمرداً . وإن نجح كان الإمبراطور الشرعى .

بيد أن هذا لم يكن الإجراء العادى الذى يتم عند وفاة أحد الأباطرة . إذ كان لـكل واحد من هؤلاء الحـكام شريك يصغره موجود عند موته ، وفى تلك الحالة لم يكن هناك أى انتخاب . وهذا المبدأ الذى عملت به الأسر المـالـكة والذى تجلى ظاهراً فى سياسة أوغسطس ، أصبح عرفاً معترفاً به :

---

(١) هو تيودور مومسن (Mommsen) (١٨١٧ — ١٩٠٣) : وهو عالم ألمانى بالعلوم الـكلاسيكية ، بحث بإيطاليا فى النقوش الرومانية . وتولى أستاذية التاريخ القديم بجامعة برلين منذ (١٨٥٧) وله عدة مؤلفات عظيمة . [المترجم]

إذا كان للإمبراطور « الحق فى نقل المنصب الإمبراطورى إلى الغير » . وعندئذ يكون شريكه أو شركاؤه خاضعين له ، وليس للإمبراطورية إلا حاكم أعلى واحد فقط . (وعلى هذا الاعتبار ، تكون المدة من دقلديانوس إلى يوليوس ليبوس (المتوفى ٤٨٠) حالة استثنائية)[١] . وهكذا بقيت ولاية العرش الانتخابية قائمة على الدوام من حيث المبدأ ، ولم يكن السناتو يلعب فى ذلك دوراً هاماً إلا فى حالات استثنائية فقط .

وثمة قيود أخرى كانت مفروضة على سلطة الإمبراطور . فعلى الرغم من أن الإمبراطور كان من الناحية النظرية فوق القانون ، إلا أنه كان عليه التزام غير مكتوب بأن يحافظ على الأنظمة والقوانين الرومانية . وينبغى أن يكون مسيحياً أرثوذكسيا : وقد تم انتزاع هذا الالتزام حينما تولى العرش الإمبراطور ناستوسيوس (٤٩١) ، وكان معروفاً بآرائه الإلحادية ، ثم جرى العرف فيما عقب ذلك من أيام بأن يحلف الإمبراطور يميناً عند تتويجه . بيد أن الكنيسة لم تكن تواصل على الدوام ادعاءها السيادة على الدولة ، كما حدث فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن ثم لم تكن بيزنطة فى حاجة إلى أمثال دانتى أو أكام لصياغة النظريات المحكمة فى هذا الصدد ، إذ لم تكن الكنيسة هنا إلا إدارة من إدارات الدولة : وكان الإمبراطور رأس الكنيسة ، وكان البطريرك وزيره فى الشئون الدينية ، والحاكم يلتقى هنا سلطته من ربه مباشرة ، ومع أنه لم يكن يعبد شأنه فى العهود الوثنية ، إلا أن قصره ومخدعه أسبغت عليهما صفة القداسة فى المراسم الرسمية . وربما أمكن تلمس المؤثر الفارسى فى هذا الأمر ؛ ومن المحقق أنه واضح فى تفاصيل مراسيمية

---

(١) انظر ص (١٤) .

أخرى . وكان التاج وهو شريط أبيض مطرز باللؤلؤ ، قد أصبح أهم شارات الملك شأنا : كما كانت الأحذية الأرجوانية أيضاً جزءاً من ثياب الإمبراطور. وكان الخصيان والنساء يسيطرون على بلاط أركاديوس وهونوريوس . وكان كبير الأمناء واحدا من أبرز أربعة من الموظفين ذوى الأهمية ، وهو (Peaedositus Sacri Cubiculi) من الخصيان . وكان الإمبراطور يحاط بسياج من آداب اللياقة والمراسم (كان التعبير عنه يتطلب حشداً ضخماً من رجال البلاط والخدم) كما كان محوطاً بسياج يبعده عن كل اتصال بالحياة الواقعية .

ومن المفارقات العجيبة أن المركزية الإدارية بلغت فى الحين نفسه أقصى ذروتها . فكان الإمبراطور يمسك بيده خيوط الحكم جميعاً : فهو المصدر الوحيد للقانون ، وفقهاؤه هم الذين يفسرونه ، كما أن مجلسه كان يتكون من رؤساء الإدارات الحكومية الكبرى فى الدولة ولم يعد فى الإمكان التفريق بين إيرادات الدولة ودخله الخاص : وكان الإمبراطور يستخدم هيئة ضخمة من العملاء الخصوصيين (Curiosi or Agentsimrebus) وهم مكلفون بالبحث فى كل نقطة من نقاط الإدارة وتقديم التقارير إليه رأساً . وإن مجموعة قوانين ثيودوسيوس التى نحن مدينون لها بالشىء الكثير مما لدينا من معلومات عن ذلك العصر ، لتحفل بالأوامر الإمبراطورية التى يقصد بها إلى معالجة الظلم وإساءة التصرف . ومع ذلك فإن مجرد تكرار تلك الأوامر نفسه يدل على الفشل . والحق أن الجهاز الحكومى بلغ من الفخامة والتعقيد مبلغاً عطل نشاط كل فرد . وكان من المحال تغيير حركة أصغر ترس فى تلك الدواليب المتداخلة بعضها فى بعض . هذا إلى أن الجهاز نفسه كانت تهدده قوى بالغة الضخامة ؛ إذ صار وقف زحف البرابرة على الدولة فى الاعتبار الأول . وكان رؤساء الجند

(Magistri militum) أصحاب النفوذ والسلطة الحقيقية فى أثناء ذلك القرن ، كما أن أى إمبراطور غير ميال للحرب لا مفر من أن يُجعل فى المرتبة الثانية بعد قائد الجيش.

الهيئة السناتورية

وقد انحدرت منزلة سناتو روما فأصبح مجلس بلدية ، يرأسه والى المدينة (Prefect) وهو المهيمن على الخزانة (Aerarium) ، التى لم تعد منذ زمن بعيد خزانة الدولة ، وأصبح الآن يشرف على سقايات الماء بالمدينة وتزويدها بالمؤن . وتجلى انحدار مكانة السناتو بعد انتقال البلاط الإمبراطورى إلى ميلانو أولا ثم إلى رافنا فى النهاية . فالهيئة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية لم تعد تحفل إلا بالجامعة وبسجلات العاصمة . ومع ذلك فإنه لم يبرح من الناحية النظرية محتفظاً بسلطاته الأولى ، وربما أظهر فى أيام الأزمات أنه عامل حاسم فى الأمور . فأما بيزنطة ، فنظراً لشدة نزعتها المركزية ، لم يعد ثمة فارق بين السناتو ومجلس الإمبراطور (Consistorium) . وظلت الوظائف القديمة : وظائف القنصل والبرايتور (Praetor) موجودة لم تمحها يد الزمن ، وتعتبر أن أعلى المناصب التى يتطلع إليها نبلاء العاصمة أو الأقاليم . وعلى الرغم من أن أعباء هذين المنصبين لم تعد تتجاوز ما يعرض على السكان من الألعاب أو الحفلات .

وكان مجلس الشيوخ (Senatus) أو السناتو نفسه يضم نسبة ضئيلة جداً من رجال طبقة أعضاء السناتو (Ordo Senatorius) ، وهى الطبقة الكبيرة من الملاك الأغنياء الذين كان لهم بكل أرجاء الإمبراطورية سلطة ونفوذ عظيمان

رغم أن هذا النفوذ لم يكن إلى حد كبير يستند إلى صفة رسمية لهم ، فما لم يكن الرجل من هؤلاء منتسباً إلى تلك الطبقة بحكم مولده ، فإنه كان ينتظم فيها بأمر خاص من الإمبراطور أو السناتو ، أو حتى أصبح عضواً بإحدى طبقات الأشراف الثلاث : وهى الوجهاء ، والنابهون ، والصفـــوة النبلاء (Spectbilis, Illustris, Clarissimus) . وكان لـكل منصب رسمى هام فى الإمبراطورية لقب مرتبط به أو يصح الحصول عليه عند التقاعد . وكانت هذه الألقاب تتغير باستمرار ، وتزداد عددا على الدوام فى أثناء القرنين الرابع والخامس . ولم تـكن الألقاب ألقاب تـكريم وشرف وحسب ، بل كانت تسوغ لحاملها أنواعاً مختلفة من الإعفاء من الضرائب ، ومن ثم كانت موضع التقدير والاهتمام . وبهذه الطريقة كانت طبقات بأ كلها من الموظفين تنتقل آلياً إلى عقد رجال السناتو . ومن العسير أن نصف بالتفصيل سلم الوظائف . على أنه كان يلى الطبقات الثلاث سالفة الذكر طبقة الأ كامل (Perfectissimi) وهى طبقة تتألف من صغار الموظفين ومن رؤساء هيئات معينة ، وكانت فى كثير من الحين معراجاً يرق به إلى طبقة السناتو . وفيما يلى هذه الطبقة ، انتظم السكان فى أقسام تقوم على الحرف والأعمال كما سنرى بعد .

وبعد حدوث الفوضى الجامحة التى رانت على القرن الثالث ، أصبح الاستقرار الشغل الشاغل والهدف المرموق ، وتم بلوغ ذلك بإقدام الحكومة بعزم قوى على توطيد النظام الإدارى وتبسيطه . وقد اشتد غلاء المواد الغذائية: فحاول دقلديانوس ضبطه بإصدار الأوامر بتنفيذ لائحة عامة لأعلى الأسعار ، وأدت المحاولة إلى تقديم كثير من الناس إلى المحاكمة ، ولـكنها لم تلق أى نجاح يذكر ، وخفضت قيمة العملة وأصبح الذهب والفضة نادرين ؛ وأدخل قسطنطين عملة الصولدى (Solidus) الذهبى ، التى لبثت عدة قرون العملة

المعيارية للدولة ، على الرغم من أن وحدة القيم الحقيقية هى وزن الرطل من الذهب . وكان أساس تقدير الضرائب إبان الإمبراطورية الأولى هو العرف السائد بمختلف النواحى : وهو نظام شديد التعقيد ، إذ إن معظم الإيرادات كان يحصل من الضرائب غير المباشرة ومن إنتاج المزارع الإمبراطورية الكبرى . على أن أفدح الأعباء هو تلك الضرائب الاستثنائية التى كانت تفرض على الناس نقداً وعيناً لتزويد الجيوش الرومانية والموظفين المسافرين بالميرة ووسائل النقل . وتزايدت هذه الفرائض المحتمة زيادة هائلة فى أثناء اضطرابات القرن الثالث يوم كاد كل إقليم يقيم لنفسه إمبراطوراً أو مدعياً للعرش ، وكادت التجارة المنتظمة تكون مستحيلة . ولكن دقلديانوس بدلا من أن يعود إلى النظام القديم قرر أن يواصل العمل بهذه الإجراءات ، وذلك فى ضريبة الميرة (Annona) ، كما قرر أن يستعيض عن نظام التقدير القديم بطريقة بالغة البساطة والسذاجة فى الحساب وهى طريقة الربط (Iugatio) ، وهى طريقة لا تحفل إلا قليلا بالخصائص[1] المحلية . إذ لا بد من إنقاذ الإمبراطورية على حساب شعبها . ولم يكن فى الإمكان إحراز هذا الإنقاذ إلا بتحويل الأمة كلها إلى آلة مقننة لإنتاج النقود وضروريات الحياة ، وذلك بقصد مواجهة النقص المتواصل فى الإيرادات والتجارة وعدد السكان بل حتى فى الابتكار والمبادأة .

وكان الفلاحون قاعدة الدولة التى عليها تقوم . ومن ثم فقد وجب قهرهم ووجبت مع ذلك حمايتهم . ولم يعد معظم الفلاحين الصغار (Coloni) من الملاك ؛ إذ إنهم أصبحوا بحكم العقود أو التشريعات — من ناحية ، ولكن

---

(١) انظر التذييل ١

بالأكثر بحكم الحاجة الاقتصادية من ناحية أخرى تفوق الأولى ، ـ مستأجرين في مزارع كبار الملاك . وقد انتقصت آنذاك حريتهم الشخصية ؛ فربطوا هم وأبناؤهم بالأرض ؛ وإن فكروا في الفرار والإباق [١] وضعوا في الأغلال . ولكن سادتهم (Patrohus) ينبغي ألا يسرفوا في تجريدهم من غلة الأرض دون ترك فائض لهم بما يفرضونه عليهم من إيجار فاحش ؛ ولا يجوز لهم أن ينقلوا الفلاح الصغير إلى مكان آخر إذا باع السيد الأرض التي يعمل عليها الفلاح . ثم صار الملاك آخر الأمر مسئولين عن جمع الضرائب التي يدفعها مستأجروهم وبذلك تم إخضاع صغار الفلاحين . فإنهم أصبحوا عند ذاك يؤلفون طبقة من أشباه الأحرار ، تقع في منتصف الطريق بين المواطنين الأحرار والأرقاء .

اضطراب شئون الزراعة

ومما يشهد بالحالة المؤسفة التي بلغها الكساد الزراعي ، ويدل على أهميته لدى الإمبراطورية ، الإجراءات المتنوعة التي لجأت إليها الحكومة لتمنع الناس من التخلي عن زراعة الأرض ، فتقرر فرض إيجار اسمي على حيازة الأرض البور الموروثة التي يتعهد حائزها بزراعتها زيتوناً وكرما (Emphyteusis) وهذا النوع من الحيازة هو المعروف بأرض الطعمة . وتحتم على مالكي المزارع الضخمة أن يضيفو إلى أملاكهم قدراً معلوماً من الأرض غير المزروعة ويؤدوا عنها ضريبة (Epibolé) . وهناك عدد من البرديات التي اكتشفت حديثاً بمصر ، توضح لنا وضوحاً لا لبس فيه المصاعب التي تنجم عن اتباع هذا النظام ،

---

(١) أبق العبد أبقا وإباقا : هرب (المترجم)

الذى استمر معمولا به إلى العصر البيزنطى ، فكل من ظهرت عليه أمارات اليسار جملت على كاهله قطع من هــذه الأرض البور ، وأفضت المطالبات الرسمية المتواصلة بتقديم الإبل والأسلحة والقوارب والأرقاء ووسائل المواصلات الأخرى ، إلى القضاء على كل تجارة ، وتحول الآبقون إلى قطاع طرق ، وتركوا زملاءهم يؤدون الضرائب الفادحة ، وأخذت رمال الصحراء تطبق فعلا على حقول القمح وعرائس الكروم التى تركها أصحابها يباباً بلقعاً .

وقام الفلاحون بثورات فى أصقاع مختلفة . ففى غالة وأسبانيا أشبّت عصائب الثائرين (Bagaudae) حروباً متقطعة فى أثناء القرنين الرابع والخامس ، وكانوا فى أحوال عديدة يقدمون العون للبرابرة . إذ إن سالفيان وهو قسيس فى جنوب غالة وصف هؤلاء الثائرين ، ويتحدث أيضاً عن رجال فروا إلى البرابرة للتخلص من جابى الضرائب . وثار الأرقاء فى بعض المناطق على أسيادهم ؛ ويروى بريسكوس [1] الذى عاش فى منتصف القرن الخامس والذى أرسله الإمبراطور فى سفارة خاصة إلى أتيلا بمعسكره شمالى الدانوب ، أنه وجد تاجراً يونانياً يعيش بين ظهرانى الهون ، وأن التاجر أدلى إليه بأسباب مفصلة لإيثاره العيش فى ظل البربرية على خفض الحضارة . واشتد فى إفريقية بغض الفلاحين للدولة الذى كانت تزيد فى أواره المشاعر المنصرية المغربية والبونية (الفينيقية) ، ولم يلبث حتى ثار شرره ناراً ولهيباً نتيجة للانشقاق الدوناتى [2]

---

(١) بريسكوس (Priscus) عن تفاصيل رحلته الشائقة إلى معسكر أتيلا ، انظر للمترجم المجلد الثانى من «معالم تاريخ الإنسانية» تأليف هـ. ج ولز ص٦٥٢ ط ٢ لجنة التأليف (المترجم)

(٢) الدوناتيون : طائفة مسيحية قوية نشأت بشمال إفريقية وخرجت على كنيسة القسطنطينية ثم انشقت على نفسها ولم تزل فى شقاق قرونا عدة حتى قضى عليها الفتح العربى فى القرن السابع (المترجم)

كما أن عصابات الجلادين[1] وغيرهم من المتعصبين المتهوسين وهم المسمون (Circumcelliones) أحدثت من الاضطرابات، ما مهد السبيل للغزاة الوندال. هذا وإن الازدهار الفجائى الذى أصابه الفن الكلتى ببريطانيا والأدب القبطى والسريانى بمصر وسورية ليشهد بأن الثقافات المكبوتة بمواطن أخرى كانت ترقب ضعف قبضة الحكم الرومانى لتواصل نشاطها . غير أن هذه الحركات كانت استثنائية . إذ إن التبلد كان الصفة الغالبة على الفلاح الذى لم يكن يتراءى له فيما يحيط به من آفاق أية بارقة تبشر بمآل أحسن ، والذى كان همه الوحيد منصرفاً إلى تجنب الهلاك جوعاً فى سنته التالية .

وأخضعت التجارة والصناعة أيضاً لسيطرة الحكومية . وقد عرفت مصر فى العهود الهلينستية هيئات مكونة من طوائف من أصحاب السفن والتجار تقوم فى خدمة الدولة . حتى إذا جاء عهد كلوديوس كانت تلك الممارسة قد امتدت إلى جماعات أو نقابات (Collegia) أخرى من البحارة (Navicu Larii) والتجار (Mercatores) فى الموانئ الإيطالية ؛ ومنذ عهد أورليان ، نالت نقابات جميع الحرف اعتراف الحكومة وحمايتها ورقابتها . على أن هذه الجماعات ، فيما عدا تجارة القوافل السورية لا تمت بأى شبه للشركات العصرية ذات رأس المال المشترك ، وكل ما كانت تفعله أن تقيم لنفسها « شخصية قانونية » سهلة وصريحة عند التعامل مع الدولة . أما الصناعة طوال تلك الفترة فكانت أساساً فى أيدى الأفراد .

ولعل نقابات البحارة أذيعها صيتا ، وذلك استنادا إلى كثير من النقوش،

(١) طائفة الجلادين : فئة دينية ظهرت فى إيطاليا تؤمن بتعرية أجسادها وتعذيبها بالسياط .
(المترجم)

وربما أمكن اتخاذها مثالا . وقد طلب دقلديانوس منهم أن يشتركوا فى نقل المواد الغذائية ، لا لسكان العاصمة فحسب ، بل للجيوش أيضاً . وكانت ممتلكات هذه النقابات تعد رهينة لسلامة وصول الشحنات . وكان عليهم أن يسلكوا أقصر الطرق ، وألا يتوقفوا بمكان مالم تقض عليهم بذلك ضرورة ماسة ، وكانت حرفتهم وراثية . وكذلك أيضاً انتظم الخبازون وتجار لحم الخنزير وموردو الخشب لأفران الحمامات وحرف وصناعات أخرى بالعواصم والمدن الصغيرة فى نقابات على نفس الأسس التى لم يكن يجوز لأحد الانسلاخ منها . وكانت ذخيرة الجيش ومعداته تنتجها مصانع للدولة يعمل بها عمال أرقاء كادحون مرهقون عملا .

وصارت الإدارة المحلية وجباية الضرائب أيضاً جزءاً لا يتجزأ من الجهاز العظيم . كما أن أعضاء مجالس المدن (Curiales) المسئولين عن الإدارة المحلية وجباية الضرائب ربما كانوا أكثر تعاسة من أية طبقة أخرى فى المجتمع . وقد كانت الإمبراطورية تتألف (فى ناحية واحدة فقط) من مجموعة ضخمة من البلديات تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال . ولكن ذلك الاستقلال قد انتقص على عهد تراچان ، إذ تقرر إنفاذ مندوبين إمبراطوريين (Correctores Curatores) لتنظيم مالية بعض المدن ببلاد اليونان وآسيا الصغرى . وبنمو هذا الإجراء اضمحلت وطنية المدن والغيرة على استقلالها ، وأصبحت الأعمال الخيرية نادرة واستثنائية ؛ كما أن قيام المسيحية الذى أفضى إلى هدم معابد آلهة المدن (Polis) ، التى ظلت قروناً عديدة قبلة وبؤرة لولاء المجتمعات وعبادتها ، عاون على القضاء على القوى التى حافظت على حياة دولة المدينة القديمة (City-state) ، ولكن الحاجة إلى الحكم المحلى ظلت قائمة ؛ ومن ثم

بات من الضرورى إجبار أعضاء مجالس المدن (Curiales) ، وهم الموسرون من أهل المدن وأصحاب الأملاك الذين يصح انتخابهم أعضاء بمجلس سناتو المدينة أو لتولى الوظائف التنفيذية ، على مواصلة القيام بالتكاليف (Munera) المنوطة بهم كالقضاء فى المسائل الطفيفة والانتدابات لبعض المهام وفحص المبانى وخدمة البريد والنقل ، وجمع الضرائب إلى غير ذلك ، وهى أعباء لايتقاضون عنها أية مرتبات.وقد أقيم تمييز رسمى بين التكليف (Munera) والتشريف (Honores) ، إذ كان المصطلح الثانى يطلق على الوظائف التى هى فى حد ذاتها مكافأة مشتهاة لشرف قدرها . ومما له دلالته على حالة الشعور العام أن ذلك الفرق لم يعد قائماً .

وكان من أشد الأعمال وطأة على الناس تقدير الضرائب الإمبراطورية أو جبايتها . وأعضاء مجالس المدن (أو مندوبو البلديات) هم المسئولون شخصياً عن هذه الأعمال ، وذلك بينما طلبات الخزانة الإمبراطورية فى ازدياد مستمر . وكانت توضع فى طريقهم كل ألوان العقبات . فإن كبار الملاك كانوا يرفضون الإدلاء بأية معلومات ، بل كانوا يسلحون أتباعهم لكى يطاردوا جابى الضرائب . وقد تتعرض طبقة أعضاء مجالس المدن بأسرها للدمار ، نتيجة لرداءة المحصول أو غارة جيش مغير ، وذلك لأنه لابد لهم من تسديد النقص من جيوبهم الخاصة . ومما كان يزيد فى مرارة شعور الكراهية بين المدينة والريف ، ما انساق إليه أعضاء مجالس المدن مرغمين على اللجوء إلى الرشوة والابتزاز .

اضمحلال الطبقات الوسطى

ولو تأملنا على مر العصور الأوامر الصادرة من عهد قسطنطين إلى ماجوريان وهى التى تتضمنها مجموعة قوانين جستنيان ، لأمكننا أن نتعقب من خلال مائة وخمسين عاماً صدر فيها ١٩٢ مرسوماً ، التدمير البطىء الذى أنزل بالطبقات الوسطى . فإن محاولاتهم اليائسة للوصول إلى طبقة رجال السناتو والاستمتاع بما لتلك الطبقة من مكانة وحصانة ، تكبح كبحاً تتزايد شدته على كر الأعوام — إذ تقفل دونهم أبواب الجيش والكنيسة والخدمة المدنية . وتصبح العضوية فى طبقة أعضاء مجالس المدن (مندوبى البلديات) وراثية ؛ ولكنها من ناحية أخرى تمجد بالألقاب الرنانة : فهى تسمى آونة «بالسناتور الأصغر» وآونة « بالمكانة الرفيعة » . وقد تقرر منع الأعضاء من السفر إلى الخارج أو السكنى فى الريف ، « إذ ينبغى لهم أن يظلوا بين أحضان مسقط رأسهم ، طبقاً لمقتضيات الروابط المقدسة المقدرة عليهم ، ولأنهم يحرسون السر الأبدى الذى لا يستطيعون التخلى عنه إلا بالتخلى عن التقوى . » وهذا مثال طيب على لغة القانون وبيانه وعلى إنكاره التام لكل حرية شخصية . وتشهد مراسيم أخرى بمزيد من القيود ، وتوقف كل محاولة للهرب . ومن ثم صار الأعضاء (المندوبون) بمصر والشرق يفرون إلى صوامع النساك بالصحراء ؛ ولكنهم كانوا فى البلاد الأخرى يلتمسون الانضمام إلى نقابات أخرى أشد تواضعاً ، أو يضمون أنفسهم تحت رعاية مالك أرض قوى ، وكان كثير من صغار الملاك يفارقون مزارعهم خفية تحت ضغط الديون ، وينضمون إلى صفوف الفلاحين الصغار (Coloni) .

حياة الطبقات العليا

وعلى النقيض التام لهذه الأحوال المتعسة تنهض الحياة المترفة التى تحياها الطبقات العليا . وقد زادت دخولهم فى كثير من الحالات ، على حين تناقصت إيرادات الخزانة الإمبراطورية . كانوا يعيشون آمنين فى معاقلهم الريفية ، ومن ثم كانوا يتحدون جابى الضرائب ويؤلفون هيئة ضخمة من «الماسونية» المتكتلة المكونة من المحافظين (الحكام) والموظفين ، ترتبط فيما بينها بأواصر الدم والطبقة بغية القضاء على أهداف العدالة ومحو أثر كل مرسوم إصلاحى . ويتبدّى فيهم خليط عجيب يجمع بين خصائص العصور القديمة والوسطى . ويحيط بالأسر الكبيرة فى تلك الفترة جو إقطاعى واضح الشذى والمعالم — ومثال ذلك أسرة أنيكى (Anicii) فى روما ، وبيت آبيون بمصر وأرستقراطية جنوب فرنسا المتشابكة بروابط الصهر والقربى ، بما لها من الأملاك الضخمة المترامية التى أشبهت الممالك الصغيرة ، وقيامها بشئون القضاء قيام السادة المتصرفين ومالها من فصائل من الراكبة الأتباع . وتتجلى فى الفسيفساء المنقولة من أرضية الفيلات الأفريقية صور ومبان تشبه القلاع أو البيوت الريفية المحصنة ؛ وفيها يقدم موالى الأرض خدماتهم أو يدفعون دفعات عينية؛ ويمارس القوم ضرباً من «الاقتصاد» يقوم على الاكتفاء الذاتى ، ويواجهون جميع مطالب الحياة بالصناعة المحلية[1] . وفى تلك الفسيفساء يظهر اللورد ورفاقه ممتطين جيادهم فى أثناء خروجهم للصيد أو الاحتفاء برجال العلم . ويعطينا أوسونيوس وغيره صورة مماثلة للأحوال القائمة بجنوب فرنسا . ومنها يتبين

---

(١) يمكن هنا مقارنة هذا الوصف بالفيلا المبنية فى تشدورث بجبال كوتس ولدس (القرن الرابع) بما فيها من مكان للصباغة يثير الاهتمام . ويدل حجمها على أنه من المحتمل أن المقصود منها كان خدمة حاجات الحى .

أن أيام حياة المدن أخذت تنقضى . فإن المدن الرجمية القديمة ذات الشكل الكلاسيكى غير المسورة ، بما احتضنت من حمامات ومعابد وسقائف مسمدة وأرباض (ضواحى) حافلة بالفيلات والقبور لم تلبث حتى صارت مكتظة وأحاطت بها الأسوار والأبراج التى بادر القوم إلى تشييدها معاجلين بما انتزعوه من شواهد القبور ، ومن الكتل الحجرية التى أخذوها من بعض المبانى العامة . وباضمحلال التجارة انتقل الترف إلى الريف . فزخرت السبل بقطاع الطرق ، وتوقفت الطرق التجارية العظيمة الممتدة بين الولايات عن اجتلاب الخزف أو المصنوعات المدنية إلى دار الفلاح أو الصانع المحترف (Artisan) . وأخذت حياة القرية تنمو حول الدار الريفية (Manor) للشريف : وإن كثيراً من المساكن الفرنسية القائمة اليوم اتخذت اسمها من صاحب الأرض الرومانى الأصل الذى كان يعيش فى مزرعته فى ذلك الأوان والذى لم يكن يحضر إلى المدينة فيما يرجح إلا لقضاء عيد الفصح أو من أجل قضية هامة أمام دور القضاء . على أن القرن التالى هو الذى شهد التطور الكامل لهذه العملية . وعند نهاية القرن الرابع كانت التجارة المنقولة بحراً لا تزال ضخمة بالغة الأهمية . ولم تبرح أجزاء كثيرة من الإمبراطورية تهنأ بالرغد واليسار ؛ إذ إن الحياة الحضرية المشرقة بمدن مثل أنطاكية والإسكندرية كانت لا تزال مستمرة ، ومع أن الزراعة انحطت منذ زمن بعيد بكل من بلاد اليونان وإيطاليا ، إلا أن قدرة الأرض على الإنتاج لم يصبها هبوط عام . إذ إن سورية ومصر وشمال إفريقية وأسبانيا وجنوب غالة كانت لا تزال تنتج محاصيل موفورة زاخرة . وينبغى ألا يغرب عن بالنا أن الزراعة فى الإمبراطورية الرومانية كانت على الدوام أهم الحرف . وفضلا عن هذا ، فإن حياة الإقطاع التى وصفناها إن هى إلا إحدى مظاهرها . أما الجانب الاجتماعى ،

فإننا لو ألقينا إليه أول نظرة ، فربما تصورنا أننا رجعنا إلى الوراء إلى عهد جوفينال أو منرتيال أو بلينى الأصغر . وإن الشعر الساخر الذى ألفه أميان وجيروم ليدور حول البذخ الذى يبديه نبلاء الرومان فى ثيابهم وولائمهم ، وحول حاشية البلاط والطفيليين والأتباع والعبيد . وفى الشرق يجأر يوحنا فم الذهب (Chrysostom) بصوت كالرعد منددا بالحرير والجوهر والأثاث والعربات المموهة بالذهب والفضة ، ويصف المواكب المألوفة المنظمة فى تشكيلة عسكرية والمكونة من الأرقاء والخصيان والعربات التى تجرها البغال (وهى التى يلحظ وجودها أميان بروما أيضاً) ، عندما يغادر النبيل من هؤلاء مدينة القسطنطينية أو أنطاكية إلى مقره الريفى ، وقد حمل معه الرياش الكثير والميرة الوافرة لقضاء بضعة أيام فقط . وإن ذلك المنظر ليذكرنا بمنظر عربات المليك[1] الأعظم (Le Grand Monarque) ، حين تنطلق من فرساى على طريق مارلى ، غير أن الجو العام لا يفترق فى جوهره عما كان فى عصر تاكيتوس أو هوراس .

والسبب الرئيسى فى هذه الروح المحافظة التى تتجلى فى آداب سلوك الناس هو الأهمية الاجتماعية التى نيطت بشكل من أشكال التربية كان يجنح إلى الإبقاء على المعايير القديمة . فقد كانت دراسة النحو (الأجرومية) وعلم البيان ضرورية لإعداد الفرد ، لا للخدمة المدنية فقط — (ولا يخفى أن معظم أفراد الطبقات العليا كانوا فى حاضرهم أو ماضيهم موظفين فى الإمبراطورية) — بل وأيضاً من أجل الاختلاط الاجتماعى المهذب . فكان ينبغى للرجل المثقف أن يكون على معرفة جيدة بالنماذج الكلاسيكية شعراً أو نثراً ، وأن يقدّر تمام

---

(١) المليك الأعظم : يعنى لويس الرابع عشر .   (المترجم)

التقدير اكتمالها الفنى ؛ وكثيراً ما كانت الأبحاث الأثرية العتيقة أو مسائل الأجروميةمدار الحديث على المائدة أو موضوع الرسائل التى يتسع وقت الفراغ لتحريرها ، غير أن هذا الإصرار على الشكل دون المادة ، هو الظاهرة الدالة على عيبين عظيمين فى فكر ذلك الزمان وأدبه . فالعيب الأول هو أن الفكر والأدب كانا غير واقعيين وعتيقين وأكاديميين . ولم تكن للكلمة المكتوبة إلا أضعف العلائق بلغة الحديث العام ، التى اشتد انحدارها وتشذ نحو : « اللاتينية المتأخرة » التى ذاعت فى العهود الوسطى ، فإن رسائل سياخوس إن هى إلا تدريبات واعية على التعبير الرشيق وليست أقوالا أصيلة ، أما أوسونيوس[١] الذى يستطيع أن يصور منظراً من المناظر : كارتياد الماشية للماء ، أو صائد سمك يحمل قصبة ، أو مغرب الشمس على صفحة أحد الأنهر بكل ما أوتيه «بروست[٢] Proust » من دقة ، دون أن يستخدم إلا نعوتاً قليلة ، فإنه يقدم معرضاً كاملا من الصور الريفية مثل أساتذة بوردو وثراة الريف والعمات العذارى الجديرات بريشة كامبراى ، على أنه طالما أورد من الأساطير والأوصاف الكلاسيكية ما لاعلاقة له بالموضوع . فإن منظر كرمة على ضفاف الجارون ، لم يكن محيص من أن يستثير منه إشارة إلى رودوپى[٣] وبنجايوس ؛ ولا مندوحة للدار الريفية أن تذكر الكاتب بجميع مبانى مشاهير المعماريين من ديدا لوس فصاعداً فى حقب التاريخ .

والعيب الثانى والأشد خطورة وجدية هو السلطان الجارف الذى كان لعلم

---

(١) أوسونيوس (٣١٠ — ح ٣٩٠) : شاعر لاتينى ولد ببورديجالا (بوردو) وعين لشهرته الأدبية مؤدبا لجراتيان بن فالنتيان . (المترجم)

(٢) بروست (١٨٧١ — ١٩٢٢) كاتب فرنسى كتب دراسة نصية لحياته وزمانه . (المترجم)

(٣) رودوپى : ولاية يونانية بغرب تراقيا بها مناظر جبلية . (المترجم)

البيان عليهم ، فإن جميع الاعتبارات الأخرى : كالإيقاع والحصيلة اللغوية والتوكيد ، تخضع كلها لهدف واحد هو إحراز الغلبة فى الجدل . وهو المبدأ الخبيث الذى تمثله «عصائب الرءوس المقدسة المنثورة» فى رواية «السحاب» لأرستوفانيس[١] ، وتتجلى آثاره فى الكتاب المسيحيين والوثنيين على السواء فيما يقوم فى الحليات الزاهية والمبالغة الرتيبة المنتظمة ، والحيف المتعمد مع الخصوم ، وفقدان النزاهة بينهم جميعاً . وهى حال تفشو بدرجة متساوية فى هجاء چيروم وبيانيات ليبانيوس[٢] وفواصله المسجوعة ، كما تتبدى فى أسوأ صورها فى المجموعة الضخمة من الجدليين من رجال الكنيسة (الإكليروس) وحتى أوغسطين نفسه لا يسلم منها تماماً ، وإن توقد فى كتابه «الاعترافات» قبس إخلاص محموم ؛ ولم تكن نغمات الأرغن الفاخرة التى وضعها كلوديانوس[٣] إلا موسيقى العقل وحده لا القلب . وكانت أسرار العقيدة المسيحية ورمزيتها بحاجة إلى وسائل جديدة للتعبير ، هذا وإن التراتيل الفخمة لهيلارى وإمبروز[٤] والغنائيات السحرية النابعة من براعة برودنتيوس[٥] ، أعظم شعراء المسيحية الرومانية ، لتصهر الأخيلة العبرانية ذات السمة الاستصراخية العجيبة الواردة فى ترجمة التوراة[٦] السبعينية (Septuagint) مع المسائل الرنانة غير المفهومة

---

(١) أرستوفانيس (ح ٤٤٨ — ٣٨٠ ق.م.) مؤلف درامى فكاهى بأثينا . (المترجم)

(٢) ليبانيوس (٣١٤ — ٣٩٢ م) سفسطائى يونانى وثنى ، علم بالقسطنطينية ، من تلاميذه فم الذهب . (المترجم)

(٣) كلوديانوس (٤٠٨ م) آخر الشعراء اللاتين العظماء . ولد بالإسكندرية . (المترجم)

(٤) إمبروز من آباء الكنيسة اللاتين كتب كثيراً من التراتيل (٣٤٠ — ٣٩٧) . (المترجم)

(٥) برودنتيوس (٣٤٨ — ٤٠٥ م) من شعراء الكنيسة اللاتينية ، ولد بأسبانيا وعاصر أوغسطين . (المترجم)

(٦) ترجمة التوراة السبعينية : أقدم نسخة إغريقية من العهد القديم ويقال إن واضعيها ٧٠ عالماً . (المترجم)

فى الاعتقاديات (Dogma) المسيحية ، وإن عقلية القرون الوسطى لتتجلى بالفعل فى كتاب الجهاد الأكبر(Psychomachia) وفى كتاب المقدمة[1] (Cathemerinon Liber) ، وهى عقلية يشهد ماهو محفور على أبواب مدينة شارتر ، بما ركب عليه عالمها المنتظم وما يتصل به من خطة الخلاص ومن مقابلة بين الفضائل والرذائل ومن دورات متعاقبة للمواسم والأعياد ، تلك التى جعلت موئلا ركيناً يقى الناس مما تجلبه الفوضى التى تملأ الدنيا من أخطار شيطانية شريرة .

ومن نافلة القول أن نلخص فى تجريدات آلية ميول ذلك العصر التقليدى النزعة فى كل من الفن والأدب والدين والفلسفة والعلوم . وغنى عن البيان أن التفاعلات بين المسيحية والوثنية ، أى التقاء روافد الثقافة الرومانية والإغريقية والشرقية ، لن يتيسر نقل صورة لها — إن كان ذلك ممكناً على الإطلاق — إلا بالإكثار من الأمثلة التفصيلية . على أنه يمكن استخلاص صورة لبعض خصائص الطبقات المتعلمة من كتاب القرنين الرابع والخامس : نسوق منها التعالم الرشيق والتحررية المبهمة والإنسانية الواهنة والوحدة الوجودية غير المحددة ، وفوق كل ذلك طائفة ضخمة من الخرافات الشائعة زحفت إليهم من الطبقات الدنيا عندما ضعف المذهب العقلى (Rotionalism) . وإذا نحن شئنا أن نبحث عن التعبير الصحيح عن تلك الفترة ، وجب علينا ألا نطلبه عند الغلاة المتطرفين . فإن سياخوس العالم المتمكن من العديد الذى لا حصر له من النحل وفلافيانوس الذى يعتبر « آخر الوثنيين » ، والذى كان المدبر للانتعاش النهائى الذى أصابته الديانة القديمة فى روما عشية انتصار

---

(١) انظر ف . ج . ا . رابى فى « A Hist ory of Christ-Lat. Poetry » (أوكسفورد ١٩٢٧) الفصل الثانى عن برودنتيوس .

المسيحية[1] على يد ثيودوسيوس ، إنما ينتميان إلى عصر سابق . أما أوغسطين وتماثل الصوفى وأمبروز فهم المبشرون الآذنون بالمدرسانيين[2] (Schoolmen) والنساك والأحبار فى العصور الوسطى . بيد أن الجمهرة العظمى من ذوى الرأى المتعلمين لا هى بالمسيحية ولا هى بالوثنية . ومما له دلالته أن عقيدة كثير من كبار الكتاب فى ذلك الزمن ، نذكر منهم أوسونيوس وكلوديانوس ونُنّس على سبيل المثال لا الحصر ، لا تزال موضع أخذ ورد بين الباحثين .

الخلافات الكنسية

على أن عهد ثيودسيوس يعتبر مرحلة جديدة فى علاقة الكنيسة بالدولة. إذ ساد بينهما فى الداخل والخارج هدنة قصيرة من الهدوء النسبى . ففى القرن الرابع انقسمت الكنيسة على نفسها نتيجة الهرطقة والانشقاق ، وزاد من حدتهما اشتداد المشاعر العنصرية أو النزعات الوطنية المحلية . إذ إن الكراسى الرسولية فى أنطاكية والقسطنطينية والإسكندرية كانت تتنازع الصدارة على الشرق . وكان الدوناتيون بإفريقية والبرسكليانيون بأسبانيا وجماعات النساك التى تطوف بمصر والشرق الأدنى بما يبثونه من آراء عن الطعام والزواج والملكية والملبس ، — يتلقون جميعاً تأييد السكان فى مناهضة السلطة . والمعروف أن هذه السلطة نفسها التى تتمثل فى شخص الأباطرة كانت منذ وفاة قسطنطين إما أريوسية أو شبه أريوسية ، وكثيراً ما كان كبار رجال الكنيسة فى كثير من الكراسى الدينية يعزلون وقتاً لسياسة

(١) تمكن ثيودوسيوس الأول فى معركة فريجيدس قرب أكويليا من إنزال هزيمة ساحقة بجيش الغرب بقيادة أربوجاست الفرنجى وإمبراطوره الضعيف يوجينيوس .

(٢) المدرسانيون : هم فلاسفة أو لاهوتية العصور الوسطى . (المترجم)

الإمبراطور ، فإن تم ذلك على خلاف المشاعر الشعبية ، اقتسم ولاء المدن الكبرى أسقفان أو مطرانان أو أكثر لكل منهما أتباعه المستعدون للهياج . فقد حدث فى روما أن حزب داماسوس البابوى — فى إرهاص منه بفتن القرون الوسطى ـ اقتحم عنوة كنيسة أورسينوس البابا المنتصب[1] ، وقتل نيفا ومائة من أتباعه فى يوم واحد (٢٦ أكتوبر ٣٦٦) .

ومنذ أن عقد مجمع نيقية (٣٢٥) تكررت محاولات وضع صيغة الأركان الاعتقادية (Dogma) ، وأنتجت سلسلة من العقائد (Creeds) تمثل سنن المذاهب بمختلف ظلالها وتنتهى غالباً بصب اللعنات على الخصوم . ولم يكن بد لما كان يحدث دائماً من عودة الأحزاب المختلفة إلى التجمع ، من إحداث الشغب ، وخاصة متى زادت أوارَه المصالح السياسية أو الشخصية أو الوطنية . على أن الأمور اتخذت فى ذلك الحين مظهرا أكثر استقراراً . إذ كان الإمبراطور كاثوليكياً . ومن ثم اتخذت إجراءات صارمة إزاء مختلف الزندقات (الهرطقات) . على أن المراسيم المناهضة للوثنية اتخذت مظهرا أقوى . إذ حدث فى داخل الكنيسة أن عادت روما والكراسى الرسولية الشرقية إلى الوفاق مرة أخرى — واصطلحت القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية فى اتفاق على الهدف . وصار مذهب أريوس قضية خاسرة داخل الإمبراطورية ، وإن تكاثر أتباعه سريعاً بين البرابرة على حدودها . إذ لم يكن « مذهب وحدة طبيعة المسيح Monophysitism » قد ظهر بعد . وأخذ نظام الكنيسة يزداد استقراراً ، كما أخذت علاقتها بالدولة تزداد توثقا . وتأسست ـ أو دعّمت ـ

---

(١) البابا المنتصب أو المعارض Anti-Pope : هو حبر أعظم ينصب لمناهضة بابا شرعى الانتخاب . (المترجم)

امتيازات منوعة مثل التحرر من أعمـال عضوية مجالس المدن[1] (Curia) أو الإعفاء من الخدمة العسكرية ، فضلا عن حقوق الوصية والملكية . وأصبح للأساقفة اختصاصات مدنية ، على حين باشرت السلطة العلمانية الهيمنة على الانتخابات الكنسية بدرجة من النجاح متفاوتة رغبة فى صيانة النظام العام وحفظ وحدة الإمبراطورية .

وفى القرن الرابع تمركزت الخصومات المذهبيـة حول علاقة الابن بالآب ؛ وتمركزت فى القرن الخامس حول طبيعة الابن . ولم تكن المسألتان منفصلتين إحداهما عن الأخرى . فأما مذهب أريوس ، فإنه عندما أخضع الابن للآب ، اعتبر عند أنصار اثناسيوس منكراً للألوهية التامة للابن . على حين أن مذهب سابيليوس ، وهو النقيض لمذهب آريوس ، كان ينكر ما للمسيح من صفة بشرية تامة — على غير أساس واف من التمييز فيما يرى أنصار آريوس . وقد عقد قسطنطين مجمع نيقية ، وهو المجمع الذى انتصرت فيه الإرادة الإمبراطورية والذى أدين فيه آريوس . وحاولت مجامع مختلفة انعقدت فى أثناء القرن الرابع أن تقرر مذاهب إما شبه آريوسية ، وإما غير ملتزمة بشىء حيال طبيعة المسيح . ثم عقد ثيودوسيوس آخر الأمر مجمع القسطنطينية (٣٨١) ، فأكد من جديد عقيدة نيقية ، ومنذ ذلك الحين اشتد قمع الآريوسية .

وفى القرن التالى أصبحت المنازعات تدور حول علاقة الناحية البشرية بالناحية الإلهية فى طبيعة الابن وشخصيته . بيد أن أهميتها بالنسبة للمؤرخ

---

(١) أو مندوبى البلديات .

العام إنما تقوم إلى حد كبير فى النتائج السياسية المترتبة عليها . ولعل أهم تلك المنازعات التنافس الذى احتدم بين القسطنطينية والإسكندرية ، ولا شك فى أن تطورات هذا التنافس توضح كثيراً نواحى الخصومات الدينية فى ذلك العصر . وقد كانت الكنيسة منذ أول أيامها قد نظمت نفسها على غرار أقسام الدولة . فأصبحت المدن كراسى أساقفة ، كانوا يجتمعون فى مجامع دينية (Synod) تعقد بعاصمة الولاية . وأصبح أساقفة هذه العواصم مطارنة، يهيمنون على انتخابات من يليهم من أساقفة[1] . وأخيرا يجىء دور المطران الأعلى أو البطريرك الذى يظهر فى الكراسى الرسولية الكبرى بروما وأنطاكية والإسكندرية وإفيسوس ، كما أنه بدوره يشرف على انتخابات المطارنة. ثم دخل فى الأمر عامل جديد أثار القلق حين أسس قسطنطين مدينته، التى أخذت أهميتها تزداد منذ ٣٣٠ م . وكان أسقف بيزنطة من الناحية النظرية تابعاً لمطران هرقلية . وسرعان ما أصبح هذا الوضع شيئاً شاذاً بالنظر إلى الوضع السياسى ، وفى ٣٨١ أعلن مجمع القسطنطينية أنه لا يسبق أسقف بيزنطة فى المكانة إلا أسقف روما « لأن المدينة التى هو أسقف لها هى روما الجديدة » . وكان المبدأ واضحاً ، وكذلك كان الخطر الذى ترتب عليه بالنسبة للإسكندرية .

العداء بين القسطنطينية والإسكندرية

ومنذ ٣٩٥ يوم مات ثيودوسيوس إلى ٤٥٠ حين تولى مرقيان الحكم بعد ثيودوسيوس الثانى ، كان نجم مصر فى صعود ، وذلك لأن من استولوا على العرش من الأباطرة كانوا ضعافاً ، على حين تولى كرسى أسقفية

(١) على أن هذه التطورات كانت لا تزال غير مألوفة فى الغرب إبان القرن الرابع .

الإسكندرية مجموعة متعاقبة تكاد تتخذ هيئة الأسرة الكاملة من الأحبار المشهورين بالقوة والإقدام المجردين من كل خلق أو ضمير ، وكانوا يستخدمون طرقاً تقليدية تدخل فيها الرشوة وصب اللعنات واستغلال العداوة القومية وإرهاب المجامع باستخدام النوتية المسلحين بميناء الإسكندرية ورهبان طيبة . وتولى توجيه السياسة المصرية سلسلة من الشخصيات القوية ورجال اللاهوت الأكفاء ، واتخذ النزاع أربع مراحل : انتهت المرحلتان الأوليان منهما بنصر حاسم للإسكندرية ، وحققت الثالثة مجرد النجاح ، بينما انتهت الرابعة بالسقوط والانهيار .

المرحلة الأولى : ٣٩٨ . وفيها فشل ثيوفيلوس أسقف الإسكندرية فى الحيلولة دون انتخاب فم الذهب بطريركا لكرسى القسطنطينية بسبب تأييد يوترويبوس الخصى تشريفاتى أركاديوس لفم الذهب .

وفى ٤٠٣ استغل ثيوفيلوس غضب الإمبراطورة يودوكسيا على فم الذهب الذى أساء إليها ، وأفاد من حنق بعض الفئات المناهضة له فى آسيا ، وتمكن بذلك من خلعه فى مجمع البلوطة (Synod of The oak) . وانتهى الأمر بإرسال فم الذهب إلى المنفى .

المرحلة الثانية : ٤٣١ . مجمع إفيسوس وفيها تمكن كيرلس أسقف الإسكندرية بفضل استخدام نفس الوسائل من خلع نسطوريوس بطريرك القسطنطينية وحرمانه من الكنيسة ، بتهمة أنه قال بالانقسام الشديد فى شخصية المسيح .

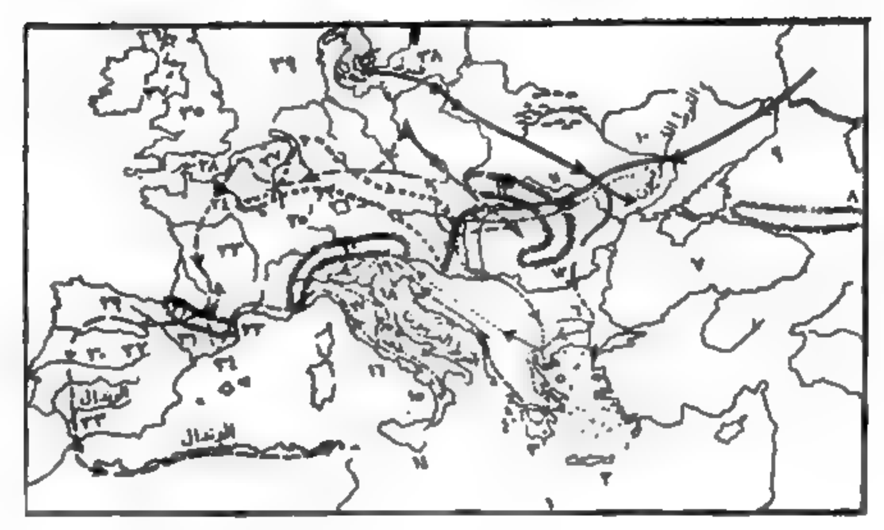
المرحلة الثالثة : ٤٤٩ . مجمع إفيسوس الثانى المعروف بمجمع اللصوص (Lotrocinium) . وفيه نجح ديوسقوروس أسقف الإسكندرية فى خلع فلافيانوس أسقف القسطنطينية وإعادة يوتيخوس وهو راهب لم يقتصر

ساعة مهاجمة نسطوريوس على الأخذ بمذهب وحدة شخصية المسيح بل وبوحدة طبيعة المسيح أيضاً . ولم يتحقق ذلك النجاح فحسب برشوة الحاجب (التشريفاتي) الخصي كريسافيوس وغيره من رجال البلاط ، بل وأيضاً بقوة مسلحة استخدمت في المجمع . وفي هــذه الآونة أصبحت روما معادية للإسكندرية بعد أن ساندتها في ٤٣١ بينما كانت أنطاكية تتردد في موقفها.

المرحلة الرابعة: ٤٥٠.مات ثيودوسيوس الثاني . وطردت أخته بولخيريا الحاجب كريسافيوس ودعت إلى انتخاب مرقيان إمبراطوراً ، وإلى عقد مجمع خلقدونيــة (٤٥١) ، وفيه تقرر إدانة يوتيخوس (أوتيخا) ونفي ديوسقوروس ، وبذا زالت نهائياً سيادة الإسكندرية .

على أن نتائج مجمع خلقدونية الأخرى كانت أهم من سقوط الإسكندرية. ذلك أن المجمع أقر مبدأ طبيعتي المسيح الذي صاغه ليو (لاوون) بابا روما . فلقي ذلك مقاومة من حزب الإسكندرية ، وانتهى الأمر بأن انتشرت بكل من مصر وسورية هرطقة « وحدة طبيعة المسيح Monophysite » ، وهي مذهب لا يعترف له إلا بطبيعة واحدة فقط . ومنذ تلك اللحظة صار لزاماً على الأباطرة بالقسطنطينية الاختيار بين الاتفاق مع روما بعقيدتها السليمة وبين السلام مع إقليمين من أهم أقاليم الإمبراطورية ، وإذ أصدر زينون في ٤٨٢ رسالته في الاتحـــاد (Henoticon)[1] اختار بذلك سبيل السلم مع الإقليمين وسار على نهجه الامبراطور أناستاسيوس . أما جستنيان فاختار

(١) كانت رسالة الاتحاد أو خطة الاتحاد (Henoticon) محاولة لإيقاف كل خصومة دينية بعد ذلك ، بإعلان كفاية العقيدة وفقاً لما تقرر في نيقية والقسطنطينية ، وتعبيراً في الحين نفسه عن الرغبة في استرضاء الكنيسة المصرية ومصالحتها بالتخلي فعلا عن قرار خلقدونية وجعله مسألة متروكة للبحث . وكان العامل الرئيسي في تحطيمها معارضة روما لها .



(٣) خريطة غارات البرابرة

١ — البحر المتوسط
٢ — كريت
٣ — اسبرطة
٤ — كورنثة
٥ — ترموبيلاى
٦ — أدرنة
٧ — البحر الأسود
٨ — جبال القوقاز
٩ — الآلان
١٠ — نهر الدنيبر
١١ — نهر الدنيستر
١٢ — نهر الدانوب
١٣ — جبال الكربات
١٤ — صقلية
١٥ — كوستانزا
١٦ — روما
١٧ — فلورنسا
١٨ — راقا
١٩ — أكويليا
٢٠ — جبال الألب
٢١ — جبال البرانس
٢٢ — نربونة
٢٣ — الفرنجة
٢٤ — باريس
٢٥ — البرجنديون
٢٦ — الآلامان
٢٧ — تريف
٢٨ — نهر السين
٢٩ — السويفيون
٣٠ — الآلان
٣١ — نهر الإبرو
٣٢ — سرقطة
٣٣ — أشبيلية
٣٤ — جزر البليار
٣٥ — الانجل ساكسون
٣٦ — الاسكتلنديون
٣٧ — البريطونيون
٣٨ — بحر البلطيق
٣٩ — بحر الشمال

والخطوط تمثل هجرات القبائل وخطوط سيرها .

═══ مسار القوط

. — . — . — مسار ألاريك وأتولف

. . . . مسار القوط الشرقيين

— — مسار الوندال

═══ مسار الهون

= = = مسار أتيلا فى ٤٥١

ملحوظة : المسارات المبينة تقريبية

الأخذ بالرأيين على التعاقب . على أن تلك المشكلة لم تنته إلا بعد سقوط مصر وسورية فى أيدى المسلمين .

نشأة الديرية

وكانت مصر مركز هذه المنازعات : وكانت كذلك الموطن الأصلى للرهبانية . وكانت الإمبراطورية – ولم تفتأ – تحوى بكل أجزائها منذ البداية أعداداً ضخمة من الرجال والنساء (المعترفين والعذارى Confessors & Virgins) تمارس الزهد ، وتواظب على أداء الصلوات فى الكنائس . على أن أنطونيوس (ح ٢٧٠) أصبح زعيماً لحركة خطيرة منذ أن هجر العالم والكنيسة المنظمة أيضاً ، ولجأ إلى الصحراء ناسكا . واحتذى مثاله أعداد كبيرة من الناس ؛ ولم تلبث منطقة البحيرات الملحة بوادى النطرون وصحراء سقيط ، أن حوت ما يزيد على خمسة آلاف من النزلاء ، فكان بهاتين الجهتين « أشد الزهاد تمسكا بالفضائل » (Duchesne) . واستهوى نجلادم ألباب الشرق واستولى على خياله مثلما استولت أعمال قديسى الأعمدة على الأفئدة فيما عقب ذلك من الزمان . واستحدث باخوميوس نظاماً أكثر ثمرة فى أثناء القرن الرابع . فتأسست مجموعات من الأديرة لكل منها قاعدة عامة ، وتخضع لسلطة واحدة . وكانت تزورها جماعات من الحجاج يفدون إليها من روما وغالة وأسبانيا ، ما لبثوا أن نقلوا طرائقها إلى الغرب . ثم ما عتمت منطقة سيناء وفلسطين وسورية حتى امتلأت بالرهبان الذين يعيشون فرادى أو فى مجموعات . وفى آسيا الصغرى ، وضع باسيليوس طائفة من القواعد تفوقت فى اعتدالها ونظامها على قواعد باخوميوس ، وظلت منذ ذلك الحين إلى اليوم معمولا بها فى إدارة جميع أديرة العالم الإغريقى والصقلبى (السلافونى) . وكان الرهبان

يتنازعون أحياناً مع سلطات الكنيسة والدولة جيماً ؛ وكانوا يتسلحون بالمراوات ويهاجمون الجامع الدينية ويشتتونها ، أو يهدمون معابد الوثنيين أو المراطقة أو محاريبهم المقدسة . فالقومية النامية التى تؤذن ببزوغ فجرها الآداب القبطية والسريانية وجدت أبطالها فى أشخاص مثل شنوده (Shenuti)، الذى راح من أبراج ديره الأبيض القائم على رأس تل ، يقود مئات من الأتباع محرضاً إياهم على مهاجمة من بمصر من الكفرة والآثمين والقضاة الظالمين وأصحاب الأملاك الجائرين .

على أن النفوذ السياسى للرهبان كان أمراً محلياً ومتقطعا . وأهم منه السلطة العلمانية المتزايدة التى أوتيتها الكنيسة بوصفها هيئة ضخمة ذات جيش من الأتباع ، تملك الأراضى والثروات والمؤسسات الخيرية ويرأسها أساقفة أصبحوا أهم الشخصيات فى مدن الأقاليم . فإن أكاكيوس فى آمد (Amida) وسينيسيوس فى برقة (Cyrene) وسيدونيوس فى أوفرنيه (Auvergne) وغيرهم كثير ، هم الزعماء الطبيعيون للمجتمع ؛ فكانوا يرأسون السفارات إلى البرابرة وكانوا يحمون قطيعهم (المسيحيين) من المجاعة والعدوان ، بل لقد كانوا يتولون تنظيم المقاومة المسلحة للعدو .

الفصل الثاني

عالم البرابرة

الغزوات

تكفى نظرة واحدة إلى الخريطة لإظهارنا على الموقف الخطر الذى تتعرض له الإمبراطورية فى ٣٩٥ . فعلى نهر الراين حل محل القبائل المتناثرة التى عرفها قيصر وتاكيتوس ، خط قوى من أقوام أخذت تنتقل ببطء نحو الغرب من منطقة البلطيق ، وكلما اقتربت من التخوم الرومانية ازدادت تماسكا وقيمة حربية . وكانت المجموعتان الفرنجيتان (Frankish) أقوى هذه الأقوام ؛ على أن الألامان الذين عرفوا طريقهم إلى الزاوية المنعكسة بين الراين والدانوب لم يكونوا أقل خطراً منهم،وذلك بسبب المركز الاستراتيجى الذى صار لهم . فأما الزاوية المنعكسة الأخرى التى كونها التواء الدانوب قرب بودابست وبلغراد صوب الجنوب ثم الشرق ، فإنها امتلأت إلى حد كبير عندما أنشئت ولاية داكيا (: ترنسلفانيا ورومانيا) ؛ على أن هذه الولاية الأخيرة تركت للبرابرة بعد ٢٥٧ : فإن الوندال الأسدنجيين (Asding) كانوا يملكون عند ذاك الشمال الغربى من هذا الإقليم ، بينما أخذ القوط الغربيون يضغطون جنوباً منذ ٣٦٤ على الدانوب ، وقد سد الاثنان الطريق على الجبيد (Gepids) . وكان القوط الشرقيون لا يزالون يتجولون فى السهول العظيمة بجنوب الروسيا ، ولم يكونوا فيما عدا بضع ثلل قليلة جوالة منهم،قد احتكوا مباشرة بالإمبراطورية الرومانية ولا اتصلوا بها . وإلى أقصى الشرق نزل

على نهرى الدون والفولجا الآلان وهم شعب إيرانى ، ومن وراء ذلك الخط الأول كانت تنزل قبائل أخرى قلقة مستعدة للقيام بدورها — منها السكسون على نهر الويزر والأنجل فى إقليمى شلزويج وهولشتين ؛ فضلا عن السويف على نهر الإلب واللومبارد فى سيلزيا والهيرول (Heruls) بالقرم والصقالبة وراء مستنقعات البريبت .

وكان كل قطاع من تلك الحدود الطويلة يتعرض فى وقت من الأوقات لمغير يتهدده بالاختراق أو يخترقه فعلا ؛ على أن الرومان كانت لهم خطوط مواصلات داخلية ، وكانت الجيوش تبادر إلى النقطة المعرضة للخطر . فأما الآن فلم يعد لذلك التدبير جدوى . إذ برزت قوة جديدة من أرض السهوب الآسيوية ، كان ضغطها هو المحرك لهجمات البرابرة ، التى أصبحت مستمرة بكل مكان ، والتى لم ينقض عليها أكثر من جيل واحد حتى حطمت الإمبراطورية فى شقها الغربى . وكانت تلك القوة الضاغطة هى الهون . فالمعروف أن الهون بلغوا نهر الفولجا بعد ٣٥٥ بقليل ، فقهروا الآلان وردوا القوط الشرقيين إلى ما وراء الدينستر (ح . ٣٧) ؛ ودفع الضغط بالقوط الغربيين حتى عبروا الدانوب ، وكانت معركة أدرنة الكبرى فاتحة مصائب روما . وتوقف زحف القوط الغربيين بضع سنوات بفضل ثيودوسيوس ، فلما وافاه أجله أخذوا يعيثون فى بلاد اليونان تدميراً وانتهاباً (٣٩٦) ويستقرون فى إبيروس (٣٩٩) فهددوا بذلك شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة اليونان ؛ ثم أوقفهم استيليكو حيناً من الدهر ، ما عتموا بعده أن استولوا فى النهاية على روما (٤١٠) ، ثم تجاوزوها إلى أكيتانيا (٤١٦) حيث أقاموا فى النهاية مملكتهم التولوزية (Tolosan). وفى تلك الأثناء انحاز إلى الآلامان فى أثناء فرارهم غرباً ، الوندال

الأسدنجيون (٤٠١) ، الذين أكتظ بهم وادى التيس ، وأخذوا يتحولون إلى ديار ذوى قرباهم بسيليزيا ويزيدونهم عدداً . ويعززهم السويف ، وتتقدم الشعوب الأربعة فتخترق حدود الراين عنوة (٤٠٦) وتتجول فى أرجاء غالة ثم تعبر جبال البرانس (٤٠٩) وتعيث بأسبانيا فساداً طيلة عشرين عاماً ، قبل أن يستولى الوندال نهائياً على مملكتهم بأفريقية ، وبعد مضى خمسين سنة استقر القوط الغربيون بإيطاليا ، واقتسم الفرنجة والبرجنديون بقية غالة . وبلت الأنجل والسكسون منهمكين فى فتحهم لبريطانيا ، فإذا انتهى القرن الخامس كانت كل الأقاليم الغربية بأيدى البرابرة .

التاريخ المبكر لألمانيا

والتاريخ المبكر لألمانيا غامض يغشاه الضباب شأن الغابات والمستنقعات التى كانت تغطى الشطر الأعظم من البلاد . فعلى شواطىء البلطيق بين نهرى الإلب والأودر كانت تقوم المستقرات الجرمانية البدائية ، وهى مجموعات من الخصاص تبنى حيثما قطعت الغابات أو فى المناطق المرتفعة وتسكنها قبائل تحترف الصيد أو الرعى . فإذا تزايد السكان أو ندر الصيد تحركوا غرباً ، دافعين أمامهم الشعوب الكلتية ، وهم السكان الأول لجنوب ألمانيا وغربها . فبلغوا الراين حوالى ٢٠٠ ق . م . ، وفى مدى قرن واحد لم تعد بافاريا كلتية السكان . على أن فتوح قيصر فى غالة وطدت حدود الراين ؛ فلما واجه الألمان الغربيون ذلك الحاجز لم يستطيعوا إحراز أدنى تقدم بعد ذلك . فتحتم عليهم أن يتخذوا وسائل بالغة الأثر فى إنتاج المؤن . وكانت نتيجة ذلك أن تطورت الزراعة وتبلورت النظم . وحمل إليهم تجار الرومان أنواعاً جديدة من السلع

وضروباً أجنبية من آداب السلوك . ويصف تاكيتوس الذى كتب بعد ذلك بمائة وخمسين عاماً نوعاً من الثقافة يفوق فى التقدم ما شهده قيصر .

وفى تلك الأثناء كانت قبائل جرمانية أخرى تعبر البلطيق من شبه الجزيرة الإسكندناڤية فيما بين القرنين السادس والثالث ق . م وتستقر على شاطئه بين الأودر والڤستولا . واتخذ هؤلاء الألمان الشرقيون لأنفسهم طريقاً آخر مخالفاً ، ففى أثناء القرون التالية التمسوا لهم طريقاً صوب الجنوب عبر أوربا ، إما صاعدين الڤستولا إلى جبال الكربات وإما مخترقين بولندة ومستنقعات البريبت إلى السهول العظيمة التى تمتد شمال البحر الأسود . وقد ظلوا يتحركون على الدوام سعياً وراء المراعى الجديدة ، فاحتفظوا بذلك بطرائق عيشهم البدائية على نقيض الجرمان الغربيين . على أن الصورة المركبة التى يصح استنتاجها مما سطره قيصر وتاكيتوس وغيرهما من الرحالة أو العلماء (Savants) ، الذين دونوا عجائب الشعب الجرمانى ، ينبغى ألا تطبق عليهم الآن إلا مع شىء من التعديل ، وذلك بمراعاة مختلف مراحل التطور التى ألمت بمختلف القبائل والتى لا نعرف عنها سوى النزر اليسير ، ومن العسير دائماً على المراقبين المتحضرين أن يتجنبوا نسبة الصلابة الشديدة والتمسك بالمألوف إلى الأجناس التى هى أشد بساطة ، ذات الأفكار المبهمة والعادات المتغيرة يضاف إلى ذلك ما كان من اختلاف جوهرى فى الثقافة بين الجرمان وسكان دول المدن فى البحر المتوسط . فقد أُخضع الفرد فى تلك المدن ، للدولة منذ عدة قرون خلت : فإن ابتعد عنها ، أصبح منبوذاً ، وصار غير مكتمل الإنسانية . فأما الجرمانى فى عزلته أو فى مستقر أسرته الصغير ، فكان قبل كل شىء فرداً يأبى كل تدخل فى شئونه ، ولا يعترف بأى التزام خلا التزام

الولاء لكلمته وعهده حين يعطيهما لفرد آخر . ومن هنا غلبت عليه نزعة دائمة للابتعاد عن كل مركز أو بؤرة يجتمع إليها الناس ؛ ولو تتبعناه فى كل مراحل تطوره الدستورى الأبكر ، وجدنا أن جميع روابطه مع العائلة والعشيرة والدولة تتحطم . إذ لم يكن بد من حدوث سوء التفاهم بين الطرفين . وأضحى غدر الجرمان موضع التندر عند الرومان ، نظراً لخرقهم المعاهدات وشنهم الحروب الغادرة . كما أن الولاء الشخصى الذى لعله يكون التفسير الصحيح لخلق استيليكو المتذبذب ، ربما كان السبب فى شعور الكراهية الذى يحسه خصومه إزاء ما لا يستطيعون فهمه .

وقد كانت كل قبيلة عند استقرارها فترة من الزمن تحتل منطقة تحددها العوائق الطبيعية كالمستنقعات أو الغابات أو الأنهار . وكانت القبائل تنقسم إلى بطون (فروع Gaus) ، تتفاوت فى ضخامتها ، وتقدم للجيش بين ألف محارب وألف وخمسمائة . وكل بطن من هذه البطون تنقسم إلى ما يعرف بالمئين ، وهى جماعات خاصة ، تتروح الواحدة منها بين المائة والمائة والعشرين من الأحرار ، وذلك لأغراض الحرب أو القضاء ، وترتبط بالعشيرة ؛ وهى مجموعة مؤلفة من عائلات تتراوح عدتها بين العشرة والعشرين . واستمر نظام المئين على الرغم من كل التغييرات التى حدثت ، وصار أساساً . (وما تلحظه هنا وفى مواطن أخرى من «سيمترية» ودقة لا ينبغى تطبيقه حرفياً) .

وكانت السيادة فى يد الجمعية الشعبية (Thing or Mallus) ، وهى الاجتماع الذى يضم جميع المحاربين الأحرار ، وهى التى تنتخب الحكام وتبت فى معاهدات الحرب والسلام ، وتختار أعضاء جدداً فى المجتمع ، وكان يدعو إلى اجتماع تلك الجمعية ملك يرأسها أو رئيس البطن من القبيلة أو زعيمها

(فى القبائل غير الملكية) ، وفيها يقدم القرابين كاهن أعلى وينزل العقوبات بكل من ينتهك هدنة الجمعية . وكان رئيس البطن (Gau) يقود كتيبة فى الحرب ، ويوفر العدالة بمحكمته بمساعدة رؤساء المئات (المئينيات) ، ويعطى كل عائلة نصيبها من الأرض . وكان الملك فى الأيام الأولى سلطات بالغة التحديد . وكان لبعض القبائل ملكان ، ولبعضها الآخر ملك واحد . وكان بعضها ينتخب قائدا يقتصر عمله على قيادة حملة عسكرية واحدة ، أو يختار رئيس بطن (Gau) ليرأس الجمعية الشعبية : وثم قبائل أخلت فيها الملكية مكانها لحكم الكهان . ومن حق القبيلة أن تعزل الملك إذا أساء أو ظلم ؛ ومع أن الملوك كانوا يختارون عادة من عائلة بعينها ، فإن كل فرد منها كان يصح انتخابه . وكان كل شخص قوى الشخصية يستطيع أن يجعل للملكية قوة فعالة ، ولاسيما وقت الحرب؛ومما زاد فى سلطة الملك اتصال القوم بالاستبداد الرومانى ، ولا سيما حينما تستقر القبيلة فعلا داخل الإمبراطورية .

أما الجيش الذى هو نفسه جماعة الأحرار شأنه فى تاريخ بلاد الإغريق وروما الباكر ، فإنه كان ينتظم الآلاف والمئات والعشائر . وكان لتشكيله فى المعركة يتخذ عادة صورة الإسفين (Cuneus) . والقاعدة الجارية أن الخيالة كانت أهم أسلحته ، على أن الفرنجة كان يغلب عليهم القتال راجلين . وكانت المعادن نادرة . ومما كانوا يستخدمونه فى المعارك قلانس الجلد ، والتروس المستديرة المصنوعة من الخشب أو الأغصان المضفورة والمغطاة بالجلد الناشف ، فضلا عن المزاريق (وهى السلاح الرئيسى) . والمراوات والقسى وفئوس القتال . وكانت القلاع المستديرة المقامة بقنن التلال أو صفوف العربات هى تحصيناتهم . وتطورت صناعة السفن بين القبائل البحرية ، بادئة بالأشجار

الضخمة المحفورة ، التى تتسع لعـــدد قد يبلغ الثلاثين رجلا ، فتنتقل إلى القلايين[١] المصنوعة من الألواح على النحو المعروف عند الفيكنج ، والتى تتسع لأكثر من مائة ، إلى سفن القرصان السكسون ذات الشراع المصنوع من الجلد ، والتى أصبحت مصدر الفزع لموانى بحر المانش .

وكانت أدنى طبقة فى المجتمع تتكون من شعوب مغلوبة تقوم على فلاحة الأرض ، وذلك فضلا عن وجود قلة من خدم المنازل معظمهم من أسرى الحرب : وكان عدد أفراد هذه الشعوب الخاضعة يزداد كلما نمت الزراعة (وذلك لأن الجرمان الأحرار كانوا يأنفون ممارسة الفلاحة) . حتى جاء أوان أصبح فيه الهدف الأول من الغارات الحصول على هؤلاء العمال الزراعيين . وكانت الطبقة الثانية وهى طبقة الأحرار ، هى الجمهرة الغفيرة من السكان . أما النبلاء فهم عائلات الملوك ورؤساء البطون . وكان لكل ملك أو رئيس الحق فى أن يتخذ له أتباعا (رفاقا Comitatus) وهم جماعة من الأتباع الأحرار الذين كانوا يتناولون الطعام على مائدته زمن السلم ، ويشكلون حرسه الخاص فى أثناء المعارك .

على أن البيان السابق ينطبق على جرمان الغرب المستقرين أكثر مما ينطبق على تلك القبائل البدائية التى نحن على وشك أن نترسم تجولاتها[٢] .

---

(١) القليون معرب لفظة (galley) وهى لفظة مستخدمة من قديم الزمان فى حوض البحر المتوسط وتدل على طراز قديم من السفن التى تدفع بالمجاديف والأشرعة . (المترجم)

(٢) إن العادات العقلية التى أنتجت هذه الثقافة ، كانت مع ذلك شائعة الانتشار بين جميع الشعوب التيوتونية ؛ كما أن النظم التى لم توجد إلا فى صورة بدائية فى أثناء فترة الهجرة ، مالبثت أن ازدادت تطورا عندما توقفت الهجرات . على أن الصراع بين هذه النظم الجرمانية وبين الحضارة الرومانية سوف يؤلف أساس الفصل التالى .

وكانت الماشية أهم مصدر للطعام فى أثناء الزحف والمسير ، وفى ذلك إلى حد كبير تفسير للسرعة المدهشة التى كانت تنتقل بها الجموع المهاجرة ، فإن دوابهم لم تـكن فى حاجة إلى وسائل نقل ؛ بينما الواقع أن عرباتهم كانت تجرها الثيران فعلا . ومن العسير تقدير أعداد الشعوب الغازية ؛ ومن المحتمل أن الشعوب الـكبرى منها كانت تضم أعدادا تتراوح بين الثمانين ألفا والمائة والعشرين ألفا ، على حين أن عدة الصغرى منها كانت تتراوح بين ٢٥٫٠٠٠ إلى ٥٠٫٠٠٠ ويمكن اعتبار مقدار الخمس من كل شعب رجالا مقاتلين ، إذ إن المعارك الـكبرى التى كانت تنشب بين الجيوش الإمبراطورية وأعدائهم الجرمان كان يشترك فيها قرابة عشرين ألفاً فى كل من الجانبين . ومن ثم يجوز القول بأن الإمبراطورية الرومانية تعرضت لهجمات أعداد جارفة من الأعداء .

وليس من اليسير علينا أن نشهد صورة كاملة لهؤلاء القوم « على مألوف عادتهم من العيش » . غير أن الرومان اهتموا بالناحية البشرية (الأنثروبولوجية) لهؤلاء الجرمان ، هؤلاء الأطفال الطوال ذوى الشعور الشقراء الذين يزينون أنفسهم بدمالج السواعد والسلاسل المصنوعة من الذهب ، وهم يرقدون أسابيع ناعسين أمام النار ، عاكفين على الشراب أياماً كاملة بلياليها ، أو تجيش نفوسهم بالحزن أو الغضب المفاجىء ، فينفجرون بالبكاء أو يصرعون أحد الأرقاء ؛ أو يتصايحون مع جيرانهم ، أو يغيرون على الماشية ويحيون قادتهم فى المجالس بدق تروسهم بمزاريقهم أو يتبعونهم فى معمان المعركة حتى الموت . على حين أنهم يتراءون لنا متماثلين ؛ فيبدون للعين الباصرة برابرة يكتسون الجلود ، ويبدون لعين العقل جماهير من الجياع تدفعهم قوى اقتصادية إلى الأمام . ومن العسير التفرقة بين أمة فيهم من أمة . فاللومبارد

يحملون فأس القتال (Barda) الطويلة ، ويتخذ الفرنجة الفرانسيسكا (Francisca) القاتلة ، ويشهر السكسون سيفا قصيرا (Sah). ويكتب سيدونيوس فى أخريات القرن الخامس عن البرجنديين بأن الواحد منهم يبلغ طوله سبع أقدام ، وأنهم يدهنون شعورهم بالزبد الزنخ ، ويشتهرون بالشراهة فى الطعام ويتحدثون بأصوات جهيرة. والفرنجى أشهب العينين حليق اللحية أصفر الشعر ويرتدى سترة (Tunic)[١] ملتصقة بجسمه . ومع ذلك فما أقل ما تبرز الشخصيات بين هؤلاء الأقوام . فإن ماربود (Marbod) وإرماناريك (Ermanaric) ، وهما سيدان أعليان لإمبراطوريات متناثرة لم يزيدا على كونهما مجرد اسمين . وأزمنة الهجرات هى عصر البطولة عند الشعوب الجرمانية ، كما أن الشخصيات والأحداث التى كانت تمس أخيلتهم ، لا ترى إلا معتمة فى شذرات من القصص الشعبى ، وحلقات الملاحم التى تعرضت إلى التشويه والالتواء فى الأزمنة المتأخرة .

فإن أسطورة الأيلة[٢] التى قادت الهون خلال مستنقعات القرم حتى فاجأوا الآلان إنما تنطوى على شىء من الرعب السائد فى ذلك الزمان . ولا يزال شخص ثيودوريك الجبار الماكر وحصاره الطويل لمدينة رافنا الحافلة بالأسرار ينعكس فى قصص ديتريتش فون برن[٣] ورابنشلاخت . كما أننا نلمح فى ملحمة نيبلونجنليد (Nibelungenlied) بصيصاً ضئيلا عن قصر جندريك البرجندى القائم على الراين وما اشتهر به من الفخامة والروعة .

---

(١) السترة أو التونقة : جلباب رومانى يشبه القميص . (المترجم)

(٢) الأيلة أنثى الأيل وهو الوعل وجمعها أيايل (المترجم) .

(٣) أعنى ثيودوريك الفيرونى (Dietrich von Bern & Rabenschlacht) .

القوط الغربيون

كان القوط الشرقيون والقوط الغربيون فى الأصل شعباً واحداً . ويظهر من ثنايا أساطيرهم ودلالات أسماء الأماكن أنهم عبروا البلطيق قبل القرن الرابع قبل الميلاد من اسكنديناوه إلى مصب الفستولا . وحوالى ١٥٠ للميلاد شرعت بعض القبائل القوطية تتحرك صوب الجنوب الشرقى ، حركة دفعت بهم إلى أعلى الفستولا خلال مستنقعات البريبت ، حتى بلغوا فى النهاية حوض الدنيبر الأدنى والساحل الشمالى للبحر الأسود . ومن ثم تفرعوا فرعين : اعتبر معناهما — بالنظر إلى ما نالا ذلك من أحداث — القوط «الشرقيون والغربيون». وسرعان ما انتشرت قبائل القوط الشرقيين بأرجاء جنوب روسية ، على حين انحرف القوط الغربيون نحو الغرب ، ودأبوا على إيقاع الفساد بولاية داكيا ، بل حتى بمقدونية وبلاد الإغريق . وأخيرا لم تعد روما تستطيع الاحتفاظ بداكيا ؛ فانسحب تجارها وموظفوها إلى ما وراء الدانوب ، الذى صار من جديد ، بعد تحصينه ، حداً للدولة ، شأنه قبل عصر تراجان .

وفى ذلك الحين أخذت تنكشف تغيرات كثيرة : فقد دخلت إليهم المسيحية الآريوسية ، فأحدثت بينهم الشقاق الداخلى . وقدر لصورتها الإلحادية أن تلعب بينهم وعند سائر الشعوب الجرمانية دوراً عظيما فى شحذ الشحناء والعداوة بين الرومان والبرابرة . وكانت نتائج غزوة الهون أهم من ذلك كثيراً . وقد غلب الفزع على القوط الغربيين فحصلوا من الإمبراطور على إذن بعبور الدانوب إلى مويسيا الدنيا (بلغاريا) ، ثم تراءى بهم الأمر إلى الاستقرار داخل الإمبراطورية كوحدة قومية . وهذه هى البادرة الأولى للطريقة التى تمزقت على غرارها أوصال الأقاليم الغربية بعد زمن يسير . غير أن الاستقرار كان مؤقتاً ؛

ولم يتم فعلا إلا بعد حرب استمرت أربع سنوات ، بسبب ما تعرض له هؤلاء اللاجئون من معاملة سيئة من قبل الموظفين الرومان ، كما لم تبلغ المسألة ذروتها إلا بكارثة (٣٧٨)[1] العظيمة . ولمعركة أدرنه أهمية مزدوجة . فإنها من أعظم ما منيت به روما من الهزائم على يد الجرمان ، ويمكن وضعها فى مصف نكبة ڤاروس (Varus) التى حدثت عام ٩ للميلاد ، وموت الإمبراطور دكيوس فى (٢٥١) . كما أنها البداية الحقة لحروب القرون الوسطى ؛ فمنذ تلك اللحظة أصبحت الجند الراكبة الثقيلة التى دهمت بسنابكها الفرق الإمبراطورية ، هى العامل الفاصل فى المعارك ، حتى تحدى حملة الحراب السويسريون والرماة الإنجليز فى القرن الرابع[2] عشر كل ما كان لها من تفوق .

ولعل أعظم الأحداث شأناً انتخاب القوط الغربيين ألاريك ملكا لهم ، عُقيب وفاة ثيودوسيوس . وقد عمد ألاريك شأن كثير من المقتدرين من الجرمان ، إلى التحلل إلى حد ما من أواصر الدم ، وانخرط فى الجيوش المحالفة للرومان . ولعله كان يأمل فى الارتقاء إلى مركز هام بالإمبراطورية ، كما فعل أربوجاست واستيليكو وغيرهما. ذلك بأن ما لجأ إليه من المداورات العجيبة إبان السنوات الخمس عشرة التالية يصح تفسيره على أن مصالحه لم تتفق فى مجموعها مع مصالح قومه من القوط الغربيين (التى اقتصرت على حيازة الأرض وتلقى المعونة المالية) ، بل كانت تتجه نحو إحراز وضع خاص داخل الإمبراطورية . فبدأ بإعمال التدمير والفساد بكل بلاد اليونان ، بما فى ذلك شبه جزيرة

---

(١) انظر ص ٧٥ بعنوان النزوات .

(٢) على أن أهمية الخيالة تجلت فى أوائل القرن الرابع ، وبخاصة فى معركة مورسا (Mursa) فى (٣٥١) .

البيلوبونيز (المورة) . وكانت جند الرومان بقيادة استيليكو الذى لم يقم بأية مقاومة فعالة لعدة أسباب[١] . وكانت الخطوة التالية هى تعيين ألاريك « سيدا للجند » فى إلِّيريا (Illyricum) ، وهو أمر أرضاه مدة أربع سنوات . على أن ما كان يأمله من القسطنطينية من ترقيات أخرى ، ربما قضت عليه الأزمة التى ثارت ضد الجرمان ، وهى الأزمة التى كانت تتعزز بها تلك المدينة[٢] ، ومن ثم حول وجهته نحو الغرب . ولـكن حظه فى الغرب لم يكن أسعد منه فى الشرق . فلو خامرته بعض الآمال فى الوصول إلى تسوية مع استيليكو ، فإنها تبددت يوم وقعت فى الغرب أزمة مناهضة للجرمان كالتى وقعت فى الشرق أعقبها مقتل استيليكو وملاحقة البرابرة بالقتل والقمع بكل أرجاء إيطاليا . وعندئذ لم يعد يبدو محتملا تحقيق شىء من مطمعى ألاريك وهما : — توفير مستقر من الأرض لقومه والحصول على منصب سام لنفسه فى الشق الغربى من الإمبراطورية . ومن ثم زحف بجيوشه على وسط إيطاليا . وكانت الحـكومة الرومانية تتخذ أحياناً طريق العناد وتنزع أخرى إلى الإذعان . وارتاب ألاريك فى الأمر ، وخشى الخيانة فثارت ثائرته ، وما نشب أن فرض الحصار على روما ، التى سبق أن أدت له إتاوة مقابل رحيله عنها — ولم تلبث المدينة الإمبراطورية أن سـقطت فى ٢٤ أغسطس (٤١٠) . فنهبت دور النبلاء وأحرقت ، ولـكن الأنفس التى أزهقت كانت قليلة . ونجت الـكنائس من كل ضرر (فإن ألاريك كان مسيحياً أريوسى المذهب) ولم يحق بالآثار القديمة ضرر بليغ . ولـكن أخبار الـكارثة تردد صداها بكل أرجاء العالم المتحضر ؛

---

(١) انظر ص ٧٦ وانظر ما ورد بعنوان : « القرن الخامس فى الغرب » ف ٣ .

(٢) انظر ف ٣ بعنوان تصادم الحضارات .

القسم الثاني

انتصار ريتيان

الفصل الرابع

القسطنطينية

كان ميدان الأوجستيوم هو سرة القسطنطينية ، وهو ميدان رحيب مرصوف بالرخام ، لا بد أنه فى شكله العام كان يماثل ميدان القديس ماركو (Piazza San Marco) بالبندقية . وكانت تعلو فى جانبه الشمالى قبة كنيسة القديسة صوفيا ؛ وكانت تقوم فى شرقيه أطواق[1] دار السناتو المصمتة ، أما البناء المنخفض الذى يقع إلى الجنوب منه واشتهر بأبوابه الثقيلة المصنوعة من الحديد ، فيعتبر المدخل المؤدى إلى القصر الإمبراطورى ، ويقع وراءه الجدار السامق للمقصورة الإمبراطورية ، وهو بناء كانت طوابقه العليا التى تطل على ميدان السباق فى الجهة المقابلة ، تكوّن المقصورة الملكية للإمبراطور ، وتتصل مباشرة بمبانى القصر بأروقة وسلم حلزونى . وفى الميدان يقع ـ بالإضافة إلى الصوّة[2] ، وهى بناء معقود تبدأ منه جميع الطرق الإمبراطورية ، ـ عمود باسق من البرونز يحمل فوق هامته تمثالا شامخاً لجستنيان فى هيئة فارس فى عدته الحربية ، وقد أمسك بيده الكرة الأرضية ، وامتدت يده نحو الشرق ، كأنما يأمر البرابرة بآسيا بألا يتخطوا حدودهم . وكان « الميزى Mese » أو الشارع الرئيسى الذى تحف جانبيه السقائف والتماثيل والقصور الفاخرة

---

(١) ورد فى معجم الوسيط ما نصه الطاق ما عطف وجعل كالقوس من الأبنية وجمعها أطواق وطيقان . (المترجم)

(٢) الصوة كما ورد فى المعجم الوسيط : ما نصب من الحجارة ليستدل به على الطريق والجمع صوى وأصواء . (المترجم)

يمتد من ذلك الميدان نحو الغرب على امتداد شبه الجزيرة إلى الباب الذهبي ، وهو مدخل محصن وفق الطراز الرومانى يقوم فى الأسوار الضخمة التى تجتاز البرزخ .

ولو نظرنا من ناحية البوسفور إلى ذلك النطاق الضخم الممتد حول القصر ، الذى يضم المنحدرات بين ميدان الأوجستيوم والشاطىء ، لوجد مرصعاً بمجموعات من القباب المذهبة والجواسق البيضاء والحمامات والشرفات والبيع (الكنائس) التى قامت بين الأشجار والنافورات وربط بينها مجاميع من درج الرخام .

وكان المدخل الرئيسى المؤدى إلى القصر يفضى من الأوجستيوم إلى قاعة عظيمة ذات قبة ، مزينة بالفسيفساءات التى توضح حروب جستنيان وانتصاراته فى المعارك . ومن خلف تلك القاعة تقع غرفة العرش ، وكانت بعض السلالم تؤدى من هذه الغرفة إلى قصر دافنى ، بشرفاته وشرفاته الطلقة الهواء التى تطل عبر المياه الزرقاء على قمم جبال بيثينيا التى تكسوها الثلوج .

على أن قصورا إمبراطورية أخرى ، قامت لا فى هذا الحى وحده بل فى خارج المدينة وعلى الشاطىء الأسيوى .

وكانت مجموعة المبانى المؤلفة من القصر والميدان والكاتدرائية وميدان السباق تعتبر نقطة البداية ، لما حفلت به حياة العاصمة من مواكب وأزمات . فإذا كان عيد رأس السنة ، وكان الإمبراطور تنازل فقبل منصب القنصلية ، ازدانت واجهات المنازل بالطنافس ، ورفرفت الرايات الحريرية على ساريتها ، وغص الميدان بالمنصات الخشبية ، وازدحم بجموع نقابات المدينة وأحزاب السيرك . وفى داخل القصر كان الإمبراطور يتلقى آيات الولاء من

مجلس السناتو . ويستمع إلى مدائح الخطباء ، وفى مقابل ذلك يمنحهم بلالا مملوءة بقطع الذهب وكئوس من الفضة أو يمنحهم لوحات العاج (Diptychs) التى تحمل رسمه . ثم تنفرج بوابات القصر عن الميادين الذين يتقدمون الموكب الطويل المؤلف من الموظفين ورجال البلاط والحرس يسيرون صفوفاً عبر الميدان إلى الكاتدرائية ، وهناك يقدم الإمبراطور ـ بين أنوار الشموع الكثيرة ـ هباته على الهيكل المرتفع ، ويتلقى البركات وذلك قبل أن يمضى ، بموكب النصر إلى الكابيتول . وهذا الاحتفال لم يكن إلا واحداً من احتفالات كثيرة مماثلة . غير أنها ما كانت تقتصر على البلاط وحده ، مثلما كان يحدث فى مجلسه من الإنعام بالرتب أو الترقيات أو لاستقبال أمراء القوقاز أو الهيرول،أو تلقى المبعوثين والسفارات من فارس والحبشة . وعندئذ كانت المواسم البيزنطية تظهر فى أبهى صور فخامتها . وكانت الجماعات الصغيرة من الأجانب الذين كان يرشدهم موظفون دائمون معينون لذلك الغرض ، يسيرون وئيداً بين صفوف من الجند طوال القامة ، كأنها صفوف متراصة من التروس والخوذات المذهبة والريشات الأرجوانية والحراب اللألاءة ، حتى يبلغوا آخر الأمر الأبواب العاجية لغرفة الدخول . وتعقب ذلك فترة انتظار طويلة . وعلى حين بغتة ترفع الستور وتكشف للأعين منصة بالغة الروعة — يتجلى فيها الإمبراطور جالساً على عرشه بين النسرين يحيط به حراس فى ملابس بيضاء لها ياقات مذهبة ، وقد جلس حوله أعضاء السناتو وعلية الموظفين فى أرديتهم الحريرية . وبعد أن ينبطح السفراء على الأرض ثلاثاً ، يسمح لكبيرهم أن يقدم هداياه للإمبراطور قبل أن يأذن له بالانصراف فى كلمات كريمة . ويلقى السفراء طوال مدة مقامهم إكراماً بالغ الحد ، ويعرض على أنظارهم بعناية الاهتمام كل ما فى المدينة من مناظر شديدة الروعة .

ميدان السباق

وإذا كانت كنيسة القديسة صوفيا — كما قال بعضهم — ملكاً لله وكان القصر للإمبراطور ، فإن ميدان السباق كان ملكاً خالصاً للشعب إذ كان ميدان السباق محور الحياة البيزنطية ، نظراً لأن اتجاهه كان يحدد اتجاه كل من في الكنيسة والقصر . فهنا كان الناس يعبرون عما تبقى للشعب الروماني من حريات بما ينبعث من صيحات أحزاب السيرك ، وهى تطلب من الحاكم رفع المظالم أو إسقاط وزير مكروه من الشعب ، وفى هذا الملعب كان وندال إفريقية المنهزمون ، يساقون فى أرجائه بين تهاليل الظفر ، ويرغمون على السجود بين يدى الإمبراطور ، على حين تهتز جنبات حلبة السوق بالتهاليل وأناشيد النصر . وهنا أيضاً كان يحدث بين الفينة والفينة تنفيذ حكم الإعدام فى أعداء الدولة أو التنكيل بهم .

وكانت المنطقة الوسطى من ميدان السباق يقسمها فى الوسط صف من المسلات والعمد ، كان يرتفع حولها مقاعد رخامية بيضاء وتتسع لأكثر من ٦٠٫٠٠٠ مشاهد . وفى الطرف البعيد من الميدان انتصب بناء ضخم منحن فوق سقائف مقامة على أعمدة ضخمة فوق المنحدرات الدنيا . وفى منتصف الواجهة الجنوبية الطويلة قامت المقصورة ، وهى المبنى المرتفع الذى يدلف إليه الإمبراطور من قصره ، وهو أشبه بمرساة بارزة يطل منها على الحشد الثائر من السكان دون أن يخشى شيئاً . إذ كانت المقصورة الإمبراطورية وما يلحق بها من حجرات ، من الارتفاع بحيث لا تبلغها قذفات الحجارة

ولا تتعرض لهجوم الجماهير[1] . وكان يقف تحته فى إحدى الطنف رجال الحرس والموسيقيون . أما خط النهاية الذى كان يعتبر نقطة النهاية والبداية أيضاً للمتسابقين بالعربات ، فيتألف من صف من مقاصير حجرية تحتلها الأسر الأرستقراطية البيزنطية ، وفى أسفل المقاصير غرف تفصل بينها حواجز وتنطلق منها العربات للسباق ، فتدور بشدة عظيمة حول العمود المخروطى — وهى الصرح الأثرى الذى يحدد الطرف الآخر للسباق ، ثم تندفع راجعة على الجانب الآخر من المحور المركزى (Spina) تحت صيحات جموع المشاهدين الهائجين .

وحفلت الرحبات الفسيحة والسقائف المحيطة بميدان السباق بالمسلات والتماثيل الشهيرة ، المنقولة من روما أو المنتزعة من مدن بلاد اليونان أومصر وآسيا الصغرى والتى كانت تلكم الآثار تعتبر فى يوم من الأيام من أمجادها التليدة . وكان بعض هذه الآثار من التماثيل الشامخة التى كانت إمبراطورية الروم الشرقية البيزنطية مولعة بها ؛ وكان بعضها من تماثيل أباطرة الرومان فى هيئة الفارس . ومنها ما كان على الطراز الهلينى* فى أنقى صوره ، غير أنه لم يكن منها إلا عدد قليل من إنتاج مثالين كفيدياس وليسيبوس . وكان أهالى القرون الوسطى الميالون إلى الإيمان بالخرافات ينسبون إليها قوى سحرية ، وكانوا يستطلعون أسرار المستقبل فى الرسوم الهيروغليفية المحفورة على الأعمدة المصرية .

وصهر الصليبيون الفرنجة برونز هذه التماثيل لتحويله إلى عملة ؛ على أن

---

(١) ومع ذلك فى الإمكان الدخول إليها عن طريق ميدان السباق كما تدل على ذلك فتنة نيقا .

* يفرق المؤرخون بين ما هو هلينى أى مرتبط بالإغريق القدماء ولغتهم وفنونهم وبين ما هو هلينستى أى منسوب إلى حضارة اليونان المشوبة بشوائب أجنبية بعد عهد الإسكندر (انظر للمترجم كتاب « الحضارة الهلينيستية ») (المترجم)

أحدهم أشفق على تمثال هرقل الذى بدا حالما حزيناً وعلى تمثال هيلين التى كساه الجمال الوضاء ، « وقد انفرج فمها كالزهرة وبدا كأنما يريد أن يتكلم ، بينما كانت ابتسامتها تسلب روح من يشاهدها . ولكن من ذا الذى كان يستطيع أن يصور عينيها العميقتين ، وتقويس حاجبيها ورشاقة جسمها الممتع الجميل ؟ [1] » .

ومن الطاقات العليا لميدان السباق كانت العين تمتد فوق المياه الصافية لبحر مرمرة فى الجنوب ، المنطاة لجانه بأشرعة سفن قادمة من ثلاث قارات ، ثم تنتقل إلى ما وراء هذه المياه من أحراش آسيا الصغرى وبيوتها الريفية وجبالها البعيدة ؛ وإلى الشرق كانت تقوم قباب القصر وحدائقه المتدرجة ، والمضيق الضيق والكنائس والدور المقامة فى جانبه الأقصى ، كما يشاهد فى الصدر الأوجستيوم الذى تقع فى خلفه قبة القديسة صوفيا الفخمة . وتُرى إلى الشمال الطرقات والميادين وقناطر السقاية وأقواس النصر بالمدينة والسقوف المتلألئة للكنائس التى لا حصر لها والأعمدة البرونزية العالية ذات الأفاريز الحلزونية ، وهى تعلو سطوح البيوت المتراصة ، ومن ثم تقتاد العين أماماً إلى خط الأبراج المربعة والأسوار الضخام والأراضى المترامية .

الخضر والزرق

على أن هذه المناظر الجذابة جميعها لم تكن شيئاً مذكوراً بالقياس إلى النزاع العارم الناشب بين حزبى الخضر والزرق . ذلك أن أحزاب الملعب كانت مما ورثته الدولة عن الإمبراطورية الرومانية القديمة ؛ وأصبحت بكل مدينة كبيرة

---

(١) ليقيناس من شونز (Chones) ، ٨٦٤ .

من مدن الشرق تمثل أهم حقيقة فى حياة سكانها المشهورين بسرعة الإثارة . وكان كل مواطن عضواً فى أحد الحزبين اللذين اتخذنا مقاعدهما فى جانبين متقابلين من ميدان السباق ، وقد اتشحا بالأردية الزرقاء أو الخضراء ، وهما يتضرعان القديسين بحرارة مبتهلين بالنصر لحزبهم أو يصرخون بالإهانات لخصومهم . فتدفق فى هذا المجرى العجيب جميع مشاعر الوطنية وكل ما كانت تزخر به المدينة المنتقلة من ولاء على الجنس والطبقة جميع سموم العداوات التى كانت فى الأيام الخوالى تستثير دم الإغريقى بلدجيع العداوات الحزبية . بل تأثر بها كل شىء حتى الفنون نفسها : فكانت التماثيل والشعر تشيد بجمال وجرأة راكبي العربات معبودى الجماهير . وكان غوغاء أنطاكية أو القسطنطينية أقل اهتماماً بانتصارات الجيوش الرومانية فى المعارك الناشبة على الحدود السحيقة منهم بانتصار الخضر أو الزرق . ومن العسير علينا تعقب ما ينطوى وراء نضال الحزبين المتنازعين من خصومة سياسية أو دينية.وكان كل من الجانبين يقذف الآخر دون تمييز بتهم الزندقة والخيانة والسحر أو مجافاة الفضيلة والأخلاق : ولم تكن تلك التهم سوى المظاهر المتداولة فى حملات السباب البيزنطى . على أن ما ارتبط به كل من حزبى الزرق والخضر بالمدن الكبيرة بالإمبراطورية من روح الزمالة الملسونية الخطيرة وما يثيره سباق العربات من الانفعالات الحارة التى قد تصل إلى فتنة مفاجئة ، بل إلى حد الثورة ، جعلت أحزاب السيرك قوة ضخمة فى السياسة . وحفظاً لمصلحة الدولة كان لابد من إجراء تنظيم دقيق لشئونهم . ومن ثم عين على رأس كل حزب عدد كبير من الموظفين ، يتولى انتخابهم هيئة تقابل ما هو معروف الآن بنادى الجوكية ، يتألف من مئات من الأثرياء ، الذين يؤدون من الاشتراكات ما يكفى للإنفاق على مؤسسات التدريب وعلى السباق ، فضلا

عما كان يجرى فى أثناء فترات الاستراحة من تحريش الكلاب بالدببة والألعاب البهلوانية . وكان لهؤلاء الموظفين امتيازات وواجبات خاصة فى مراسم البلاط، ولاسيما يتعلق منها بحفلات عيد ميلاد الإمبراطور وزواجه ، وكانوا مسئولين كذلك عن حفظ النظام فى ميدان السباق . وكان أتباعهم يكوّنون حرس الشرف فى المواكب الرسمية ، كما أن فصائل شرطة جند المدينة ، التى تتولى ضبط الأمن بالعاصمة ، وتقوم بالدفاع عن كل ما يوكل إليهم حراسته من مختلف أجزاء سورها ، كانت وثيقة الصلة بالمنظمات الحزبية . على أن أغرب ظاهرة فى هذه المنظمات جميعاً وإن لم يخل التاريخ من سابقة لها عند الرومان ، هى أن الإمبراطور نفسه كان ينتمى إلى أحد الحزبين ؛ وكانت نتيجة ذلك أن أحد الحزبين كان يلقى الحظوة والإيثار ويسمح له بقتل خصومه أو إرهابهم أو بتكوين جماعات من السفاحين (Mohocks) الذين يختالون بثيابهم العجيبة ويثيرون من الاضطراب ما يجعل المسير فى شوارع المدينة محفوفاً بالخطر ، وعلى حين أنه اجتمع فى الحزب الآخر عند كل أزمة جميع عناصر المعارضة للبيت الحاكم ، سواء أكانت معارضة شخصية أم دينية أم عنصرية أم أسْرية ، وهى المعارضة التى تثيرها فيما يبدو البقية الباقية من شرارات الديمقراطية الإغريقية التى كانت تومض فى عالم لا يعرف إلا الاستبداد والحكم المطلق .

وكان أنستاسيوس يؤثر الخضر برعايته ، بيد أن جستين وجستنيان درجا على نقيض ذلك . وعندما كان مركز جستنيان غير وطيد ، مضى فى التحيز لحزب الزرق إلى أبعد الحدود ، بل إن دور العدالة نفسها قد أفسدتها المشاعر الحزبية . حتى إذا اطمأن جستنيان فى مستهل (٥٣٢) على ملكه ، أصدر الأوامر إلى المدن الكبرى بضرورة إخماد كل اضطراب يصدر عن

أى من الحزبين . وكانت نتيجة ذلك أن أمر والى مدينة بيزنطة بإعدام سبعة من الخضر والزرق ، اتهموا بالقتل فى أحد الاضطرابات التى وقعت حديثاً . ومن سوء الحظ أن حبل المشنقة انقطع مرتين : واستطاع جمع من الساخطين أن ينقذ اثنين من المحكوم عليهم ، وقدم الحزبان الالتماسات إلى الإمبراطور بالعفو . فلما رفض الإمبراطور الطلب ، اتحد الحزبان ، وعندئذ بدأ الخضر والزرق — مستخدمين كلمة السر « انصر Nika » — الفتنة المعروفة باسم ثورة نيقا .

ثورة نيقا

ولم تنقض بضعة أيام حتى تطورت الحركة متخذة شكلا بالغ الخطورة . فقد أشعلت النار فى المبانى المحيطة بالأوجستيوم . وانحاز إلى الحركة سكان الريف الذين أثارتهم الضرائب الفادحة التى قررت عليهم ، فأصبحت فتنة الأحزاب ثورة شعبية . وطالب الثوار بعزل الوزراء الثلاثة المبغّضين إلى الناس . وجزع جستنيان لما حدث من اضطراب فأذعن لمطالب الثوار ، بل إنه ظهر بشخصه فى المقصورة ، وأقسم على الكتب المقدسة بأن يرفع المظالم ويمنح العفو العام : ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان . فانسحب إلى القصر مشيعاً بصيحات الاستهزاء والإهانة ـ ولم تلبث الثورة الشعبية أن تحولت إلى ثورة . ولقى الثائرون تأييداً من كثير من النبلاء الذين كانوا منذ البداية يبغضون بيت جستين حديث النعمة ، وتُوج ابن أخ لأنستاسيوس إمبراطوراً رغم إرادته ، واقتادته إلى المقصورة الجماهير الثائرة التى هرعت إلى ميدان السباق . أما الإمبراطور الحقيق وهو جستنيان ، فصار محصوراً فى قصره وأضحى مركزه فى حرج . وكانت الشكوك تخيم على ولاء أعضاء

السناتو باستثناء من كان منهم من صنائع الإمبراطور وأصدقائه ؛ وكان الحرس فى تردد ، فلم يكن الإمبراطور يستطيع أن يركن إلا إلى أتباعه الخصوصيين وإلى الجند من البرابرة الذين يخضعون لاثنين من قواده . فبادر جستنيان إلى عقد مجلس عاجل واعتمد الفرار . على أن الموقف لم ينقذه إلا ثيودورا التى كان خطابهـا الشهير رنين الصدق والإخلاص — رغم ما أضفاه عليه بروكوبيوس من طابع ثوسيديدس ، إذ قالت : « على الرغم من أن السلامة لن تتحقق إلا بالفرار فلن أركن إليه . وذلك أن من يلبسون التاج ينبغى ألا يعيشوا بعد أن يفقدوه . ولا أحب أن أعيش حتى أرى اليوم الذى لا يهتف فيه الرجال باسمى إمبراطورة لهم . فانج بنفسك إن شئت يا قيصر ، فإن لديك المال ؛ والسفن فى انتظارك ؛ والبحر خال من كل حرس . أما أنا فإنى باقية هنا . عملا بالمثل القديم القائل بأن الرداء الأرجوانى هو كفن جميل » .

وتلى ذلك اتخاذ تدابير صارمة . وتقرر رشوة الزرق ليتخلوا عن الخضر ؛ وفى تلك الأثناء شق القائدان المواليان للإمبراطور طريقهما إلى ميدان السباق عنوة من أبواب مختلفة ، وأعقب ذلك إجراء مذبحة رهيبة . ولم تتوقف المذبحة إلا عند حلول الليل ، وأسفرت عن مصرع ما يزيد على ثلاثين ألفاً فى ميدان السباق .

ولم يلبث إبناء إخوة أناستاسيوس التعساء ـ أن لقوا مصرعهم ، إذ بلغ من خوف جستنيان منهم أنه لم يبق على حياتهم ، وتقرر نفى عدد كبير من النبلاء . وكانت التدابير التى اتخذت ـ وإن خلت من روح الانتقام ـ كافية لضمان عدم تكرار ما من شأنه أن يفضى بأعضاء السناتو وبأحزاب السيرك إلى القيام بالأعمال التى أوشكت أن تحرم الإمبراطور من عرشه . وعلى حين

أن مركز الإمبراطور توطد فعلا وزاد قوة ، فقد قامت على أنقاض الحي المهدم الممتد فيما بين سوق قسطنطين إلى أبواب القصر ، مجموعة من المآثر الرائعة تتوجها كنيسة القديسة صوفيا ، التي تعتبر ، مع مجموعة القوانين التشريعية التي تحمل اسمه ، أبقى ما خلفه جستنيان من آثار .

كنيسة القديسة صوفيا

وإن كنيسة القديسة صوفيا ، أي كنيسة الحكمة المقدسة ، قد أعترف بها منذ ذلك الحين أنها « أجمل كنيسة في العالم كله » على حد قول السير چون ماندفيل . وقد أشاد بوصفها بروكوبيوس في فقرة رصينة ، كما أن بولس المعروف باسم داعية السكوت ، وهو من رجال البلاط والشعراء البارزين ، استطاع في قصيدته التي ألفها ، بمناسبة ما قام به جستنيان من افتتاح مبنى الكنيسة من جديد والتي امتزج فيها الخيال الشعري والتفاصيل المعمارية الدقيقة ، أن يعرض صورة رائعة للكنيسة ، وأهم ما انعكس لديه عن بنائها من طابع وأثر ، وما امتازت به من الرقة والخفة البالغة الحد . فتراءت قبتها كأنما هي مدلاة من السماء ، إذ ترابط في الهواء - في شكل يبعث على الدهشة - كل أجزائها ، وقد تدلى كل جزء من الآخر وارتكز على الأجزاء التالية . وهذا التأثير أظهرته في الواقع تلك القباب التي لم تكتمل استدارتها،والتي استندت عليها من الشرق والغرب القبة الوسطى الكبيرة ، وما اجتمع لها من تناسب وتناسق رائع بين كل ذلك ، وزاد في هذا التأثير ما كان ينفذ إلى الكنيسة من ضياء الشمس وما يصدر من إشعاع هادئ عن الرخام المتعدد الألوان الذي كان يكسو الجدران والأرض . ويجتاز الداخل إليها أقبية تحيط بها ينابيع

وسقائف مقامة على أعمدة . فإذا تجاوز الداخل غرفة القربان المزدوجة بأبوابها التسعة ، تجلى أمام ناظريه طول المبنى بأ كله ، أما الساحة المربعة الوسطى التى ارتكزت قبتها على أربعة أعمدة ضخمة انتصبت كأنها حائط صخرى قائم ، فيحف بها على الجانبين بهوان من الأعمدة من طابقين ومن خلفهما ارتصت مقاعد أعضاء البلاط ، بينما اتخذت النساء مقاعدهن فى الطابق العلوى . ووراء هذا المتسع كان يقوم منبر القراءة ، وهو يقف كجزيرة من العاج والفضة وسط بحر دوار من الرخام المجزع بخطوط خضراء يانعة أو حمراء قانية ، وقد انتثرت عليه النجوم الذهبية أو تطايرت عليه جداول بيضاء كاللبن على سواد براق ، أو كأنها « مثل زهرة الترنجان الأزرق النابت وسط العشب ، الذى ينتثر عليه هنا وهناك شذرات من الثلج الأبيض » . ويتألف الطرف الشرقى من ثلاث حنايا ؛ احتوت الحنية المتوسطة على الهيكل الذى يحجبه حاجز الأيقونات الفضى الضخم ، الذى انتصبت عليه تماثيل الشهداء والملائكة بأجنحتهم ، وقد أحنوا رءوسهم . وكان المذبح من الذهب الخالص تتدلى فوقه أسجاف حريرية تحمل صوراً أو رسوماً ، وما يعلو المذبح من مظلة هرمية الشكل ، وما يقع خلفه من منابر منحنية معدة للبطريرك ورجال الدين كانت تلتمع بالفضة المكفتة أبدع تكفيت وأتقنه . وفى الليل كانت مئات المصابيح المعطرة التى انتظمت ثريات ، أو التى صيغت بشكل سفن أو تيجان من الفضة، تضىء كل جزء من أجزاء الكنيسة ، بل يسطع ضياؤها خلال فتحات القبة فتؤلف مشعلا يسترشد به الملاح الذى يجتاز التيارات المعاكسة فى البوسفور « وقد استبد به القلق وهو يتوقع ـ وقد شدت أطناب ساريته ـ هبوب عاصفة من إفريقية » .

وبلغ فن العمارة المسيحى الذروة فى كنيسة القديسة صوفيا ؛ فما اشتهر به الشرق من لاهوت تجريدى ، تجسد فى الحجر . « فما من أحد يدخل الكنيسة للتعبد ، حتى يدرك أن هذا البناء الرائع لم يبلغ الاكتمال بقوة الإنسان أو مهارته بل بفضل من الله وتوفيقه . هناك يرتقى العقل سمواً حتى يتصل بالذات الإلهية . وقد أحس أنه (جلت قدرته) لا يمكن أن يكون بعيداً عن تلك الدار ، بل كان لا بد أن يؤثر بوجه خاص أن ينزل المكان الذى اجتباه » .

أصول الفن المسيحى

وكما أن قبة تلك « الكنيسة الكبرى » التى تحلق عالية كأنها « برج شامخ » يمتد فى كبد السماء ويشرف على المدينة من عَلٍ فإن الكنيسة نفسها فاقت فى الأهمية كل ما ظهر حتى ذلك الزمان من كنائس لاحصر لها . ومنها كنيسة الرسل المقدسين بما حوت من قبور الأباطرة ، والتى لم تقل كثيراً عن كنيسة القديسة صوفيا فى وفرة ما حوت من الزخارف ، كما أن أهميتها ترجع إلى أنها كانت النموذج الذى اتخذته كنيسة القديس مرقس بمدينة البندقية . ففى كل أرجاء الإمبراطورية ، كانت تشاد المبانى من جميع الأوصاف ، واشتهر كثير منها بتصميمات أصيلة أخاذة — ومن هذه العمائر السقايات والصهاريج بإقليم الجزيرة ، ومنها الجسور المشيدة من الحجارة عند التقاء الطرق بآسيا الصغرى فوق الجداول التى احتفرتها السيول المتدفقة من الجبال ، ومنها الحمامات والنافورات فى سورية ، ومنها القلاع الضخمة على أطراف إفريقية ، ومنها الأديرة المسوّرة فوق جبل سيناء ، ومنها الكنائس المنبثة حول أرجاء البحر المتوسط ، وعلى امتداد شواطىء بحر الأدرياتى إلى بارنزو ورافنا . وتسلط فن العمارة البيزنطى فى أثناء القرن التالى بكل مكان

حتى بلغ روما ذاتها ، وبينما يمكن مشاهدة ذلك الفن ابتداء من قباب بريجو (Périgueux) إلى عقود كنائس كيف المقببة (Cupola) ، ومن آخن حاضرة مُلك شرلمان إلى واحات مصر العليا ، فإن مؤثراتها الزخرفية وطريقةعرضها للأحداث والشخصيات المقدسة ، قد ازدادت اتساعاً وانتشاراً حتى بلغت إرلندة ونورنمبريا وألمانيا ، فيما جرى حمله إليها من التحف العاجية والمنسوجات والصور والرسوم الصغيرة .

كانت أصول الفن المسيحى على الدوام موضع جدال حاد لا يخلو من التحيز الدينى أو الوطنى . إذ إن المسألة اتخذت فى الآونة الأخيرة شكلا جديداً . فقد أغفل ما كان سائداً من قبل من المقابلة بين الشرق والغرب ، وتغيرت طرق معالجة المسائل بسبب المادة الضخمة التى توافرت ووضعت تحت الفحص والموازنة والمقارنة . وعلى الجملة ، لم يعد أحد يعد التغيرات التى حدثت فى تلك القرون طوفاناً جالباً للكوارث يجترف أمامه كل ما على الأرض من معالم ، بل ينظر إليها على أنها روافد وتيارات عديدة متشابكة فى مجرى مائى متواصل المسير لا تقاس أهميته إلا بقوة الدفع التى تنطلق به الروافد والتيارات من خلال قنواتها جميعاً . ولا شك أن أشكال الفن المسيحى ، فضلا عن روحه إنمـا ترجع مصادرها إلى الشرق ؛ ولـكن لم تـكن هذه هى المرة الأولى التى يظهر فيها التأثير الشرقى . فقد دأب كل من نهر النيل ونهر العاصى على صب مياههما فى نهر التيبر منذ عدة قرون خلت . فإن الإسكندرية ، وهى مركز التقاليد الهلينستية فى التشكيل والزخرفة والرسم المثالى لهيئة الإنسان ، كانت على سبيل المثال ، المنبع الأصلى لمـا انعكس فى المقابر الرومانية القديمة من زخرفة . أما أنطاكية التى تمثل أسلوب الساميين الواقعى الذى يساند ما كان لمثالى بابل وآشور من تقاليد عظيمة ، فقد علا نجمها وبرّزت بعد أن

صارت المسيحية ديناً رسمياً للدولة وأصاب الفن المسيحي من التغيير ما يجعله يوافق الأحوال الجديدة . فما تجلى في جصيات (Frescoes) المقابر الرومانية من البساطة في إظهار الفرح والحزن ، وما كان من رسوم آلهة الحب المتلاعبة وصور المتوسلين والمرساة والسمكة واليمامة ورموز الميلاد الجديد الأورفية ، كل ذلك حل مكانه ما اقترن بالمناظر التاريخية والعقائدية من رهبة وعظمة . فلم يعد المسيح فتى يونانياً رشيقاً ، ولا راعياً يحمل شاة ، بل صار ملكاً مؤلهاً قديساً يحكم بلاطه الشرق من ثنايا السحاب ، واتخذ صورة حزينة لرجل سامى ذى لحية يسهم فى آلام من لا حصر لهم من الشهداء الذين رسمت حكاياتهم بأوفى تفصيل على جدران الكنائس الباسيليكا[1] . وقد كان لمآثر قسطنطين القائمة الصيت ، لاسيما ماشيد منها فى بيت المقدس أثر فعال فى كل من بناء وزخرفة الكنائس التى كانت تنشأ بكل إقليم من أقاليم الدولة ، كما أن المنمنمات (Miniatures) والتحف العاجية وتذكارات الحجاج قد نشرت فى كل أرجاء الغرب الطرز والأشكال (الرسوم) التى تصور على سبيل المثال مختلف الرسل وأيام الخليقة أو نواحى التماثل بين العهد القديم والعهد الجديد فى الكتاب المقدس — وهى المادة التى يتكون منها فن العصور الوسطى .

المؤثرات الآسيوية

ويكمن وراء هذين المؤثرين التوأمين : مؤثرى أنطاكية والإسكندرية ، مؤثر ثالث أقدم منهما عهداً وأكثر غرابة ، ويرجع الفضل العظيم فى إظهار أهميته إلى استرزجوفسكى (Strzgowski) ، ويتمثل فيما كان لثقافات آسيا

---

(١) الكنائس الباسيليكا (Basilicas) كنائس فخمة كانت تتخذ من دور الحاكم القديمة فى العهد الرومانى . انظر الحضارة البيزنطية . (المترجم)

البدوية من تقاليد واسعة الانتشار بما لها من أشكال سطحية ومن تصميات شكلية لعساليج الكرم والزهور والحيوانات ، وما تتصف به من صفة تجريدية لاتمثيلية (أى لاتهدف إلى تصوير الأشياء) . وكما أن البدو الرحل الذين كانوا يظهرون بغتة من سهوب آسيا التى لم تتغير على كر قرون التاريخ ، قد خلفوا طابعهم فى الأقطار التى اجتاحوها ، فكذلك كان مؤثرهم الفنى قوياً محسوساً على يد الإسكيذيين والأتراك والعرب . على أن تأثيره امتد فى ذلك الوقت[١] خاصة عن طريق شمال فارس ، فانتقل قوياً إلى أرمينية ، التى تعتبر من أقدم كراسى المسيحية ، والتى اشتهرت بما ازدهر بها من الأسقفيات والكنائس والأديرة . وتأثر الفن السورى والقبطى أعمق التأثر بهذه الأشكال الأسيوية ، وعن طريقهما تأثر الغرب ؛ غير أن هذه المؤثرات الأسيوية اتخذت طرقاً أخرى للوصول إلى الغرب مباشرة . فالمعروف أن القوط أقاموا بسهوب جنوب الروسيا زمناً طويلا يكفى لأن يتذوقوا فيه ما ذاع رسمه عند الإيرانيين من أشكال الجواهر والحلى المتشابكة ، التى نشروها فى أثناء هجراتهم التالية فى شمال إيطاليا وغرب ألمانيا وفرنسا وأسبانيا ، حيث انتشر الطراز بين القوط الغربيين فضلا عن الميروفنجيين واللومبارديين ، ومن الأمثلة الدالة على أثره تلك الحيوانات الغريبة التى تتندى فى بعض النحائت الرومانسية . ولعل الشكل التجريدى لذلك الطراز استهوى أذواق الشماليين المتقاربة مثلما حدث بإرلندة التى كان يعوزها فن الأشكال المنحوتة ، إذ لم يلبث دخول المسيحية أن أعقبه ظهور أساليب فنية زخرفية شرقية ، امتزجت بما

---

(١) على أن فن التصوير الساسانى القائم بجنوب إيران معتق من مصادر مرانية (أرض الجزيرة) وهلينستية .

فى الأنماط الـكلتية من أشكال القواقع الحلزونية والأبواق ، وتألف من ذلك ما اشتهر به كتاب المشبكات من تصميمات معقدة .

والفنان الإيرانى حينما يتخذ صور أشكال الناس والحيوان والنبات ، لا يستخدمها إلا على أنها أجزاء مكونة لرسم زخرف كما هو الحال فى سجادة عجمية . وكانت رسومه مسطحة ليس بها شىء من إدراك التشكيل أو المنظور ، لا فى التصوير ولا فى النحت. فتقدير الأبعاد كان يجرى تمثيله بجعل الأشكال فى مناطق إحداها فوق الأخرى ، وكانت الألوان الزاهية توضع بعضها إلى جوار بعض دون تدريج فى قوة اللون . وكان المثل الأعلى عنده هو الحرص على بقاء النمط المستمر ، الذى تظهره الألوان المتقابلة ، أو تعاقب الضوء والظل ، لا خطة متسقة تهدى النظر إلى بؤرة متوسطة . وهذه الخصائص ذاتها ، شاعت أيضاً فى فن الإسكيذيين وفن الشعوب التركية والمغولية . وإذا نحن نظرنا إلى التغيرات التى طرأت على الفن المسيحى ووازنا بين الباسيليكات الرومانية الباردة ، وسطوحها العارية وبنائها المنظم النسق ، ونقوشها البارزة الناطقة التشكيل وتيجانها الغائرة الحفر ، وبين ما كان فى هذا الزمن من الـكنائس الجزلة الوهاجة والفسيفساء والجصيات (الفريسكوهات) الزاهية الألوان ، وأشكال الشهداء جادة التقاطيع ، وما كسا كلَّ سطح من رسوم عربية وحليات مخرمة، أو زخارف رخامية، أو تيجان اتخذت كتلها شكل «الباتلا» المتجمدة فلن يكون من العسير علينا دون الالتجاء إلى الإشارة إلى شواهد الأشكال المعمارية وإلى التحف العاجية والمنمنمات ، أن ندرك أهمية هذا المظهر الثالث للفن البيزنطى .

التجارة البيزنطية

ولا شك أن اسم الفن « البيزنطى » له كل ما يبرره ، وذلك لأن المدينة العظيمة (القسطنطينية) كانت فى ذلك الأوان ملتقى كل هذه المؤثرات وبوتقتها . وهى أيضاً مركز التجارة . « فإلى موانيها كانت تقلع كل السفن المشحونة بتجارة العالم يحدوها الأمل فى الربح ، بل إن الرياح نفسها كانت تعمل على جلب التجارة لملء أيدى سكانها بالثروات ».[1] فكانت الفراء والجلود تأتى إليها من جنوب الروسيا وحوض الدانوب ؛ ولكن الشرق كان المورد الذى تستمد منه ثرواتها الرئيسية . فكان البلاط والطبقات العليا تستهلك مقادير ضخمة من الحرائر والتوابل وأخشاب العطور ؛ كما أن بيزنطة أصبحت فى نظر الغرب مدينة ترف سحرى عجيب عندما كان الإمبراطور يرسل هباته من المنسوجات الحريرية والجواهر الثمينة إلى ملوك البرابرة وكنائسهم .

وكان ثمة طريقان رئيسيان بين الشرق الأقصى والبحر المتوسط . فأقدمهما عهداً وأقصرهما ، هو الذى استخدمته القوافل فى عبور الصحارى الكبرى بآسيا الوسطى ، وبعد أن تجتاز سمرقند وبخارى وواحات بلاد الصغد تبلغ الحدود الفارسية فى مائة وخمسين يوماً . وبعد رحلة تستغرق ثمانين يوماً أخرى عبر فارس تبلغ القوافل نصيبين (Nisibis) وهى مدينة تقع على الأطراف الرومانية . فأما الطريق الآخر الذى أمعن القوم فى استخدامه منذ ١٦٠ للميلاد ، فهو الطريق البحرى . وكانت جزيرة سيلان (سرنديب) هى السوق المركزية الكبرى ، التى يرد إليها ـ بحرا ـ الحرير والقطن وعود الند والفلفل

---

(١) انظر بولس داعية الصمت ، ٢ ، ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

والقرنفل وخشب الصندل من الصين والملايو وجزر الهند الشرقية . ومن هذه النقطة (سيلان) اتخذت التجارة إلى الغرب طريقين بحريين . أولهما — وهو أهمها — كان يتخذ طريق الخليج الفارسي إلى مصبي دجلة والفرات وإلى الأسواق الكبيرة بالحيرة . وكان الطريق الآخر يدور حول بلاد العرب ثم يجتاز البحر الأحمر إلى موانى اليمن على شاطئه الشرقي ومرافيء الحبشة في الغرب أو إلى المدن الرومانية القائمة عند رأس الخليج ، وهي القلزم (Clisma) بالقرب من السويس وأيلة (العقبة Aila) على الفرع الشرقي . والواقع أنه لم يقم بزيارة الشرق من تجار سورية أو الإسكندرية إلا عدد قليل ، شاهدوا حجر الجمشت الذي يضارع في الحجم كوز الصنوبر وهو يتألق فوق قمة المعبد بجزيرة سيلان ، أو رأوا ملوك الهند بما لهم من جيوش جرارة وقطعان من الفيلة . وترددت الأقاصيص عن جزيرة الساتير ، التي هي جزيرة بورنيو موطن الأورانج يوتان ، كما أن المصادر الصينية تشير إلى التجار الغربيين الذين يهبطون موانيها . وقد أقلع بعضهم إزاء الساحل الإفريقي ، ورأى ما كان لقوافل التجار من مراكز منيعة ، وما كان يدور بينهم وبين السكان في داخل القارة من المقايضة الصامتة. وذلك لأنه كما ينبئنا كوزماس : في خارج الخلجان الأربعة العظمى بالعالم وهي البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسي وبحر قزوين (الخزر) يحيط بالعالم بحر كبير ، امتلأ بالضباب القاتل والتيارات العنيفة ، وكان مصدر خطر دائم على المسافرين . وحدث ذات يوم ، أن ظهرت بعض طيور القطرس، على مسافة غير بعيدة من زنجبار . وبدأت السماء تنذر بالخطر ، وأخذ الركب والملاحون يهتفون في رعب بربان الدفة أن يتجه بالسفينة إلى الميناء ، وأن يعود إلى الخليج ، لما تراءى لهم من أمواج المحيط . وتبعتهم طيور القطرس الصخاب على ارتفاع كبير ، وهي علامة تدل على أن المحيط قريب منهم .

وروى كوزماس الراهب، وهو تاجر متقاعد من الإسكندرية قصصاً ممتعة يصح الاعتماد عليها عن رحلاته وعن سبوع البحر والزرافات وغزال المسك وجوز الهند وشجر الفلفل وغيرها من الأشياء النادرة . على أن ما كتبه فى علم الكون لا يقل عن ذلك إمتاعاً ولكنه أقل جدارة بالثقة . وحقيقة أمره كما يعبر عنه جيبون يتلخص فى أن : « هراء الراهب عنده يختلط بالخبرة الواقعية للرحالة» . فهو يعمد إلى الأساليب والوسائل التى لا تزال مألوفة لدينا فيستخدمها فى تفسير الكتب المنزلة تفسيراً يدحض بعض المبادئ الوثنية الضارة التى تزعم أن الأرض كروية ، وأن لكل جزء منها ما يقابله فى الجهة الأخرى ، وعنده أن العالم مكون من صندوق مستطيل مؤلف من طابقين اتخذ نفس أبعاد تابوت العهد الذى أنشأه موسى « العليم الكبير بوصف الكون » . أما النجوم فتحملها الملائكة ؛ وتغرب الشمس خلف جبل عظيم ويعتبر كوزماس نموذجاً طيباً لما شاع بين الرهبان من الأفكار والتأملات : غير أن نظريته الخاصة لم تلق قبولا كبيرا .

وكان معظم التجارة العالمية فى أيدى الفرس : إذ إنهم يسيطرون على أسواق سيلان ويستمتعون هناك بامتيازات خاصة . وكان الملاحون الأحباش يقومون بتجارة البحر الأحمر ، وكانوا يزورون كذلك الموانى الشرقية . أما تجارة الحرير بأكلها فكان الفرس وحدهم وسطاء نقلها ، وفى ذلك ما لا يخفى من الضرر . وهذه الحقيقة تحكمت فى سياسة جستنيان التجارية . وبذلت جهود لإنشاء خط القوافل الشمالى الذى كان يجتاز بلاد التركستان ، ويعبر القسم الشمالى من بلاد فارس ويسير حول بحر قزوين ثم يهبط إلى الطرف الشرقى للبحر الأسود . ولجأت الدولة إلى استخدام خطة أخرى هى أن تتولى بنفسها الصفقات

مع فارس . وعقدت معاهدة تجارية قصرت استيراد الحرير على مدن ثلاث على التخوم : كالينكيوم فى إقليم أوسروثينى ونصيبين بأرض الجزيرة وأرتا كساتا بأرمينية . وفرضت عقوبة صارمة على التهريب ، وحدد القانون ثمن الحرير الخام الذى كان يتولى شراءه موظفون من قبل الإمبراطور ، بينما تقرر فى الطرف الآخر من الرحلة وضع حد أعلى لأثمان المنتجات المصنوعة فى صور وبيروت . على أن هذه الإجراءات التى اتخذت لم تظفر بنجاح تام ، وذلك لأنه حدث فى بعض الأحيان أن فارس كانت ترفض البيع بالسعر المعروض ، فيتعرض تجار الحرير السوريون من أجل ذلك للخراب . وكانت الحكومة البيزنطية تضطر فى النهاية إلى دفع السعر الأعلى ، ولكنها كانت تغتنم تلك الفرصة لجعل التجارة احتكاراً بيد الدولة .

على أن جهود جستنيان الأساسية ، كانت موجهة إلى تجارة البحر الأحمر . إذ إن الإثيوبيين سكان أكسوم اعتنقوا الكاثوليكية فصاروا من ثم حلفاء له . وساعدهم جستنيان فى استعادة سلطانهم على الساحل المقابل لبلادهم وأعنى به بلاد اليمن . وكانت تجارتهم الواردة من الداخل واسعة النطاق — تشمل البخور والأفاويه والزمرد والعاج — وحملوا الذهب والعبيد من أقصى الجنوب ؛ وكان بيدهم أيضاً زمام التجارة العربية وقدر كبير من الأسيوية . ولم يبذل جستنيان لهم من تكريمه ومساعداته إلا لغاية فى نفسه : هى أن تشتد المنافسة بين الحبشة وفارس على تجارة الحرير اللازمة للغرب . ولكن قبضة الفرس على أسواق الهند وسيلان كانت قوية متمكنة ، ولذا لم يكن لهذه المنافسة أثر كبير . على أن حادثاً مثيراً أدى إلى حل هذه المشكلة ، ذلك أن راهبين تمكنا من تهريب بيض دودة القز من بلاد الصين ، حيث كان القوم يحافظون

على سرها بكل تيقظ وغيرة ، بأن أخفيا البيض فى جوف عصيهم المصنوعة من الخيزران . ولم تلبث سورية أن زخرت أرضها بشجر التوت ، ولم تعد الإمبراطورية بعد زمن قصير تعتمد على ما يرد من الصين .

وعلى الرغم من التحكم الشديد والرقابة القوية التى اتخذتها الدولة فضلا عن الرسوم الكثيرة التى تقرر جبايتها ، فإن التجارة البيزنطية ازدادت ازدهاراً . فكانت سورية ومصر خلايا عاملة تمج بالصناعة الناشطة ، وكان البحر المتوسط من أقصاه إلى أقصاه يمج بسفن التجار ، التى تجلب كل غريب معجب من الفاكهة والجواهر والأقمشة والأفاويه ، كما تحمل أنواع المينـاء المدهشة والوشى المونق والمصنوعات المعدنية الدقيقة الواردة من الشرقين الأدنى والأقصى إلى موانى أوربا الغربية ؛ وكان الدينار البيزنطى (النوميزما) هو العملة الذهبية المتداولة بجميع أسواق العالم .

الحياة فى العاصمة البيزنطية

حاولنا فى الصفحات السابقة أن نخطط للقارئ أصـول السياسة الإمبراطورية التى انتهجها جستنيان ، مستخدمين لذلك رمزاً هو تلك المبانى الضخمة التى أحاطت بميناء الأوجستيوم . واستكمالا للصورة لا بد لنا أن نصف الحياة الاجتماعية لمختلف طبقات المجتمع البيزنطى . ومن هذه الطبقات النبلاء الذين ارتدوا الملابس الحريرية والذين اتخذوا لهم دوراً بالمدينة ومساكن بالريف وشغلوا وظائف فى إدارة الدولة والجيش والكنيسة ، واشتهروا بما دبروه من مؤامرات من أجل الوصول إلى السلطة ، وخاضوه من نضال من أجل الصدارة والتفوق وبالخروج للصيد أو لسباق الخيل فضلا عن

اتجاهاتهم الأدبية وثقافتهم المنتقاة . أما الطبقة الوسطى فتمثلها دوائر الجامعة بأساتذتها الذين تدفع الدولة مرتباتهم . ومدارس الحقوق والبيان التي اشتهرت بكفايتها ، وكانت وثيقة الصلة بجهاز الموظفين القائمين بالإدارة المدنية الذين يصور يوحنا ليداس فسادهم وتحيزهم لذوى قرباهم بألوان قوية زاهية . ويلي هاتين الطبقتين فئة التجار وأرباب المصارف وأصحاب الدكاكين ، بما اشتهروا به من الاعتدال في حياة الترف والطباع الهادئة ؛ ولا مفر أيضاً من وصف الحياة العامة في المدينة بما حفلت به من الأبروشيات ورجال الشرطة والمطافئ والمحاكم والمدارس والمستشفيات وما حوت من أطباء مقيمين وعنابر منفصلة فضلا عن ملاجئ أيتام ودور الصدقات والمخابز العامة وموارد المياه والصهاريج والسقايات والمجاري . وزخرت المدينة بالميادين الرائعة والشوارع الفسيحة والسقائف وأقواس النصر المصنوعة من الرخام الأبيض الناصع ، وغصت المدينة بالتماثيل والحوانيت التي تعرض للبيع ما فيها من حرائر زاهية الألوان كلهيب النار ، ومن مصنوعات معدنية براقة ، وازدحمت الشوارع الفسيحة بألوان مختلفة من الناس ، من نبلاء في عباءاتهم الثمينة وستراتهم ذات الأكمام المطرزة بأجمل النقوش ، يسير خلفهم أرقاؤهم الذين ارتدوا القلانس والسترات القصيرة ، أو امتطوا صهوات جيادهم التي طرزت سروجها بالذهب ؛ ومن النساء في ثيابهن ومحرماتهن الزاهية الألوان أو المتبتلين في مسوح شهباء وسوداء ، ومن الرهبان والحجاج ؛ والبغايا والمتسولين والنشالين ؛ والحراس والجند المرتزقة من الصقالبة والجرمان والهون ؛ وثم تجار من سورية ومصر ؛ ومن المشعوذين والمنجمين والأطباء الدجالين الذين اتخذوا نواصي الشوارع مقراً لهم ، ومن القصاص في الأسواق ، يروون قديم الأقاصيص الشعبية من آسيا أو يقصون أحدث أعجوبة أو آخر نكتة ، يروونها مقترنة بأسماء العظماء

حتى باسم الإمبراطور وقسيمه فى الحكم ، بينما اشتهرت الأزقة الضيقة الوعرة الانحدار بما يطل عليها من شرفات وبما حوته من دكاكين معتمة ، والمواخير وهى تنحدر مؤدية إلى الميناء المزدحم — الذى يرتاده البحارة الأجانب ويعتبر موطن الطاعون الذى يجتاح المدينة من حين إلى آخر ويقتل من سكانها خمسة آلاف كل يوم . وعندئذ تسير الأشباح فى الشوارع الخالية وتنفذ من كل شىء حتى الأبواب المحكمة الرتاج ، وتصدر الأصوات الرهيبة التى تحذر الضحية من النهاية المقتربة .

على أن الكنيسة تمثل قطاعاً مستعرضاً يمتد فى كل الحياة البيزنطية ، بما اشتهرت به من تعدد نواحى النشاط ، ابتداء من البطريرك ورجال إكليروسه والوعاظ بالكنائس الكبرى والمعترفين ، بدعة ذلك الزمان ، والقسوس العلماء حتى الرهبان الفلاحين والزهاد الجائلين . وزخرت المدينة وضواحيها بأديرة الرجال والنساء ، ومنها ما أسسه بل نزل فيه أحيانا نبلاء من أعضاء الشيوخ مع حريمهم ، ومنها ما كان ملجأ يأوى إليه المحتاجون فضلا عن الفارين من وجه العدالة . وذلك لأن الأديرة جزء مكمل للدولة ، كما يبين ذلك تشريع جستنيان . إذ جرى الإمبراطور هنا وفى كل مكان على ما كان لروما من نظرية تقليدية . وإذ كان القيام على الوجه الأكمل بالشعائر المقدسة (Sacra) كفل للجمهورية المحاصيل الجيدة (الخير والرخاء) ورد الأعداء عن أبوابها ، فإن جستنيان أعلن أنه : « لو أن هذه الأيدى الطاهرة والنفوس المقدسة صلت داعية للإمبراطورية ، لقوى الجيش ، ولازدادت رفاهية الدولة ورغدها ولازدهرت الزراعة والتجارة بفضل رعاية الله وإحسانه الأكيد » (الإضافات القانونية الجديدة ١٣٣ ، ٥) . ومهما غالينا فى أهمية الدين فى الحياة البيزنطية فلن نوفيه

حقه . فإذا كان ما يجرى بين الإنجليز دائماً من حديث إنما يدور حول الجو ، فإن حديث الناس فى بيزنطة يدور دائماً حول اللاهوت . وإذا كانت الأزمات الداخلية تعتبر أزمات اجتماعية واقتصادية ، فإن الأزمات الداخلية عند البيزنطيين كانت عقائدية . وتعتبر حروبهم صليبية ، ويعتبر إمبراطورهم نائباً عن الله فى الحكم . وفى أزمنة الهدوء والاستقرار ، كان للأديرة بما اجتمع لها من جيوش من الرهبان وحشود من الأتباع دور كبير فى تكوين الرأى العام . وكان للنساك العموديين الذين اتخذوا مقارهم على رءوس الأعمدة تأثير عظيم على السكان ، وكان الأباطرة يستجيبون لمطالبهم ويلتمسون نصيحتهم . وكانت الكنائس تزدحم إبان الشدائد بالمبتهلين الضارعين ، وإن العذراء نفسها لترى وهى تدافع عن استحكامات مدينتها المقدسة .

وكانت بيزنطة بحاجة ماسة إلى عدتها الروحية جميعاً . ذلك أنها تعتبر أساساً مدينة يسهل حصارها ، وكان ما يترتب على توقع الحصار من ثائرة مكبوتة يتجلى دائماً فى اتجاه سكان المدينة ونظرتهم إلى المستقبل . ففى كل مكان تذيع الطيرة وتنذر التشاؤم ؛ فالتماثيل الوثنية تتحدث أو تنضح بالعرق ، وتتنبأ النقوش القديمة بالمصائب الوشيكة الوقوع ؛ والأيقونات والآثار المقدسة تشفى المرضى وتدرأ سوء الحظ أو تزعج العدو اللدود بما يصيبه من موت مفاجىء . وتنتشر الشائعات الخارجة عن كل معقول ؛ فالإمبراطور ساحر ، وهو يمشى فى الليل بغير رأس وزوجته الملكة تلبسها شيطان . ويجن جنون السكان لما يحل بهم من زلازل وطواعين ؛ فهم يحملون متاعهم ويدفنون فى جوف الأرض ما غلا ثمنه من أشيائهم ثم يندفعون فى الطرقات . والعدو قريب منهم دائماً : وعلى مسافة تقل عن ثلاثين ميلا

يقوم السور البرى العظيم ، الذى ظل الناس موقنين أمد فترات طويلة من الزمن أنه ليس من الحكمة الخاطرة بتجاوزه . وكم من جماعات خرجت للصيد ولم تعد عند المساء ؛ وكم من قرية ودير وبيت ريفى حول العاصمة اشتعلت فيه النيران فى أثناء الغارات المتعاقبة . وما القسطنطينية الإبرج يمتد بارزاً فى آسيا ، معرضاً لموجات الحشود البربرية التى تتوالى عليها من السهوب العظيمة أو الفيافى العربية .

وقد اتخذت القسطنطينية فى منمنمات العصور الوسطى صورة مدينة ترتفع فيها الأبراج تحت اسم مدينة القياصرة عند الصقالبة وميكليجارث[١] عند الشماليين ، فهى فى خيال الغربيين ، يغمرها ضياء الشمس . غير أنها من وجهة النظر الشرقية ، تعد دائماً مصدر النحس والشرور . فإذا عصفت السماء التمعت القباب ، وامتلأت الأسوار بالحراب ؛ ووقفت أمام التحصينات صفوف طويلة من خيام الآقار ، وأخذ الفرسان العرب يثيرون الرعب فى السهول المقفرة . وتضيق فى كل آن حلقة الخناق البربرى القاسى ، وهم يتحرقون شوقاً إلى انتهاب « المدينة التى تهفو إليها قلوب العالمين »[٢] .

---

(١) انظر هـ . ج . ولز « معالم تاريخ الإنسانية » للمترجم ج ٣ ص ٨٤٢ من الطبعة الثانية . (المترجم)

(٢) انظر قسطنطين الرودسى فى (Rev. des. Et. Grecques ع ٩ (١٨٩٦) ص ٣٨) .

الفصل الخامس

جستنيان والغرب

توفى جستين فى (٥٢٧) وخلفه فى الحكم جستنيان ابن أخيه ، بعد أن ظل سنوات عديدة الحاكم الفعلى للإمبراطورية . كان جستنيان رجلا متوسط القامة نحيل الجسم ، وكهلا فى منتصف العمر يغلب الصلع على رأسه وإن بقيت فيه شعرات مموجة وخطها الشيب ، وله وجه أحمر مستدير ، واشتهر بالبشاشة ولين الجانب وهدوء الطبع . كان شديد الدأب على العمل ، بالغ الاهتمام بتفاصيل الأشياء ، درج على أن يعد خطط ما ينفذه من حملات إلى الجهات النائية ، وما تجرى عمارته من القلاع بإفريقية ، وإعداد البرنامج الدقيق لكل ما يمارسه القنصل من ألعاب ، وتنظيم كل ما يدور من جدل حول وجوب الصيام فى عيد الصوم الكبير . وغلب على سلوكه الدائم الوقار والاتزان وضبط النفس، غير أنه يفتقر فى بعض الأحوال إلى المبادرة والإقدام ، إذ ظهر ضعفه الشديد فى أثناء ثورة نيقا ، وأكبر شاهد على ما اتصف به من التردد ما كان لثيودورا ويوحنا القبادوقى عليه من تأثير — فإنه كان شجاعاً ولكنه متوسط الذكاء Une âme de valeur plutôt médiocre على حد قول ديهل .

ومع ذلك فإن ما أنجزه هذا الرجل من جلائل الأعمال قد أكسبه لقب جستنيان الأكبر . ويذكر له التاريخ أنه المشيد لكنيسة القديسة صوفيا وواضع أساس القانون الأوربى ، وهو الذى استرد الممتلكات الرومانية من

عمودى هرقل[1] إلى نهر الفرات. فالسيادة الرومانية (Imperium Romanum) عنده هى سر نجاحه. إن ذلك الفلاح المقدونى استطاع حين اتشح بالأرجوان، أن يضع أسس العظمة التى اشتهر بها أولئك الحكام الكماة، الذين بذلوا من الجهود الفائقة ما أبقى على الإمبراطورية طوال خمسة قرون[2]. وكانت تتركز فى يد القابض على زمام الإمبراطورية جميع سلطات الكنيسة والدولة والقانون والجيش والإدارة. كان مسئولا عن رفاهية رعاياه، سواء أكانوا فى الأقاليم الشرقية من الدولة أم فى الأقاليم الغربية، التى نيط الحكم فيها فترة من الزمن بملوك الجرمان، باعتبارهم نواباً عنه. كان الحامى للكاثوليك جميعاً داخل الإمبراطورية كانوا أو خارجها، وكان العدو اللدود لكل الهراطقة والوثنيين. هذه هى النظرية التى تنطوى عليها كل أعمال جستنيان. إذ إن جمع القانون الرومانى إبقاء على التعبير عن الحضارة التى تخلفت عن أيام الجمهورية، وتعزيز المركز الدستورى للإمبراطور بوصفه مصدراً للقانون (Fons iuris). وكانت المراسم المحكمة التفاصيل داخل البلاط ترفع من شأن المنصب الإمبراطورى، وإن النقوش المدونة على مبانيه التى توافرت بكل أرجاء الإمبراطورية وإطلاق اسمه على مدن عديدة لتسجل للأجيال التالية عظمة جستنيان ومجده. ورأى الإمبراطور أن لا بد من تطهير الجهاز الإدارى، وليس ذلك فقط لأن الإمبراطور يدين لرعاياه بواجب حسن الرعاية، بل أيضاً لأنهم يجب أن يكونوا فى وضع يمكنهم من أداء الضرائب الفادحة التى لا بد

---

(١) عمودا هرقل هما الصخرتان العظيمتان اللتان تحرسان مدخل البحر المتوسط وهما جبل طارق وجبل سبتة (المترجم)

(٢) انظر ف. و. بيل فى (Constit. Hist. of the Rom. Emp.) ج ١ ص ٢١٧. « فأما العامل نفسه فإنه عند توليه العرش، فقد الكثير من شخصيته كثيرة الأهواء، وأصبح وريثاً لروما ومجرد مفسر بسيط لسياستها الخالدة على الأيام ».

من إنفاقها على مشروعاته التوسعية . وفى قمة هذه المشروعات ، ما كان يراود جستنيان من حلم كبير ، وهو استرداد أقاليم الإمبراطورية الرومانية — إفريقية وإيطاليا وأسبانيا ، فضلا عن غالة وبريطانيا . ويضطر الإمبراطور إلى إهمال تخوم الدانوب والحدود الشرقية ، إذ يسحب منها الجنود لتقوم بالحملات فى الغرب . وينزل سوط الاضطهاد والنفى بإقليمى مصر وسورية صاحبى مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysite) فينفر قلوب الناس فيهما منه ، على حين يمد بعونه البابوية وكاثوليك إفريقية وإيطاليا . وتتحطم الولايات بكل من الشرق والغرب بما فرض عليها من ضرائب لا تطاق ابتغاء تزويد الدولة بالمال اللازم للجيوش والقلاع ، وفضلا عن ذلك يزحف على الدولة من جديد الفساد والرشوة وابتزاز المال تحت ظل إفلاسها . ومن اليسير أن نوضح ما شمل البلاد حتى نهاية حكمه الطويل من سوء حال : حيث فرغت الخزائن وتضور الفلاحون جوعاً وتضاءلت الجيوش وأخذ الغرب ينفصل عن الدولة جزءاً جزءا ، والشرق يتهدد ويتوعد وتجردت الإمبراطورية من كل وسائل الدفاع بينما إمبراطورها الشيخ الفانى لا يعنى إلا بالمنازعات اللاهوتية ، كما أنه من اليسير كذلك القول بأن سياسة جستنيان جلبت الكوارث على البلاد ، وأن موارد البلاد لم تكن لتكفى إلا لحماية حدى الدانوب وفارس . ذلك كله حق لا نزاع فيه ؛ ولكن ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن جستنيان لم يحمل هنا من صفاته وخلاله إلا العيوب والمساوئ . ذلك أن « عصر بيزنطة العظيم » الذى حفر لها أثراً خالداً على قوانين أوربا وفنونها ، إنما يرجع إلى أفكار جستنيان عن الإمبراطورية الرومانية التى اقتضت استعادة الغرب ، وزعامة الكنيسة الكاثوليكية ، فضلا عن وضع القانون ، وإنشاء كنيسة القديسة صوفيا .

الإمبراطورة ثيودورا

والإمبراطورة ثيودورا تمثل أعجب نقيض لزوجها . اشتهرت بحب الترف والتعالى والغطرسة وحب السيطرة والميل إلى الانتقام ، وكانت بعيدة النظر لا تحفل بالمثل والمبادئ ، فسيطرت باستمرار على تفكير جستنيان وقراراته من طريق الإقناع أو بالتآمر والدسائس . ويمكن التعبير عنها بلغة عصرنا الحديث بأنها امرأة واقعية وأنها ممن يعتقدن فى العمل المباشر ، وأنها قوة نافذة تقابل ما عرف عن جستنيان من الميل إلى التوسع ، ومن الخطط التفصيلية المحكمة التى يرسمها على الورق . ومن المستحيل أن تقرر مدى الصدق الذى يكمن وراء الفضيحة التى يرددها بروكوبيوس بإسهاب ولذة عظيمة فى كتابه « النوادر Anecdota » . وكيف أن لها ابناً غير شرعى ، وكيف كانت تهتم بكل ما يتعلق بالاتجار فى أعراض النساء ، كما أن ميولها نحو مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح تتفق دون ريب مع الحقائق الرئيسية الواردة فى القصة بأنها كانت بغيا فى بيزنطة ، ثم فى الإسكندرية فأنطاكية ، حيث وقعت تحت سلطان زعماء ذلك المذهب . ولعل فى إلزامها لرجال البلاط السجود أمامها وجعل ذلك من المراسم ، وفى الوقاحة المتعمدة التى كانت توجهها إليهم ، تعويضاً وانتقاماً لنفسها من المعاملة المهينة التى لقيتها من أبناء طبقتهم .

ظلت ثيودورا حتى وفاتها فى ٥٤٨ تشارك جستنيان فعلا حكم الإمبراطورية . وكان ذوو الحظوة لديها هم وحدهم الذين تولوا مناصب ولاة المدن وقادة الجند والبطاركة والبابوات . أما أعداؤها فكانوا يعزلون أو يقضى عليهم ؛ بل إن يوحنا القبادوقى نفسه ذا القوة والسلطان ، لقى جزاءه

آخر الأمر . كانت تمتلك ضياعاً عظيمة ، وتحصل منها على دخل ضخم ، تمكنت بفضله من إعداد جهاز سرى يخضع لسلطانها ، بل لقد كانت يبلغ بها الأمر أحياناً أن تحبط أعمال وكلاء الإمبراطور وعلائه دون أن يفوتها مع ذلك أن تصالح جستنيان وتسترضيه فيما بعد . ولعل أهم أعمالها وأبرزها نفوذها الماثل على السياسة الشرقية . ومن ثم فمن الطبيعى أنها كانت تميل إلى الكنيسة المونوفيزية الآخذة بمذهب وحدة الطبيعة ، وبلغ بها الأمر يوم أُديل من تلك العقيدة وتعرضت هذه الكنيسة للاضطهاد على يد بيزنطة ، أن آوت إليها قساوستها ورهبانها ؛ ولكنها كانت أوضح من جستنيان إدراكاً للخطر السياسى الذى تتعرض له المملكة إذا اضطرت الأقاليم الرئيسية آسيا وسورية ومصر إلى التمرد بسبب اضطهاد عقائدها . وبفضل مشورتها انتهجت الدولة فى أنسب الأوقات خطة التسامح والتنازل التى كانت ضرورية لمنع وقوع هذه الكارثة .

فتح إفريقيـــة

وبدأ فتح الغرب فى (٥٣٣) عندما أقلع بليساريوس أبرز قواد الإمبراطورية إلى إفريقية على رأس عشرة آلاف من المشاة وما يقارب خمسة آلاف من الفرسان . وذهب معه المؤرخ بركوبيوس ناصحاً ومشيراً ، فترك لنا رواية تفصيلية عن الحملة . وكان السبب الذى اتخذ ذريعة للحرب ، هو أن هيلدريك الملك الوندالى الضعيف ، الذى كان يميل إلى بيزنطة والكاثوليكية قد نحاه عن العرش جيليمر ، الذى كان يمثل الحزب المعادى لبيزنطة . وظهرت حجة أخرى مماثلة عندما حان غزو إيطاليا ؛ وامتدت المماثلة والمشابهة أيضاً إلى سير القتال . فنى كلتا الحالتين ، تبين أن الانتصارات السريعة

الأولى ليست ثابتة دائمة ، فلم يكتمل الفتح إلا بعد سنوات اشتد فيها القتال اضطراباً وارتباكاً . ففى إفريقية ، كان كل شىء فى صالح خطة جستنيان الجريئة. فإن أسطول الوندال وشطراً كبيراً من قواتهم قد توجه قبل فترة وجيزة إلى سردينية لقمع فتنة نشبت بها . فهبطت الجيوش البيزنطية دون صعوبة على الساحل الإفريقى وزحفت على قرطاجة متخذة طرقاً ظليلة ، وهى تعسكر ليلا بين حدائق ذات بهجة . واستقبلهم السكان الرومان بالترحاب . وكانت قوات الوندال تتألف من الخيالة الخفيفة ، والواضح أن الخطط الحربية السليمة تقضى هنا بالالتجاء إلى حرب العصابات إزاء خيالة خصومهم المدرعة ومشاتهم بطيئة الحركة . ولكن الملك جيليمر آثر الاشتباك مع أعدائه فى معركتين حاشدتين . وانتصر بليساريوس فى كل من المعركتين رغم ارتكابه أخطاء خطيرة ، ولم ينقض زمن طويل حتى كانت قرطاجة فى قبضة يده ، وحتى كان الملك الوندالى الذى جعل منه بروكوبيوس شخصاً رومانسياً ، متقلب المزاج عجيباً ، قد سلم نفسه لينقذ أتباعه من مكابدة الآلام . وبدت الأمور وكأنما قد انتهى كل شىء ؛ فترك بليساريوس جيشاً صغيراً لاحتلال البلاد . ثم عاد إلى بيزنطة يمتع نفسه بما حازه من النصر ، وقد حمل معه نبلاء الوندال ، الذين اتخذ منهم كتيبة من الفرسان رابطت على الحدود الفارسية . واتخذت شتى الوسائل لإعادة الأحوال القديمة بإفريقية إلى نصابها . فأوثر رجال الدين الكاثوليك بكل حظوة ورعاية ، بينما تعرض للاضطهاد الدوناتيون والأريوسيون والوثنيون . وتقرر أن يسترد أصحاب الأملاك من الرومان أراضيهم ومزارعهم ؛ ولكن الدعاوى القانونية التى مضى عليها قرن كامل كانت تنطوى على صعوبات خطيرة . يضاف إلى ذلك أن التذمر ما لبث أن

ظهر عندما تجلى للناس أن كل ما يؤدونه من الضرائب ويسهمون به فى إيرادات الإمبراطورية ، هى السبب الرئيسى فى اهتمام جستنيان بهم .

على أن الأيام كانت تختزن للولايات الإفريقية متاعب بالغة العنف . فبينما كانت الميداليات والنياشين تصنع بالقسطنطينية ابتهاجاً بالفتح ، وتتردد فى أرجاء ميدان السباق أناشيد النصر ، كانت تهدد قوة الرومان بإفريقية هجمات شيوخ البربر ، الذين دأبوا على الخروج من صياصيهم الجبلية فى غارات للنهب والتخريب . على أن سولومون القائد البيزنطى نجح آخر الأمر فى ردهم بل إنه تعقبهم فى التلال ، غير أن خطط القتال عند البيزنطيين (وهم قوم كانوا يحاربون دائماً وفق قواعد معينة) لم تكن صالحة لقتال هؤلاء الخيالة الخفاف والمغيرين الذين يركبون الإبل . وظاهر أن الدروع الثقيلة التى كانت لدى الجيوش الرومانية لم يكن الغرض منها إلا الدفاع لا الهجوم ، وترتب على التوسع فى استخدام القسىّ ، أن اشتد عكوف الرومان على القتال من مسافة بعيدة ، وهى حال لم تعد عليهم — بطبيعة الحال — بأى تحسن فى روحهم المعنوية . فذاع العصيان بين الجند وتوالت حوادث التمرد ، حتى لقد اضطر القائد العام فى بعض الأحيان إلى الفرار لينجو بحياته . غير أنه تعاقب على قيادة الجيش الرومانى من الأبطال أمثال سولومون وجرمانيوس ويوحنا التروجلى ما هيأ للدولة الرومانية أن تتغلب على تلك الأزمات ، وبفضل ما هو معروف بين شيوخ البربر (Moors) ، من الشقاق بسبب ما تفشى بينهم من عداوات وثارات دائمة ، لم يتيسر لهم القيام بعمل متحد ، ولذا فإن السلطة الإمبراطورية استتب لها الأمر بصورة مستديمة فى (٥٤٨) وأخلدت إلى الراحة آخر الأمر الأقاليم التى تعرضت للنهب والخراب .

وإن بروكوبيوس ليروح فى فقرة قوية وردت فى كتابه «التاريخ السرى» ينعى على فتح إفريقية ، أنه تكلف على حد قوله خمسة ملايين من الأنفس ولم يؤد إلا إلى فقر البلاد وخلوها من السكان وجعلها فريسة لغارات البربر وتعريضها للضرائب الفادحة الطاحنة والاضطهاد الدينى والعصيان العسكرى . وهناك من الدلائل ما يحملنا على الظن بأن فى هذه الصورة شيئاً من المبالغة . فالخرائب الكثيرة المتخلفة عن المدن الفاخرة التى لا تزال باقية إلى اليوم بتلك المنطقة تشهد ـ بما حوت من أسوار وسقايات يرجع الكثير منها إلى تلك الفترة ، — بما كان عليه جستنيان من بعد النظر . ولا شك أن قلاع الحدود تسترعى الاهتمام لا فى حد ذاتها فحسب باعتبار ما تعرضه من مظاهر القلاع فى ذلك العصر ، كالخندق والحصن والفناء والأبراج الجانبية الواقية للجناح وفتحات الرماية — وكلها ترتبط عادة باستحكامات العصور الوسطى ، ولكنها أيضاً تسترعينا باعتبارها جانباً من نظام دفاعى ضخم يمتد إلى منحدرات جبال أوراش ومرتفعات نوميديا ، وفى مناطق مسورة يلوذ بها الفلاحون فى أثناء غارات البربر . ولا تزال الكنائس والأديرة الفسيحة الواقعة فى داخل البلاد تحتفظ بطراز الباسيليكا الرومانى الذى تزينه الزخارف البيزنطية ، على حين يغلب التأثير اليونانى فى المناطق الساحلية، كما أنه ترك آثاره واضحة على التيجان الرقيقة للأعمدة والزخارف الجانبية . أما الأرضيات المصنوعة من الفسيفساء فإنها تصور بألوان مشرقة انفعالات ميدان السباق وأزياء الزمان ، ويتجلى نشاط الكنيسة فى شدة ازدهار المجامع الكنسية ووفرة الأدب أعنى المؤلفات المتعلقة بالمناظرات الدينية . وتدل البقايا الكثيرة للضياع وأعمال الرى ومعاصر الزيت ، على ما اشتهرت به البلاد من الخصوبة الواسعة الانتشار . ولعل خط الساحل فى إقليم طرابلس إلى طنجة ، قد بدا فى عين الغزاة المسلمين بعد

هذا الزمن بقرن ، كأنما هو بستان واحد مستديم تناثرت فيه المساكن المتباعدة .

عوامل ضعف القوط الشرقيين

على أن التدخل الإمبراطورى فى إيطاليا جاء فى الوقت المناسب . وذلك أن التوازن الذى خيم على دولة ثيودوريك الثنائية قضت عليه وفاة تلك الشخصية العظيمة التى كانت ترفع بيدها ميزان الأمور . وتولت ابنته أمالا سونثا الوصاية على ابنها البالغ عشر السنوات ، والذى تولى العرش عقب وفاة جده . وتمخض حكم المرأة عن مشاكل ما لبثت حتى عجلت بانهيار نظام ثيودوريك . فإن تربيتها الرومانية جعلت المقاتلين القوطيين يرتابون فى أمرها ، على حين أن بيزنطة استخدمتها ، أداة وألعوبة فى سياستها الإمبراطورية ، بل لعلها لم تحفل بها عند وفاتها . ونظراً لأنها كانت تعد العرش حقاً خاصاً لأسرة آمال ، فإنها صممت وابنها لا يزال حدثاً تحت الوصاية أن تحتفظ بالعرش لو مات الصبى ؛ ولكنها كغيرها من أبناء شعبها كانت ضعيفة الإحساس بالوحدة القومية ، فلم تتردد قط فى التفاوض سراً مع جستنيان عندما أصبح مركزها حرجاً .

ومن الحقائق التى ترشدنا فى هذا المقام أن كل من تعاقب على العرش من زعماء القوط أمثال : ثيوداهاد وويتيجيز وهلديباد وإيراريتش وتوتيلا — كان يعد علاقاته بالإمبراطور أمراً شخصياً بحتاً ، لا يختلف فى ذلك عن ثيودوريك مقدم الجند شبه المستقل ، فى مساوماته مع الإمبراطور زينون قبل خروجه لفتح إيطاليا . ولكنهم كانوا فى الحين نفسه يرجعون بصورة

متناقضة غير منطقية إلى التسوية التى عقدت مع أناستاسيوس[١] معتبرين إياها نوعا من الأساس القانونى لدولة رومانية قوطية . وقد فاتهم تماماً أن مركز ثيودوريك الذى لم يتحدد قصداً لم يحفظه فى الواقع سوى المحالفات الكثيرة التى عقدها مع الدول الأجنبية ، فضلا عن الوفاق والانسجام الدينى والسياسى الذى ساد فى الداخل ، وبذلك تهيأ له أن يواجه بيزنطة بجبهة وطيدة . غير أن ارتفاع شأن قوة الفرنجة ومؤامرات الكاثوليك وتذمر طبقة رجال السناتو قد قوضت هذا البنيان فعلا قبل وفاة ثيودوريك .

ولما لم تستطع أما لاسونتا الصمود تلقاء معارضة القوط ، صممت على أن يشركها فى العرش ابن عمها ثيوداهاد ، وهو طراز آخر للبربرى ذى الطابع الرومانى الطامع وإن يكن أعجب شأناً . كان ثيوداهاد شغوفاً بفلسفة أفلاطون ميالا إلى الهدوء والسلام ، وكان لديه عدا ذلك نزعة تسلطت عليه تماماً ، هى الحرص على امتلاك الأراضى . لقد كان على استعداد تام — كما أكد ذلك لجستنيان فى مفاوضات تالية — لأن يتنازل عن إيطاليا فى مقابل الحصول على مزرعة ومنصب فى البلاط الإمبراطورى . وسجنت أما لاسونتا بأمره بجزيرة وسط بحيرة بولسينا ، حيث تم إعدامها بعد ذلك . وكانت تلك هى إشارة بدء الهجوم البيزنطى . إذ تقرر غزو إيطاليا براً من جهة دالماتيا ، وبحراً من إفريقية . ففى (٥٣٦) استولت قوة إمبراطورية على سالونا عاصمة دالماتيا . على حين قاد بليساريوس جيشاً تقارب عدته ٧٫٥٠٠ رجلا . ولا شك أن قلة عدد قواته شىء يسترعى الانتباه ، وذلك بالنظر إلى أهدافه ومنجزاته الكبيرة . ولكن قلة العدد كان يعوضها إلى حد كبير التنظيم الفائق والخطط

---

(١) انظر ص ١٢٤ .

الاستراتيجية التى تقوم بها جموع البرابرة غير المتماسكة . على أن قلة العدد منعته من الناحية العملية من الاشتباك فى معركة حاشدة، وهذا هو العنصر الذى تحكم فى طبيعة الحرب التى تلعب فيها القلاع والحصارات دوراً بارزاً .

فتح إيطاليا

وفى هذه الظروف تجلت عبقرية بليساريوس العسكرية فى أعلى ذراها . كان المثل الأعلى للجندى المحترف ، فكان شجاعاً فى ساحة الحرب واسع الحيلة فى أساليبه ، فتعلق به الجند على اختلاف عناصرهم فى أثناء حملاته فى القارات الثلاث ، ولهذا السبب ذاته كان جليل القدر عند جستنيان ، إذ لم تكن له مطامع سياسية ، ولم ينحرف قط عن ولائه للعرش . ومع ذلك فقد أثار نجاحه في نفس الإمبراطور شبهات قوية ؛ فقتر عليه فى الرجال والمال . ولقى من حاسديه من زملائه فى القيادة كل شر وعناء ، وكانت الحاسة السياسية لديه ضعيفة ، فأوقعه ذلك فى أخطاء جسيمة ، كما أن انقياده لزوجته أنطونينا ، الصديقة الحميمة للإمبراطورة ، قد ورطه فى المؤامرات المعقدة التى كانت تحاك بالقصر . ولذا فإنه قصر دون بلوغ مرتبة البطولة الحقة . على أنا لو وازنا بين حدوده وعيوبه ما خفى منها وما ظهر ، بما حققه من أعمال رائعة لتبين أنه كان بحق أعظم قائد فى زمانه .

سقطت صقلية دون تسديد رمية واحدة ؛ إذ كانت حاميات القوط فيها ضعيفة لا تكاد تفى باحتلالها ، كما أن أصحاب الأملاك فيها استقبلوا الجيوش البيزنطية بالترحاب . وكانت نابولى حاضرة القوط فى كامبانيا هى الهدف التالى للقوات البيزنطية . فلم تلبث أن أذعنت للهجوم بعد حصار مثير ، ولم يخل الأمر من بعض الأحداث المؤسفة ، إذ كان سكانها ــ وهم من التجار ــ

أقل استعداداً من صقلية أو بروتيوم الإقطاعية للترحيب بالقوات الإمبراطورية، التي يبدو أن من كان بها من هون وإسوريين وصقالبة ، كانوا يمشون الخوف فيهم أكثر من القوط .

وفي تلك الأثناء استبد اليأس والفشل بالملك ثيوداهاد ، — فسعى للتفاوض مع الإمبراطور ؛ على أن انتصار جيوشه في دالماتيا دفعه إلى نبذ العرض الذي أسلفناه إليك ، ومن ثم لم تسفر المباحثات بينهما عن أية نتيجة . وكان سقوط نابولي هو الذي قرر مصيره المحتوم . إذ خلعه الجيش القوطي ، وانتخب مكانه ويتيجيز أحد قواد ثيودوريك . وكانت المستقرات القوطية الرئيسية تقع بشمال إيطاليا ، فبادر ويتيجيز إلى الانسحاب إلى رافنا لينظم قواته بعد أن ترك روما مفتوحة للبيزنطيين ، فاحتل بليساريوس المدينة (روما) . وقضى شتاء عام (٥٣٦ — ٥٣٧) في عمارة الأسوار المتخربة ، إدراكاً منه لأهمية التمسك بالعاصمة ، رغم ما تراءى لكثير من الرومان ، من سخافة الفكرة التي تجعل جيشاً مؤلفاً من خمسة آلاف رجل يتولى الدفاع عن محيط مدينة يبلغ اثنى عشر ميلا من هجمات جيش يفوقهم في العدد عشر مرات أو عشرين مرة . وإن قصة الحصار ليست إلا سلسلة من الأحداث الجذابة المثيرة ، التي تبدأ بفرار بليساريوس على جواده الأشهب كلون الحديد ذي الغرة البيضاء ، من الخيالة الذين تعقبوه ، ووصوله أمام أسوار المدينة ، التي أبت أول الأمر أن تفتح أبوابها لذلك الراكب المسربل بالدم والنقع[1] . واستشرت الخيانة والرعب في الداخل . وأوشك القوط أكثر من مرة أن ينفذوا إلى المدينة ، بأن لجئوا إلى نقطة ضعيفة ، أو عمدوا إلى الزحف أسفل بهو الأعمدة

---

(١) النقع هو غبار الحرب كما في البيت المشهور . (المترجم)

بكنيسة القديس بطرس ، فيردم أعداؤهم بمهاجمتهم لهم بالتماثيل المحطمة المنتزعة من مقبرة الإمبراطور هادريان . واستمات بليساريوس فى الدفاع حتى وصلته الأمداد المتأخرة ، وفى مارس (٥٣٨) رفع الحصار عن المدينة بعد أن دام سنة كاملة . فأضحى الطريق وقتئذ ممهدا لقيام بليساريوس بزحف جديد ، وهوجمت معاقل القوط المنيعة بوسط إيطاليا ؛ ولم تنته سنة (٥٣٩) حتى أطبقت الجيوش البيزنطية على رافنا . وتلى ذلك قصة عجيبة ، توضح بقوة أخلاق القوط والبيزنطيين . ذلك أن جستنيان لما شعر باحتمال نشوب الحرب بينه وبين فارس ، أظهر استعداداً لمنح القوط شروط الصلح ، بأن يترك لهم الاحتفاظ بما يملكونه من الأراضى الواقعة شمال نهر بو . على أن بليساريوس أبى أن يتجرد من نصره فرفض التصديق على الاتفاق . وغضب القوط لذلك وجزعوا إذ وجدوا أنفسهم بلا أرض يستقرون فيها فعرضوا عليه التاج ، وقبل ويتيچيز التنازل عن عرشه . وقبل بليساريوس العرض ، ولكنه ما كاد يدخل رافنا حتى أظهر ما كان يضمره من الخيانة . وأسقط فى يد القوط ولم يعد فى إمكانهم أية مقاومة بعد ذلك . واقتيد ويتيچيز وحاشيته أسرى إلى بيزنطة . وأضاف جستنيان إلى ألقابه ، لقب ملك القوط (Gothicus) أيضا ، وأرسل من قبله والياً پرايتوريا ليتولى الحكم فى الإقليم الذى استرده ، على حين نقلت معظم القوات إلى الشرق .

وكان ما عقب ذلك من أحداث يعد فى رأى بيزنطة مجرد عصيان . بيد أنه كان عصياناً عارماً جداً . واحتاج رد إيطاليا إلى الطاعة إلى أربعة عشر عاماً من الحرب الشعواء . إذ إن القوط بزعامة توتيلا المشهور بصلابة الإرادة استطاعوا أن يجعلوا سلطان بيزنطة فى شبه الجزيرة الإيطالية ، ظلا لا يتجاوز

ما كان لهم من حاميات بالمدن الساحلية والمعاقل المتفرقة . وكان هدفهم هو بسط سيطرتهم على السهول ، وبهذه الطريقة يضمنون لأنفسهم الحصول على الجزية . التى تؤدى إلى الخزانة البيزنطية . وفى الحين نفسه عمد القوط بمهارة إلى الإفادة من كراهية الشعب لليونانيين وتحويله إلى جانبهم ، فساندوا صغار الفلاحين على سادتهم . وكان أصحاب الأملاك الذين تجردوا من أملاكهم ورجال الدين الكاثوليك الذين كانوا يؤيدون نظام الطبقات ، يعدون توتيلا طاغياً وزنديقاً . أما الفلاحون الذين تخلصوا من كثير من أعمال السخرة الإقطاعية (Corvées) التى كانت تناط بهم ، فإنه هبط عليهم كنقذ أرسلته العناية الربانية . ولم يكن بوسع الجيوش البيزنطية الصغيرة أن تلتقى به فى ميدان القتال ؛ وتعرضت روما للسقوط والاسترداد مرتين . وبعد قتال يائس لم يشتبك فيه الرومان إلا بوسائل ضئيلة حدث آخر الأمر أن تقرر استدعاء بليساريوس ، فكان ذلك اعترافاً صريحاً بالإخفاق . وفى (٥٤٩) رأس توتيلا رسمياً حفلة ميدان السباق بروما ، وبدأ فى تجديد مبانى العاصمة ، بينما أغارت أساطيله على شواطىء دالماتيا للنهب والتخريب . « فأضحى الغرب بأكمله فى قبضة البرابرة » . على حد قول بروكوبيوس .

وإذ بلغ الأمر هذا الحد قرر جستنيان أن يرسل للمرة الأخيرة ، من القوات ما يكفى فعلا للقيام بحملة حربية . ولعل الذى حفزه على ذلك ، المهاجرون الرومان أصحاب النفوذ القوى فى بلاطه . واستطاع القائد المحنك نارسيس الخصى بعد أن تعطل فى دالماتيا أن يتجنب فى سهولة ويسر ما أقامه توتيلا من استحكامات دفاعية ، بأن اتخذ الطريق الساحلى إلى رافنا . وكان الجانب الأكبر من جيشه مؤلفاً من البرابرة اللومبارديين

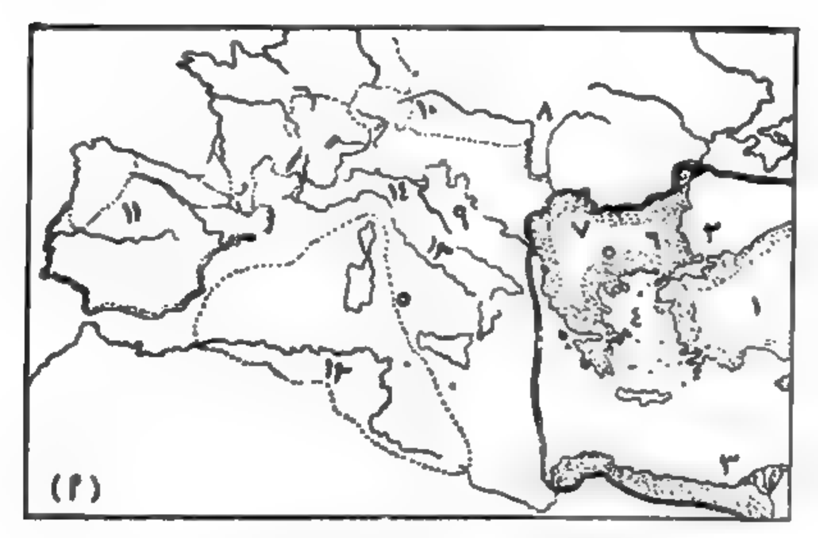
والميرول والهون ، وكانوا من وفرة العدد ما يكفى لمواجهة العدو فى الميدان ، بل امتازوا على العدو بما كان لنارسيس من دراية بالفنون العسكرية . وعند ذلك أصبحت المعركة الفاصلة وشيكة الوقوع . وسارع توتيلا من روما لقتاله ، فهزمت القوات القوطية هزيمة ساحقة فى معركة كبرى قرب بوسطا جاللوروم (٥٥٢) بجبال الأبينين . ولقى توتيلا مصرعه . ووقف القوط وظهورهم إلى السور واستماتوا فى القتال ، غير أن حاميات جنوب إيطاليا استسلمت فى (٥٥٥) ؛ وصمدت برسكيا وفيرونا حتى (٥٦٣) بفضل مساعدة قوات من الفرنجة .

ويقول مؤرخ ساذج إن نارسيس أعاد إلى إيطاليا « سالف مرحها وسرورها Pristinum Gaudium » . وإن « القرار التنظيمى » الذى أصدره جستنيان فى (٥٥٤) إنما هو محاولة متعمدة منه لرد عقارب الساعة إلى الخلف، فإن لم يكن الرد إلى (٤٧٦) فهو على الأقل إلى ما قبل المدة التى انتزع فيها توتيلا أملاك أصحاب الأراضى وحرر من لديهم من موالى الأرض (Serfs) . ومنذ تلك اللحظة استقر فى راڤنا نائب إمبراطورى Exarch له القيادة العليا على الإقليم كله ؛ وتقرر الاستغناء عن كل الموظفين والمدنيين وتعيين غيرهم ، واعتقد جستنيان أنه بفضل جهوده قد تم إرجاع البلاد نهائياً إلى سيرتها الأولى . غير أن ما فعله كان فى الواقع شيئاً يختلف عن ذلك اختلافاً بليغاً . ذلك أنه بتدمير قوة القوط أزال الحاجز الوحيد الذى يمكنه الوقوف فى وجه حشود اللومبارد البرابرة ، الذين تدفقوا على إيطاليا بعد موته ببضع سنوات .

بندكت أسقف نورسيا

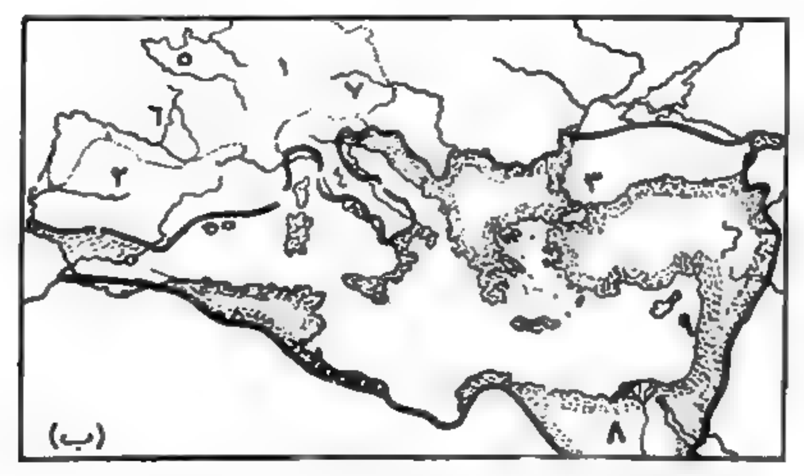
على أن عمال الخراج عند جستنيان أتموا ما حل بالبلاد من الخراب والدمار . إذ خلت المناطق الريفية من سكانها وتداعت المدن . وصارت روما بعد أن سقطت خمس مرات فى أثناء هذه الحروب مكاناً قفراً ، انتشرت به الأطلال والخرائب . وولت تجارة روما ، فصار لزاماً على سكانها منذ ذلك الحين ، أن يعتمدوا فى معاشهم على صدقات الحجاج وإحسانات البابوية . وتوقفت السقايات ، وبطلت الحمامات العامة ، على حين أن سهل كامبانيا الخصيب لم يلبث أن تحول إلى ربوع موحشة ومباءة للملاريا ظلت تحيط بالمدينة حتى الأزمنة الحديثة . وزال كل أثر لما كان معروفاً فى الماضى من «الخبز والملعب». إذ إن آخر ما جرى من الألعاب كان فى عهد توتيلا . وقرر جستنيان آخر الأمر منع إرسال الميرة المجانية من القمح إلى روما . واختفى القناصل ومجلس السناتو رويداً رويدا . وهاجر كثير من النبلاء إلى بيزنطة ، تاركين قصورهم للخراب والأطلال .

وزحفت على إيطاليا كلها ظلال الاستسلام والتبلد . ولم يبق للرجل الذى يأنس إلى الحياة الهادئة ما يأمله فى هذا العالم . ولم يعد له من ملاذ يلجأ إليه غير الدير ، وسرعان ما انتشرت ببلاد الغرب قاعدة الديرية التى وضعها بندكت النورسى والتى سدت هذه الحاجة ، فحلت محل القاعدة القديمة التى سبق انتقالها من مصر إلى أديرة جنوب فرنسا . ومع أن قاعدة بندكت نقلت من القواعد السابقة لها قدراً كبيراً ، فإن ما انطوت عليه من روح إذلال النفس ، والحياة المعتدلة المنظمة ، جعلها شديدة الاختلاف عما كان سائداً



(أ) خريطة الإمبراطورية الرومانية فى عام ٥٢٦ م

١ ـ الإمبراطورية الرومانية ٢ ـ القسطنطينية ٣ ـ الإسكندرية
٤ ـ أثينا ٥ ـ سالونيكا ٦ ـ أدرنة
٧ ـ نيش ٨ ـ اللومبارد ٩ ـ مملكة القوط الشرقيين
١٠ ـ البفاريون ١١ ـ مملكة القوط الغربيين ١٢ ـ الوندال
١٣ ـ روما ١٤ ـ رافنا



(ب) خريطة الإمبراطورية الرومانية من ٥٣٢ ـ ٦٠٠ م

١ ـ مملكة الفرنجة ٢ ـ مملكة القوط الغربيين ٣ ـ القسطنطينية
٤ ـ مملكة اللومبارديين ٥ ـ بريتانى ٦ ـ بوردو
٧ ـ الآلامان ٨ ـ مصر ٩ ـ بيروت

---

(٧) فتوح جستنيان

بإقليم طيبة من التنسك الفردى ، الذى اتسم بالحماسة وروح المنافسة . إذ أجازت قاعدة بنيدكت للمريدين قدراً كافياً من الطعام والنوم والرياضة واللباس ، ولم تستلزم جهداً مفرطاً من الناحية الفكرية أو الجثمانية . ولم تكن ظهرت بعد صنوف الخدمات التى قدمها البنيدكتيون المتأخرون[1] فى حقول التعليم والزراعة والبناء . ومع ذلك فقد أدخل كاسيودوراس نسخ الكتب فى دير أسكويلاس الذى أنشأه فى أواخر أيامه ، ولا شك أن شغفه الشديد بالأدب الكلاسيكى وحبه للسان اللاتينى النقى الآخذ نقاؤه فى الزوال ، قد احتفظ للأجيال القادمة بشعر فرجيل وهوراس، وتغرشيشرون وكوينتليان، فضلا عن ذلك المزيج الممتاز من الفكر والأدب العتيق الذى قدمه لقراء العصور الوسطى كل من لاكتانتيوس وجيروم وأمبروز وأوغسطين . والظاهر أن أتباع بنيدكت قد عادوا بعد وفاته بقليل إلى نسخ الكتب ؛ وإن لم يكن بنيدكت نفسه وهو الملقب بالعالم بالفطرة والعاقل بالموهبة (Scienter Nescius et Sapienter ind octus)[2] ممن يشجعون القيام بذلك . إذ الواقع أن جوهر قاعدته هو السكوت المطلق (Summa Quies) . وهى حقيقة يمكن العثور عليها (نقلا عن الإيقاعات الفنوية الفائقة التى اختتم بها نيومان فقرته الذائعة الصيت) فى قول بنيدكت لا شىء يستحق الإعجاب (Nil admirari) ؛ وفى إغفال كل ما فى الدنيا من الخوف والرجاء ؛

---

(١) إن الدوم كثبرت بتلر يميز فى O.S.B. بوضوح بين فكرة بنيدكت الأصلية وبين التطورات التالية التى ألمت بها فى (Benedictine Monachism) الطبعة الثانية فى ٣ لندن ١٩٢٤ .

(٢) Greg. Dial. ii. Praef.

وفى الصلوات اليومية وفى القوت اليومى وفى العمل اليومى ، إذ لا يختلف يوم عن آخر ، إلا فى كونه أقرب من سابقه بخطوة إلى ذلك « اليوم المشهود » الذى سوف يبتلع الأيام جميعا ، وهو يوم « الراحة السرمدية » .

اضمحلال روما

على أن نجاح جستنيان فى مغامرته بالغرب اكتنفته بعض ظلال قاتمة . فإن الفتوح الباهرة التى أحرزتها قوات لاتتناسب وإياها مطلقاً ، كانت تقف قبالتها وتنقض من شأنها ضروب شديدة من الضعف والمخاطر . وجملة القول ، إن قبضة بيزنطة على البحر المتوسط الغربى كانت قبضة دولة بحرية . فإن الدولة وإن تخلت عن الولايات الغربية بإفريقية ، لم تبرح تسيطر على المدن الساحلية التى فى يدها حتى مضيق جبل طارق . واستردت من القوط الغربيين المدن البحرية الواقعة بجنوب أسبانيا . وكان إقليم بروفانس عند ذاك فى أيدى الفرنجة ، واقتصرت ولاية إيطاليا على شبه الجزيرة وحده ، فلم تعد رايتيا (Raetia) ونوريكوم فى أيدى الرومان . وترتب على الفتوح الوندالية أن انضمت جزيرتا كورسيكا وسردينية إلى إفريقية ، بينما صارت صقلية تحت سلطان الإمبراطور مباشرة . ودل سير الحرب القوطية على ما سوف يحيق بأجزاء إيطاليا الداخلية من مصير ، إذ لم تكن القوات الإمبراطورية كافية لحماية تلك الأجزاء من غارات أهل الشمال ، ولذا لم يلبث أن تألف منها بعد زمن قصير الدوقيات اللومباردية . على أن المناطق المحيطة بالبندقية ورافنا ونابولى وروما فضلا عن جنوب كالابريا ظلت تابعة لبيزنطة ، كما أن الحكومة الإمبراطورية (الأرجوانية) فى رافنا لم تزل من الوجود

إلا بعد قرنين من الزمان[١] . ومما يدل على ازدياد أهمية هذه المدينة ما حفلت به من كنائس رائعة يعود تاريخها إلى تلك المدة . على حين أن نتائج الأحداث التى استمرت نصف قرن ، والتى حولت روما ، أعظم مدن الغرب مجداً إلى مدينة إقليمية مضمحلة متداعية ، وإلى تابع ذليل لمنافستها الشرقية بيزنطة ، تتجلى بقوة فى التباين الشديد بين ما فى الفسيفساء فى حنيات كنيستى القديسين كوزماس ودامیان (حوالى ٥٣٠ م .) من رسوم بالغة الروعة وشديدة الأثر ، وهى تعتبر الصورة النهائية للفن الرومانى فى قرون عديدة ، وبين ما فى فسيفساء القديس لورنزو فيورى لومور (حوالى ٥٨٠) من مناظر مستوية مجردة من الحياة . والراجح أنها من إنتاج صناع بيزنطيين يقلون رتبة ومهارة . أما البابوية نفسها فإنها فقدت كل استقلال . فقد عوجل أحد الأحبار بالعزل ؛ وحمل آخر إلى القسطنطينية قسراً ليلقى الإهانة والسجن[٢] . ذلك أن خلفاء جستنيان واصلوا العمل بخطة « السيادة الدينية للقيصر aesaropapism » التى رسمها ذلك العاهل ، حتى إن البابا جريجورى الكبير ألفى نفسه مضطراً إلى المبالغة فى مداهنة الطاغية فوقاس . ومع ذلك فإن سلطة الكنيسة كانت فى ازدياد مطرد ؛ إذ تزايد ما كان يمارسه أساقفتها من سلطة دينية ؛ وتوافرت الأموال والضياع المحبوسة عليها . وكان للكنيسة نظام دائم ، فكان بوسعها أن تنتظر حتى يكتمل إعداد الوسائل اللازمة لبسط النفوذ البابوى فى أوربا الغربية ، وهو العمل الذى تم على يد البابا جريجورى .

---

(١) قيل « إن ممتلكات الإمبراطورية واللومبارد بإيطاليا بلغ من تداخلها أنه لم يعد فى الإمكان قيام وحدة قومية » . ومن هنا كان الفتح البيزنطى مسئولا إلى حد ما عن ضعف الشعور القوى ، الذى كان له أثر كبير فيما تلا ذلك من تاريخ إيطاليا .

(٢) انظر ص ١٩٩ ، بعنوان مذهب الطبيعة الواحدة .

الفصل السادس

جستنيان والشرق

الإصلاحات الإدارية

من المعلوم أن جستنيان اتبع فى الغرب سياسة هجومية ؛ بينما حرص على أن تكون أهدافه دفاعية فى الشرق . وكان يرى ضرورة صيانة الاستقرار على الحدود بإنشاء مجموعات هائلة من الأسوار والقلاع ؛ فإن أعيته الحيل مع البرابرة وجب شراء رحيلهم بالمال . أما الاستقرار فى داخل الإمبراطورية فكان فى رأيه لا يتحقق إلا بالإصلاح الإدارى . فإن هذا الإجراء فضلا عن تقليله من فرص الفوضى ، لا بد أن يحقق لجستنيان موارد مالية بالغة الأهمية ، بازدياد رضاء السكان وتحسين الجهاز المالى . والواقع أن جستنيان لم يقصد التضحية برفاهية رعاياه فى سبيل سد حاجياته المالية . وتقوم فلسفته على ما يلتزمه الإمبراطور (الحاكم) والشعب نحو الإمبراطورية من واجبات متبادلة ، بوصفهما الركنين اللذين تتألف منهما الإمبراطورية ، فالإمبراطور يتولى الغزو والفتح ، بينما يلتزم السكان مساندته فى ذلك .

وقد بدأ جستنيان إصلاحاته بإصدار مرسومين عظيمين فى (٥٣٥ م) . فصدرت تعليمات تفصيلية عن تنظيمات كل ولاية بمفردها ؛ والمقام لا يتسع هنا لغير المبادئ الأساسية . ومن أبرز المساوى فى عهده رسوم التوظف (Suffragia) التى كان على الموظفين أن يدفعوها لكى يحصلوا على وظائفهم والتى هى فى الواقع رسوم للوظيفة أو ثمن مدفوع . وكانت نتيجة ذلك

اضطرارهم إلى تعويض أنفسهم عما دفعوه بابتزاز الأموال وقلة الأمانة بجميع أنواعها . وكان كل الجهاز الإدارى ، ابتداءً من الوزراء الكبار بالعاصمة إلى أصغر شرطى وجندى بالأقاليم،طافحاً بالرشوة والفساد . فهرع إلى القسطنطينية حشود من أصحاب المظالم . ولم يكن الموظفون المركزيون يستطيعون الحصول على أية معلومات صادقة عن الحكومة المحلية بالأقاليم ، فإذا جرت محاسبة الموظفين على تصرفاتهم التمسوا العذر فيما يتطلبه تأدية رسوم الوظائف من مقتضيات . والآن أبطل الإمبراطور هذه الحجة ؛ فلم يعد الموظف يؤدى عند الالتحاق بالوظيفة إلا رسوماً خفيفة . وصدرت أوامر صارمة لتطهير النظام الإدارى . وصار لزاماً على الولاة أن يكونوا ذوى « أيد طاهرة » — وهذه العبارة تردد ورودها كثيراً كأنما هى لزمة ثابتة (Leit-Motif) فى كل ما صدر من مراسيم . وتحتم عليهم توفير العدالة المتكافئة للناس جميعا ، وحماية رعاياهم من عنف العسكريين أو مما يبتزه صغار الموظفين من الأموال ؛ وحفظ التوازن بين الغنى والفقير ، والتزام العدالة فى احترام حقوق الكنيسة والدولة بدرجة متساوية . غير أن واجبهم الأول هو « أن يعملوا على زيادة إيرادات الخزانة ، وأن يبذلوا كل جهدهم فى الدفاع عن مصالحها » . وكانت الأوامر تعزز بيمين رهيبة ، كان على كل حاكم جديد أن يقسمها ؛ فإن أخفق فى أداء واجبه ، تعرض « لشدائد يوم الحساب الرهيب ، واستحق مصير يهوذا ، وبرص جيجزى والفالج الذى أصاب قابيل » . وأُدخلت تبسيطات هامة فى الجهاز الإدارى ببعض أجزاء الإمبراطورية . وضمت الأقاليم حتى جعلت وحدات أكبر واختفت الأقسام الإدارية (Dioceses) . وكانت السلطات العسكرية والمدنية توحد فى بعض الحالات—وهو تغيير يعد إرهاصاً بالألوية (الثيمات Themes) التى ظهرت فى التاريخ البيزنطى . وتقرر أيضاً

تبسيط الإجراءات القانونية ؛ فتيسر تقديم الالتماسات إلى حاكم الإقليم ، غير أن التقدم بالشكوى رأساً إلى القسطنطينية أحيط ببعض الصعوبات . وقد كفلت هذه الإجراءات تحقيق السرعة فى القضاء المحلى ، على حين منعت اشتداد الضغط على محاكم العاصمة .

وكان جستنيان يرجو بهذه « الأفكار الفاخرة » أن يكون هيأ للدولة « عصراً جديداً زاهراً » . غير أن أحداث السنوات التسع والعشرين التالية أثبتت خطأ ظنونه . وأكبر شاهد على ذلك معاودة تجديد المراسيم سنة بعد أخرى طوال تلك المدة وتكرار ما بها من التهديدات والاتهامات بلا نهاية . لقد كان الوضع ميئوساً منه جملة وتفصيلا . ويعود السبب فى ذلك إلى النظام نفسه من ناحية ، وإلى السياسة الإمبراطورية من ناحية أخرى . فإن جهاز الحكومة الهائل المعقد ، الذى تغلغل فيه الفساد قروناً عديدة ، كان بمثابة مقاومة شديدة لكل إصلاح ، كما أن ازدياد حاجة جستنيان المستمرة إلى المال ، كان من القوة بحيث يمنع كل إصلاح .

وتفيض كتابات المعاصرين بذكر ألوان الشقاء التى كان يقاسيها رعايا جستنيان التعساء . فإن لكل ولاية قصصها التى ترويها عما حل بها من مظالم ، وعن الظالمين المعروفين بالسمعة السيئة . وكانت تدور فى الأسواق حول هؤلاء الرجال مجموعات لا آخر لها من الحكايات والقصص . فنها أن يوحنا « المنتفخ الأوداج » حاكم آسيا أهان الأسقف ، وما زال برجل شيخ حتى دفعه إلى الانتحار واغتصب أبناء الأعيان . واشتهر يوحنا « المقص » بإيطاليا بمهارته فى قرض العملة . وفى العاصمة نفسها استحدث يوحنا القبادوقى ، حينما كان رئيسا للإدارة المالية ، غرفة التعذيب فى سراديب

مقره الرسمى يزج فيها كل ممتنع عن دفع الضرائب ، على حين أن تريبونيان، وهو وزير العدل ، كان يتجر علناً فى أحكام المحاكم . وكلما زادت الحاجة تقرر فرض ضرائب جديدة ؛ وأضيفت الاحتكارات والتعريفات الجمركية إلى الأعباء التقليدية المتمثلة فى ضريبة الأرض ، فضلا عن الضرائب المتعلقة بنقل الجنود وإمدادهم بالطعام[1] . على أن مدن آسيا الصغرى التى استقرت أحوالها ، وازدهرت تجارتها فى أثناء القرن الماضى ، فهيأت للإمبراطورية فى الشرق أن تتجنب الإفلاس الذى اجتاح الغرب ، — أخذت تحس الآن بالوطأة التامة لمطالب جستنيان : — ذلك بأن بلاد البلقان تعرضت للخراب والنهب على أيدى الصقالبة والهون ، وألحقت غارات الفرس الخراب بسوريا ؛ فلم يعد بوسع الحكومة أن تبتز مزيداً من الخراج من هذين الإقليمين . وعلى الرغم من كل شىء لم تكن الموارد كافية : حتى لقد انتهى الأمر بذلك الحكم الطويل إلى إهمال القلاع وتأخير أعطيات الجند ، وإلى تخفيض حاميات الثغور* ؛ ثم تم إغلاق حلقة الفساد المزعجة على عنق الدولة ، حينما التزمت الإمبراطورية ، وقد تجردت من كل وسائل دفاعها أن تؤدى لجيرانها البرابرة من الجزيات والإعانات المالية ما زاد فى خراب اقتصادياتها الزائفة .

قوانين جستنيان

على أن ما اشتهر به جستنيان من الميل إلى النظام والاتساق ، وجد فى مجال التشريع منفذاً صالحاً . وكان الواجب المطروح بين يديه ضخماً هائلا ، كما أن العمل الرائع المنجز كان جليلا حقاً مع وضع ما لقيه من الصعوبات

---

(١) انظر ص ٢٦ بعنوان دقلديانوس وقسطنطين .

* الثغور : كما ورد فى المعاجم : هى المواضع التى يخاف العدو منها ، أى هى مناطق الحدود .[المترجم]

موضع الاعتبار . وكان القانون الرومانى يتكون من مجموعتين تعرفان عادة باسم القانون القديم (Ius vetus) والقانون الجديد (Ius novum) . وكان القانون القديم يتألف أساساً من قوانين ولوائح الجمهورية والإمبراطورية الأولى، ومن مراسيم السناتو فى أثناء الفترة نفسها ، ومن شروح الفقهاء المعاصرين . واجتمع من كل ذلك خليط هائل : وكان بعضها بعيد المنال لا سبيل إلى الوصول إليه ، وبعضها الآخر قد أصبح مهجوراً ، ومن ثم كثر ظهور التضارب والتناقض وصار من اليسير الاستناد إلى رأى فقيه آخر ، ومن هنا لم يعد القاضى ولا المحامى يشعر بالاطمئنان إلى أن رأيا غريباً قد لا يظهر أمامه فى المحكمة فيقلب حججه رأساً على عقب . أما القانون الجديد فاحتوى على أوامر الأباطرة فى الأزمنة التالية . وهنا أيضاً يفتقر الأمر إلى الصدق واليقين، فربما صح أن يبطل مرسوم مرسوماً آخر ، إذا لم تجتمع حتى وقتذاك مجموعة كاملة من المراسيم . غير أن هذه المشكلة أكثر يسرا من المسائل الأخرى . ففى السنة التالية لتولى جستنيان العرش (٥٢٨) ، بدأ عمله العظيم بتعيين لجنة مؤلفة من عشرة أعضاء لمراجعة القانون الجديد (Ius novum) ، وإزالة ما فيه من متناقضات وزيادات ، وجمع أثمن ما تبقى فى مجلد واحد مؤلف من عشرة كتب — وكان هذا هو المعروف « بمجموعة جستنيان القانونية » (Codex Iustinianus) الشهيرة ، وكان نجاح اللجنة مشجعاً للإمبراطور على المضى إلى القانون القديم (Ius vetus) . فتألفت لجنة جديدة فى (٥٣٠) لمعالجة ما يدخل فى دائرة عملها من قدر هائل من الدراسات القانونية ، التى تتألف مما لا يقل عن ألفى بحث . وكان على اللجنة أن تختار من بين كتابات جميع الفقهاء المعترف بقدرهم نصاً واحداً للقانون عن كل نقطة ؛ وكان عليها أن تغير عبارات المؤلف كلما تطلب الوضوح ذلك أو دعت إليه مقتضيات

الزمان . ومن نتائج هذه العملية ظهور الخمسين كتابا التى تحوى ما يسمى الموجز القانونى (Digest or Pandects) ، وهو أهم كتب القانون التى شهدها العالم ، لا فى حد ذاته فقط بل فى الأثر الذى خلفه فى جميع التشريعات التالية . على أنه معرض للنقد من وجوه عدة . ذلك أن العمل تم فى سرعة ، ولم يكن الترتيب والتنظيم مثالياً . وهو ليس فى الواقع تقنيناً أى إخضاعاً للقوانين السابقة لقاعدة منتظمة . وإنما هو أقرب إلى بعض مبانى ذلك العصر ، التى كانوا يعمدون فيها إلى ما اشتهر به عصر متقدم من الرسوم الدقيقة الغائرة أو البارزة ، فيزجون بها بين الأحجار الخشنة ومبانى القرميد التى غلب عليها طابع العجلة ، لكى تكون أحجارا عادية بحتة فى مبنى قبيح . ولا شك أن أجل ما عبرت به روما عن نفسها وعن عظمتها يصح التماسه فى فن التشريع . فما اتسمت به صيغها القانونية من الرشاقة ، وما اتشحت به حلولها من الروعة والجمال ، أشياء لا سبيل إلى مباراتها . ولكن علماء القانون فى القرن السادس لم يكتفوا بتلخيص ما أورده أسلافهم المشهورون ، بل أغفلوا كل ما استعصى عليهم فهمه من تفسيرات حاذقة ، وتعرضت العبارات الجوهرية للحذف والتشويه ودخل فى النظام الرومانى أفكار هلينستية وشرقية .

وربما لم يكن هناك مفر من وجود هذه المعايب . إذ لا سبيل إلى أن يتحقق فى زمن جستنيان وأحوال عهده ، ما يفوق القوانين التى صدرت . على أنها بحالتها الراهنة ، إنما هى تعبير كامل عن الحقبة . وهى فى إصرارها على استخدام اللغة اللاتينية والإفادة من التراث اللاتينى وفيما تضمنته من مبادئ عن الحكم الاستبدادى للإمبراطور ، إنما تنظر إلى ما خلفه القياصرة

من قبل من سجل حافل . وهى بما يتجلى فيها من زيادة السمات الإنسانية ، ومن اعترافها بحقوق الفرد وما تفرضه من قيود على السلطة الأبوية (Patriapotestas) ، إنما تسجل الشوط الطويل من التقدم الذى قطعه التفكير القديم وظهر تأثير الكنيسة واضحاً فى ازدياد صرامة القوانين المتعلقة بالطلاق والاعتداءات الجنسية .

ولكى يتم جستنيان عمله التشريعى أصدر « الشرائع Institutes » ، وهو كتاب تعليمى ابتدائى وضع ليستخدمه الطلبة . وتقرر أيضاً إعادة تنظيم دراسة القانون ، فصدرت لوائح تنظيمية تفصيلية للجامعات الكبرى الثلاث فى روما والقسطنطينية وبيروت . فلم يترك الإمبراطور شيئاً تتحكم فيه الصدفة أو يلم به التغير . وحظرت السلطات الأفراد من إصدار شروح جديدة للقوانين ؛ وحتمت أن تكون جميع الترجمات حرفية . ولم يعد التشريع مباحاً إلا للإمبراطور نفسه . ومن سخريات الدهر العجيبة ، أنه على الرغم من الإصرار على أن تكون اللاتينية هى اللغة ، فإن معظم هذه القوانين الأخيرة صدرت باليونانية ، حتى « يحسن الأهالى فهمها » ، على حين أن العقوبات مهما اشتدت ، لم تستطع الحيلولة دون ظهور فيض من الشروح والتفسيرات اليونانية للموجز القانونى (Pandects) والدساتير التى لا سبيل الى تبديلها .

وفى الغرب ، لم يكد الناس يحسون بالأثر المباشر لمجموعة قوانين جستنيان . إذ لم يكن القانون الرومانى معروفاً إلا عن طريق القانون الذى أصدره قبل ذلك بقرابة ثلاثين سنة ألاريك ملك القوط الغربيين ، ولم يكن إلا مصنفاً عملياً وضع ليستخدمه رعاياه فى غالة وأسبانيا، وفيه وفق المشرع بمهارة بين المفاهيم القانونية الرومانية البسيطة وبين ظروف الزمان والعرف القبلى

لدى القوط . ولم يشرع الناس فى دراسة مجموعة قوانين جستنيان دراسة منتظمة فى بروفانس ولومباردى ورافنا وبولونيا إلا فى أثناء القرن الحادى عشر. على أن القانون الرومانى لم يقتصر تأثيره فحسب على المناطق التى يغلب على سكانها الطابع الرومانى ، بل امتد أيضاً إلى ما استلزمه نمو التجارة ودعاوى الكنيسة وانتعاش الفكر القانونى من فروق بالغة الدقة ، ومن أنماط منطقية أكثر . وقد أصبح القانون فى الأزمنة التالية سلاحا قوياً فى يد كل أمير طموح أو أسقف جشع ، يحاول الاعتداء على قيود الإقطاع باتخاذه لنفسه ما كان لإمبراطور كجستنيان من الامتيازات الاستبدادية .

الوثنيون والهراطقة

ولعل الاستبداد الذى عنه نتحدث قد تجلى فى أعظم صورة فى فلك الكنيسة ، حيث أدى إلى ما يسمى أحياناً باسم « الاستبداد الروحى الدنيوى » . ولم يقنع جستنيان بتنظيم الكنيسة بما أصدره من تشريعات مفصلة؛ إذ كان يعمد فى المنازعات المذهبية إلى أن يستخدم إلى أقصى حد حقوقه كإمبراطور فى عقد المجامع الدينية وتعيين الحدود العقائدية وكان وزراء الإمبراطور يرأسون الجلسات ، وكان الرسل ينطلقون من القصر وإليه ، وإذا كان بالقرار شوء من الشك ، لجأ الإمبراطور فى بعض الأحوال إلى التدخل بشخصه .ومع أن الكنيسة والدولة كانتامنفصلتين من الناحية الرسمية[1] ،فالواقع أنهما كانتا شيئاً واحداً ، هذا إلى أن الاعتبارات السياسية كانت الرائد الأساسى لجستنيان على طول الطريق الذى قادته فيه من قبل مصالحه

(١) القانون الجديد ، ٦ ، Praef (عام ٥٣٥ للميلاد) .

اللاهوتية . وكانت « وحـدة الإمبراطورية » فى المقام الأول بين هذه الاعتبارات ؛ ولا تتحقق الوحدة إلا بوسيلتين : القوة والمصالحة . ولو تأملت المعاملة التى كان يلقاها المراطقة لوجدتها تجمع بين الطريقتين ، وتعتبر فى الوقت ذاته مثالا للوسيلة التى اختلطت بها الأمور السياسية والاعتقادية فى السياسة الإمبراطورية . فالمعروف من الناحية النظرية أن المتهرطق إنسان فقد كل ماله من حقوق ، العامة منها والخاصة . قال الإمبراطور : « من العدل أن نحرم من متاع الدنيا كل من لا يعبد الإله الحق » . ولـكن الواقع المعمول به ، هو أنه كان هناك كثير من الفروق والدرجات . فمن اليسير سحق كل الهرطقات التى ليس لها أهمية سياسية . فـكان الموت هو العقوبة الوحيـدة للمانويين ؛ وكانت العادة فى شأنهم أن يحرقوا أحياء . أما الوثنية وهى ، فى جل شأنها ، بقايا ضئيلة لخرافات متناثرة ، فـكانت تؤخذ بالشدة . على أن المعتقدات القديمة كانت لا تزال متوطنة فى الأودية المنعزلة والمدن المنقطعة على التلال ؛ فنى بعلبك مثلا كانت مناسك عتيقة سحيقة القدم لا تزال تقام بمعبدها ، كما أن أمون المشترى كان لا يزال يدلى بنبوءاته فى الصحراء الليبية ، على الرغم من تراجعه إلى واحة صعبة المرام ، حيث كان يعبد فيها مع الإسكندر الذى أضحى آنذاك إلهاً . وقد حول هذا المزار المقدس إلى كنيسة القديسة مريم ، وتحول أيضاً معبد إيزيس بجزيرة فيلة إلى كنيسة مسيحية . ولم يبرح للوثنية أنصار بين الطبقة المتعلمة ، ولذا تعرضوا للقوانين الصارمة . فلم يعد يجوز لهم الميراث ، أو إبرام العقود : وحرم عليهم تولى أى منصب ، إلا ما يعد توليه عقوبة فى حد ذاته مثل عضوية مجالس المدن (Curia) . وأسفرت التحريات بالقسطنطينية عن كثرة الوثنيين بين ذوى المـكانة ، كالأطباء وأساتذة الجامعات ، فتعرض كثير منهم للجلد والسجن .

وفى فلسطين كان اليهود قد فقدوا مركز عصيانهم . وخضعوا رغم احتجاجهم للمراسيم التى أصدرها الإمبراطور بتنظيم متون كتبهم المقدسة ؛ على أن السامريين — وقد أثارتهم الضرائب الباهظة ، وفدحتهم اضطهادات المسيحيين لهم — عمدوا إلى إشعال الفتنة فوق رءوس ثلالهم ، فأثخنت حيالهم من الإجراءات التأديبية القاسية ما كاد يفنيهم . وفى الغرب ، كانت الاعتبارات السياسية أبرز من هذا قليلا . إذ تقرر حرمان الدوناتيين بإفريقية من ممتلكاتهم وكنائسهم : فكانوا من ثم صفاً واحداً متحالفاً مع القوى المناهضة للإمبراطور . وكان رجال الكنيسة الأريوسية منظمين تنظيما قوياً ، وكان جستنيان ميالا إلى الإبقاء عليهم على شريطة أن يعتنقوا العقيدة السليمة المقررة ، ولكن كراهية الكاثوليك لهم كانت حادة لا تلين بعد الذى لاقوه منهم من شديد العناء ، خاصة وأن البابا كان يؤيد هؤلاء الكاثوليك . ولقد استجاب جستنيان لمطالبهم بالانتقام من الأريوسيين . وفى إيطاليا ساعدت عوامل أخرى على الاستيلاء على كنائس الأريوسية . واتخذت ميولهم نحو القوط ذريعة يتعلل بها أعداؤهم ، كما كانت ثرواتهم الضخمة حافزا لحسام الناهبين .

مذهب الطبيعة الواحدة

وكان لأنصار مذهب الطبيعة الواحدة (Monophysites) وضع مختلف تماماً . فإنهم كانوا يسمون حتى (٥٤١) باسم « المترددين » ، وكان جستنيان يناقشهم بالمنطق بوصفهم إخواناً خاطئين . ثم واخذهم بعد ذلك بإجراءات بالغة الشدة ، غير أنه كان دائما يلوح لهم بالوفاق . وكانت المشكلة جوهرية الأهمية لسلامة الإمبراطورية . فمن جهة كانت مدن الطبيعة الواحدة القوية الموفورة الرخاء تقع بمصر وآسيا الصغرى ، اللتين تعتبران العمود الفقرى

لميزانية الإمبراطورية . ومن جهة أخرى استقرت المعارضة الكاثوليكية بالقسطنطينية ، ويتزعم الجميع البابا — تؤيده الغالبية العظمى من أساقفة الغرب . على أن الاحتفاظ بولاء الشرق وتبعيته ، بعد أن تهددته فعلا المصالح المتضاربة والعداوات القومية ، دون ضياع تأييد الغرب الذى تم فتحه حديثاً ، كان يعتبر عملا عسيراً ، ربما كان لا رجاء فيه . ومهما تكن الحال ، فإن سياسة جستنيان المعقدة لم تكن غير جديرة بإمبراطور عظيم . ولقى جستنيان فى هذه السياسة مساندة صادقة من ثيودورا المعروفة بميولها نحو مذهب وحدة الطبيعة . وأظهرت السنوات الأولى من حكمه أنه كان على استعداد للتراجع عن الموقف الكاثوليكى المتطرف الذى اتخذه جستين . وتوقف اضطهاد أنصار الطبيعة الواحدة (Monophysites) فى (٥٢٩) وأعيد المنفيون . وفى (٥٣٢) انعقد مؤتمر فى بيزنطية . غير أنه أخفق فى التوفيق بين الفئتين ؛ ولكن جستنيان لم يفقد الأمل ، وإن شعر أن الحكمة تقضى بإصدار مرسوم يعلن تمسكه بالعقيدة الرسمية السليمة رغبة منه فى طمأنة البابا . وفى (٥٣٥) كان نجم أصحاب الطبيعة الواحدة فى صعود . وتعين أحدهم وهو أنثيميوس أسقفاً للقسطنطينية ، فبادر إلى الاتصال ببطريركى الإسكندرية وبيت المقدس . وفى تلك الأثناء كان يوحنا من تلاس (Tellas) ، وهو مبشر شديد الحماسة ينشر مبادئ وحدة الطبيعة فى أثناء طوافه بآسيا الصغرى . وهرع رهبان وحدة الطبيعة إلى العاصمة ، وأقبل الناس على تعميد أطفالهم فى كنائس وحدة الطبيعة ، وفى تكريم قسوس مذهب وحدة الطبيعة الذين يحلون بهم ضيوفاً . على أن السنة التالية شهدت تغييرا كبيرا . ذلك أن البابا أجابيتوس وصل إلى بيزنطة فى سفارة من قبل القوط الشرقيين . فلم يلبث حتى أصدر قرار الحرم على أنثيميوس ، وتمكن بمناصرة الحزب الكاثوليكى من عقد مجمع دينى تقرر

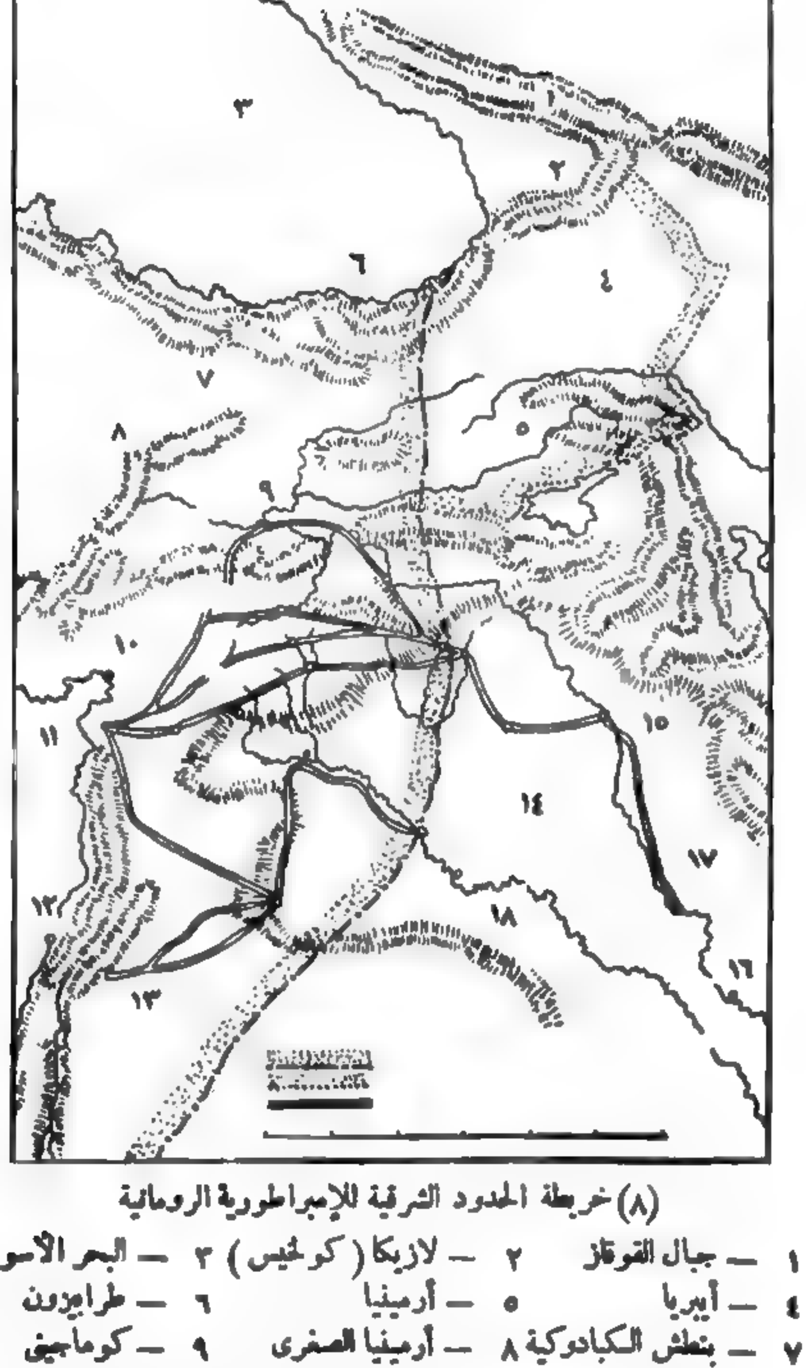
فيه خلع أنثيميوس وبعض الأساقفة ، ثم حمل جستنيان بعد ذلك على التصديق على القرار . ومن ثم بدأ الاضطهاد للمرة الثانية . وطورد رهبان وحدة الطبيعة فى سورية وأرمينية وأرض الجزيرة وحرموا من الطعام وضربوا بالسياط وأحرقوا أحياء فى الأسواق . وقبض أفرايم أسقف أنطاكية على يوحنا التلامى وأمر بإعدامه بالتعذيب البطيء . ثم مات البابا بعد ذلك بقليل ، ولكن قاصده الرسولى القدير بيلاجيوس كان يحظى بنفوذ ضخم فى البلاط البيزنطى . وحتى مصر نفسها فرض فيها الخضوع مؤقتاً لقرارات خلقدونية على الأهالى الذين مس الوجل قلوبهم .

وعندئذ قامت ثيودورا بحركة انتقامية درامية . إذ إن روما التى احتلها وقتئذ بليساريوس ، أجبرت على قبول تعيين الشماس اللين العريكة ڤيجيليوس مرشح ثيودورا بابا جديداً عليها . وانتعشت من جديد آمال جستنيان فى وحدة الشرق والغرب . واسترد حزب الطبيعة الواحدة فى بيزنطة مركزه . وقام يعقوب باراداثيوس الراهب المونوفيزيتى الدءوب ، وهو الذى تنتمى إليه الكنيسة اليعقوبية — بالدعوة التبشيرية التى سبق أن قام بها يوحنا التلامى بآسيا الصغرى ، وفاق سلفه فيما ظفر به من نجاح . ومنذ تلك اللحظة حالف الحظ أتباع الطبيعة الواحدة وازداد نفوذهم حتى وفاة ثيودورا فى (٥٤٨) . وبلغ الكفاح ذروته فى المسألة الشهيرة المسماة « بالفصول الثلاثة » التى دامت من (٥٤٣ — ٥٥٤)[١] . وبغض النظر عن المؤامرات التى ارتبطت بها هذه المسألة ، فإنها تعد مرحلة جديدة فى سلسلة الجهود الطويلة المبذولة للتوفيق بين الشرق والغرب ، والتى ابتدأت برسالة الاتحاد لزينون وانتهت بالحل الذى

---

(١) أنظر التذييل ب فى آخر الكتاب .

اقترحه هرقل وهو نظرية « تجدد الروح القدس Monergism » . ولم تلبث الأقاليم المونوفيزتية أى المؤمنة بوحدة الطبيعة أن انتقلت بعد ذلك إلى سيطرة المسلمين ، وبذلك لم يعد ثمة ما يدعو إلى مناهضة النزعات الانفصالية فى سوريا ومصر . ولا شك أن ما اتبعه الإمبراطور من وسائل لتحقيق سياسة اتحاد الدولة سياسياً ودينياً ، والتى لابد لكل إمبراطور أن ينتهجها ، يعد شيئاً جديرا بالاهتمام . واستهل جستنيان النزاع بقرار أصدره فى (٥٤٣) بإبطال « الفصول الثلاثة » . وكان يرجو موافقة البابا على تصرفه ، غير أن البابا ڤيجيليوس وقد استقر فى الكرسى الرسولى ، لم يكن ليقبل المذلة . فكان لابد من اختطافه وحمله إلى بيزنطة وتعريضه لأنواع مختلفة من التهديدات والإهانات حتى رضى فى (٥٤٨) بإنكار « الفصول الثلاثة » . وكان إصداره حكمه (Judicatum) على هذا النحو سبباً فى إثارة عاصفة من الاحتجاج بين أساقفة إفريقية ودالماتيا وإليريا ، وفى (٥٥٠) أذن له جستنيان بسحب « حكمه » على أمل النجاح فى هذا السبيل بوسائل أقل عنفا . فلما أن حبط رجاؤه ولم يتحقق منه شىء عاد فلجأ إلى القهر فعذب الإفريقيين وأساء معاملة ڤيجيليوس الذى لم يكن فى الحقيقة إلا سجيناً فى بيزنطة ، وكان ذلك عاراً وفضيحة عند المؤمنين . واشتدت العلة بالبابا ڤيجيليوس فلم يلبث فى (٥٥٤) أن أذعن ، فأعلن آخر الأمر بطلان « الفصول الثلاثة » . وعندئذ حاول جستنيان أن يفرض إرادته على الأسقفيات الغربية ، ولكن إيطاليا أظهرت العناد . وخلف ڤيجيليوس على الكرسى البابوى پيلاجيوس ، القاصد الرسولى ببيزنطة ، الذى كان تزحزح قليلا عن موقفه الكاثوليكى ليهدئ من ثائرة جستنيان.



(٨) خريطة الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية

١ ـــ جبال القوقاز	٢ ـــ لازيكا (كولخيس)	٣ ـــ البحر الأسود
٤ ـــ أيبريا	٥ ـــ أرمينيا	٦ ـــ طرابيزون
٧ ـــ بنطش الكبادوكية	٨ ـــ أرمينيا الصغرى	٩ ـــ كوماجين
١٠ ـــ كيليكيا	١١ ـــ أنطاكية	١٢ ـــ بيروت
١٣ ـــ دمشق	١٤ ـــ أرض الجزيرة	١٥ ـــ الموصل
١٦ ـــ اكتيسفون (طيشفون) المدائن	١٧ ـــ دورا	١٨ ـــ الفرات

على أن أساقفة شمال إيطاليا، وقد امتلأت قلوبهم بالغيرة والحمية لما صدر من الكرسي الرسولي بروما من اعتداءات، اغتنموا الفرصة، فقطعوا ما يربطهم به من علاقات، ودام هذا الانشقاق الصغير حتى نهاية القرن السابع.

وجملة القول أن جستنيان قد أخفق. فظل الشرق منشقاً عليه، أما الغرب فإنه على الرغم من خضوعه ظل غاضبا متذمراً. وأخذت الهمسات المنفرة بالنبور تعلو وترتفع في الآذان. وصرح فاكوندوس بإفريقية قائلا: « إن المسيح وحده هو الملك والقسيس. أما الإمبراطور فينبغي له أن ينفذ قانونات (Canons) الكنيسة وليس من شأنه أن يثبتها ولا أن يتعداها ». ومع ذلك فإن ما اتخذه جستنيان من مثل أعلى الوحدة كان عظيما: وينبغي ألا يغرب عن بالنا عند تقدير سياسته نحو الكنيسة ما يعتبر فيما يبدو أروع مظهر لها، وهو البعثات التبشيرية في الخارج، التي حملت عقيدة بيزنطة وثقافتها من وسط أوربا إلى الشرق الأقصى، وأقامت التقاليد التي استمرت طوال العصور الوسطى، ووهبت صقالبة روسيا ودول البلقان من تراث الفن والعلوم ما يضارع في أهميته ما أسدته روما للأمم الغربية من العلوم والفنون.

البعثات التبشيرية والديبلوماسية البيزنطية

ومن آثار سياسة جستنيان وتدبيره، الإفادة من التجارة والتبشير والديبلوماسية مجتمعة. وأكثر ما يظهر ذلك في بلاد الغرب حيث تصادف قيام أوجه شبه عجيبة بين السياسة البيزنطية وبين السياسة التي تنتهجها الدول العظمى في الشرق الأدنى في العصور الحديثة. إذ امتد من دمشق إلى خليج

العقبة خط طويل من الأسقفيات ، كانت فيها بصرى والبتراء حاضرتين لمطرانيتين . ثم تجيء بعد ذلك الصحارى وساحل البحر الأحمر وبلاد الحجاز، وإلى الجنوب من ذلك بلاد حمير ، وكانت تقيم بها جاليات يهودية كثيرة ، وقد تخلى معظم الحميريين عن عباداتهم البدائية واعتنقوا العقيدة اليهودية . ورسخت قدم المسيحية فى الخليج الفارسى بعد أن انتشرت من فارس التى ازدهرت بها أسقفيات عديدة ، بل لقد تغلغلت إلى اليمن وإلى نجد داخل الجزيرة العربية . وتصادمت المصالح الفارسية والبيزنطية فى هذه المناطق بعضها ببعض ، وذلك لاهتمام كل منهما بالتجارة الساحلية والهندية . وحدث قبل انتهاء القرن الخامس بفترة طويلة ، أن بيزنطة عززت جهودها الديبلوماسية . وشجعت حاكم أكسوم (الحبشة) على المطالبة بمملكة حمير ذاتها . ثم اعتنق المسيحية ، ويرجع إلى هذا التاريخ قيام الكنيسة الحبشية التى لا تزال باقية إلى اليوم . وبفضل مساعدة بيزنطة ، امتد سلطان أكسوم على حمير سنوات عديدة ، على أن هذه البلاد كانت من البعد عن بيزنطة ما يجعل مساندتها لها ضئيلة الأثر . وفى قريب من (٥٧٠) سئمت فارس من مؤامرات بيزنطة فاستولت على تلك المنطقة (بلاد حمير) ، وظل يحكمها حتى ظهور الإسلام مندوب فارسى . ولعب المبشرون المسيحيون بصعيد مصر دوراً لا يقل عن هذا أهمية . ذلك أن بعثة مونوفيزيتية حملت النوباد وهم قبيلة بدوية شرسة على اعتناق المسيحية حوالى سنة (٥٤٠) ، ثم استخدموا لكبح جماح جيرانهم البليميين الذين هم أشد شماسا ، حتى طردوا إلى الصحراء ، فحل محلهم النوباديون على الحدود . ويبدو أن لونجينوس ، وهو شخصية جديرة بالإعجاب ، قد اجتاز تلك المناطق حوالى عام (٥٧٨) فى أثناء رحلاته التبشيرية وأوغل حتى بلغ مياه النيل الأزرق العليا . وغنى عن البيان ، أن الإحساس بالفوارق الطائفية لا يكون بالغ الشدة فى معاقل الإمبراطورية الأمامية ، وعرف جستنيان كيف يختار خير الرجال ، وكان

يبذل لأنصار مذهب وحدة الطبيعة (المونوفيزيتيين) الذين يعملون فى مجال التبشير من التأييد ما لعله كان يتردد فى منحه لهم لو كانوا أقرب إلى دياره .

لقد كان الراهب جزءاً أساسيا فى ديبلوماسيته . فكم فى بلاط بربرى أضحى فيه القسوس البيزنطيون مستشارين موثوقا بهم لدى الملك ، ومسيطرين على النساء الحريصات بفطرتهن على اعتناق دين ينطوى على الأسرار ، على حين أنه جاء فى أعقاب المسيحية ثقافة جديدة ودنيا جديدة من الأفكار . ولم تكن الديبلوماسية تعوزها أيضا الوسائل المادية. فإن شيوخ البربر كانوا يفخرون بارتداء البرنس زيا للاحتفالات الرسمية وبالتيجان والقلادات والأوسمة وأحذية الأرجوان التى ينعم عليهم بها جزاء ولائهم . ولأسباب من هذا القبيل، تقرر تعيين ملك لازيقا ببلاد القوقاز ، قائدا بالحرس الإمبراطورى . وأنعم على حكام آخرين بزوجات من العائلات البيزنطية النبيلة وكثيرا ما كان أبناؤهم يرسلون لتلقى تعليمهم فى البلاط الإمبراطورى. ثم إن الوسائل الرومانية التقليدية لم تغب عن بال القوم . فإن المنفيين السلبيين والأفراد المتنافسين والمطالبين بالعروش والمغامرين كانوا يشجعون على زيارة العاصمة ، ويزودون الدولة بحجة حاضرة تتذرع بها بيزنطة للتدخل فى الشئون الداخلية لبلادهم . وكانت الأراضى والإعانات المالية تمنح بسخاء وسرف ، ودأبت بيزنطة على أن تمارس السياسة المجربة التى تقضى باتخاذ لص للقبض على لص[1] ، فكانت الدولة تؤلب شيوخ المغاربة بعضهم على بعض . وكانت تناصر الفرنجة على القوط ، وكانت تستعين باللومبارد لكبح جماح الجبيدى ، وبالهون لمناهضة البلغار ، وبالآفار للتغلب على الهون .

---

(١) انظر ص ٩٠ ، ٩٨ ، ١١١ .

الحدود الشرقية

على أن الدفاع عن الحدود الشرقية الطويلة هيأ الفرصة لاستخدام هذه الوسائل جميعا . ومن خلف تلك الحدود كانت تقع الإمبراطورية الفارسية العظيمة ، وهى الدولة الوحيدة التى كانت بيزنطة تعاملها معاملة الند . وقد أثمرت الخصومة الطويلة الممتدة أجيالا بين الدولتين تفاهما متبادلا ، بل لقد أدت إلى نشوء اقتراحات بإقامة ضرب من « السياسة العالمية المشتركة Weltpolitik» . وقد صرح سفير فارس فى إحدى المناسبات بأن « الإمبراطوريتين الرومانية والساسانية كانتا أشبه بمنارتين تهديان العالم . ومن ثم فقد وجب عليهما أن يتآزرا بدل أن يتهاجا » . وكتب كسرى إلى الإمبراطور موريقيوس يقول : « هما العالم بمثابة العينين للإنسان » . ويتضح القارئ من عرض مختصر لجغرافية هذه المنطقة أن التضاريس الطبيعية قد قامت بدورها فى الإبقاء على خط الحدود بين الدولتين ثابتاً إلى حد ما ، وأسهمت أيضاً مثلما تفعل اليوم فى تنظيم الوسائل الكفيلة بالدفاع عن هذه الحدود . فى الشمال كانت بلاد القرم مفتاح نظام الدفاع الذى أقامه جستنيان إزاء ما يصدر عن السهوب من تهديد ، فأمعن فى تحصينها وشحنها بالحاميات . ومن هذا الموضع تفرعت خطوط التجارة ومارست بيزنطة نفوذها على جنوب الروسيا . وكان القوط بقبائلهم الأربعة (Tetraxite Goths) النازلون إلى شمال القرم مباشرة حول بحر آزوف ، قد اعتنقوا المسيحية من زمن بعيد ، وربطهم الخوف من الهون ربطاً وثيقاً بالإمبراطورية . وإلى الغرب ، بين نهرى الدون والدانوب ، ينزل الهون الكوتروجوريون ، الذى تنصر ملكهم جرود (Grod) ، بينما كان جستنيان نفسه يقف إلى جوار حوض المعمودية عرّابا له . على أن نزولهم على البحر الأسود كان مصدر خطر ، ومن ثم لقى الهون الأوتريجوريون الذين أقاموا شرق الدون ،

ويبدون أقل خطراً لأنهم أكثر بعداً ، — التشجيع من بيزنطة على مهاجمة ذوى قرباهم . وعند نهاية الطرف الشرقى للبحر الأسود ، تقع بلاد كولخيس التى رحل إليها جاسون (Jason) يوما ما طلبا للفروة الذهبية . وقد فسرت هذه الأسطورة على أنها رواية شعرية عما يجلب إلى البحر الأسود عند تلك النقطة من الهند والصين من تجارة غالية الثمن . وسواء أكان طريق القوافل مستخدماً عبر آسيا الصغرى فى ذلك التاريخ المبكر أم لم يكن معروفا ، فإنه حدث فى القرن السادس الميلادى أن لازيقا ـ وهو اسم ذلك الإقليم وقتئذ ـ كانت ذات أهمية قصوى لحراسة رأس الجسر عند أقصى نقط الاتصال شمالا بين أوربا والشرق الأقصى . وكانت تحسدها فارس التى لم يكن لها فى تجارة الحرير الضخمة إلا دور الوسيط بل إنهـا أدركت أن دورها تعرض لتهديد طريق آخر يمر فى شمال ممتلكاتها . ولأسباب مشا كلة لهذه عزم جستنيان على المحافظة على ما كان له من نفوذ حاسم على « لازيقا التابعة لنا » ، كما أسماها سبقاً منه للحوادث . إذ إن قيمتها التجارية كانت عظيمة الأهمية : لأنها كانت تزود الإمبراطورية بالفراء والجلود والرقيق وتحصل منها على الملح والخمر والقمح . وكانت من الناحية العسكرية ذات موقع يناسب الدفاع أبلغ مناسبة . وكانت بما قيض لها من جبال مكسوة بالغابات وممرات ضيقة ، تزود الدولة بحاجز يحول دون غارات الهون من الشمال ويمنع فارس فعلا من الوصول إلى البحر الأسود . وحدث فى زمن الإمبراطور جستين الأول أن ملك لازيقا قدم فعلا إلى القسطنطينية يطلب التنصير وتزوج من امرأة بيزنطية وسمح بنزول حاميات بيزنطة فى قلاعه . وواصل جستنيان هذه السياسة ، مؤيداً الملوك على النبلاء المتمردين ومناهضاً نفوذ الفرس ، وعلى الرغم من النكسات المؤقتة استطاع المحافظة على سيطرته لا على لازيقا فحسب ، بل على كثير من القبائل القوقازية الأخرى أيضاً مثل الأباجيـة (Abasgi) والهون

السابيرية الذين كانت يهدم « أبواب قزوين » ، التى كان أى مغير شمالى يستطيع من خلالها أن يهدد كلا من فارس وبيزنطة . على أنه لم يصل إلى مثل ذلك الحد من التوفيق فى إيبيريا (وهى جورجيا الحديثة) : إذ إن موقعها الجغرافى جعلها تعتمد على فارس . وفى الجنوب منها كانت الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية تسيران جنباً إلى جنب على امتداد حدود الفرات. وكانت مشكلة الفرات مصدراً لمتاعب روما مدة خمسة قرون ونصف . فهل كان الفرات حقاً خير خط للحدود ؟ الواقع أن مجراه كان بالغ الاختلاف عن مجرى نهرى الراين والدانوب ، اللذين كانا بصورة إجمالية غير مدققة — يحصران ممتلكات روما فى أوربا . أما الفرات فكان لا يجرى حول أرمينية ولا يحميها ، بل الأمر على العكس ، فإن الهضبة الأرمينية تحصر المنابع العليا لكل من الدجلة والفرات ، وبذلك جعلت وجود خط للحدود من أصعب الأمور . ومن ناحية أخرى ، كانت أراضى التخوم على الراين والدانوب مناطق زراعية ، وكانت مفتوحة للنفوذ الرومانى ، كما كان الوصول إليها من العاصمة ميسورا . على حين أن الفرات كان يفصله عن سوريا صحراء مترامية ؛ ومن ثم كان نقل الجيوش إليها أشق وأصعب ، وكانت الميزة كلها فى جانب الدولة الشرقية (فارس) ، التى كانت رحلتها إلى الحدود أقصر وطريقها إليها فى أرض خصبة ، وتوافر لديها من الطرق المؤدية ما يفسح لها مجال الاختيار . يضاف إلى ذلك أخيراً أن الفرات ، كان بدلا من الدوران حول الحدود الخارجية للإمبراطورية الرومانية ، ينساب مباشرة نحو الجنوب فى جوف الممتلكات الفارسية . ومن الجلى أن الهيمنة على النهر من المصب إلى المنبع كانت أمراً مستحيلا ، وأن روما لم تحاول أن تفعل ذلك مطلقاً . على أن الحد الجنوبى قد ثبت فعلا عند ملتق الخابور (قرقيسيا) ، وهو الموضع الذى يدخل عنده الفرات أرض الصحراء . وبذلت عدة محاولات

العثور على حلول أخرى للمسألة ، مثل اتخاذ خط دجلة مثلا ؛ ولكن لم يكن ثمة بديل صحيح سوى غزو فارس ذاتها . على أنه لم ينجح في هذا الأمر من قادة الغرب سوى الإسكندر الأكبر . ويبدو أن أوغسطس راودته تلك الفكرة يوما ما ، كما أن تراجان وجوليان وأباطرة آخرين قد اتبعوا سياسة جادة وجريئة في تلك الأصقاع . على أن الحد الشرقي ظل ثابتاً على وجه الجملة منذ نهاية القرن الرابع حتى الفتح العربي . وأدركت روما أن النصف الجنوبي من صحراء إقليم الجزيرة ، ليس في وسع دولة غربية الاحتفاظ به . أما الشطر الشمالي ، فلا محيص من المحافظة عليه ، نظراً لأن هذه المنطقة ، كان يقطعها خط عمودي يمتد من آمد على نهر دجلة إلى قرقيسيا على نهر الفرات . وكانت أرمينية مفتاح الموقف ، كما أن جغرافية البلاد أظهرت في النهاية أنها العامل الفاصل في هذه المشكلة . وهنا أيضاً حاولت كل من الإمبراطوريتين عرض حلول متنوعة ، تتراوح بين ضم أرمينيا بأكلها إليهما وبين السيادة المقنعة بأن يتولى أمرها قواد وموظفون أو أمراء تلقوا تعليمهم في العاصمة . ثم اتفق الطرفان آخر الأمر على تقسيمها[١] . ولم تحصل روما من ذلك التقسيم إلا على ربع أرمينية ، غير أنه كان أهم شطر يخدم أغراضها ، لأنه كان يشكل منطقة خلفية تمد ظهيراً قيما لإقليم بونطش القبادوق . وتؤلف في الوقت ذاته قاعدة للتحكم في لازيقا . على أن التقسيم لم يضع حداً لمؤامرات أي من الجانبين ؛ فإن أرمينية بكنيستها الزاهرة وأسواقها العظيمة التي كانت تجتذب التجار من أوربا وآسيا وبشعبها المقاتل ونبلائها الطموحين ، كانت مسرحا هيأ الفرص الوفيرة للتصادم بين مختلف المصالح وبين دهاء الدبلوماسية .

---

(١) انظر ص ٤٣ . وفي القرن التاسع أصبحت أرمينية مرة أخرى عضدة يتنازع عليها العرب وبيزنطة .

روما وفارس

ومن الجلى أن دواعى الاحتكاك لم تكن تعوز الحدود الشرقية ، كما أن الاضطرابات الداخلية كانت على الدوام مشجعة للإمبراطورية المعادية على تجديد القتال . وقد فقدت فارس هيبتها منذ منتصف القرن الخامس . إذ تنازع على وراثة العرش أمراء كثيرون متنافسون ، على حين أن البيت المالك نفسه كان يتهدده خطر الأرستقراطية ورجال الكهنوت ، هذا إلى أن الاضطرابات الدينية والاشتراكية التى أثارها أتباع مزدك قوضت الاستقرار فى البلاد . كما أن غارات السلب التى قام بها الهون على الحدود الشمالية الشرقية أثارت متاعب خطيرة . ومن ثم اتبع جستين سياسة الهجوم . فأوقف ما كان يؤديه للفرس من أموال لصيانة قلاع القوقاز وإعالتها ؛ وأخذت الدولة تعبث باللازيقيين والإيبيريين ، وقامت بهجوم صريح على نصيبين معقل الحدود الحصين العظيم . ولم يعد مفر من نشوب القتال . وشهد عام (٥٢٧) اندلاع نار الحرب الفارسية الأولى . وعاثت الجيوش الفارسية فى سوريا نهباً وتخريباً ، ولكن أضرار ذلك لم تكن بالغة ، وعندما توفى قباذ ملك فارس فى (٥٣١) وقد بلغ الخامسة والسبعين ، بادر كسرى أنوشروان الشاب الحريص على الظفر بالعرش ، بعقد صلح أبدى مع بيزنطة . ومع ذلك فإن الموقف كان قد تغير تغيراً كاملا ، إذ إن كسرى كان نموذجاً للملك الشرقى الناجح . وبفضل ما اشتهر به من النشاط والميل إلى القتال وما اتصف به من ذكاء حاد أعانه على تقدير تفاصيل التنظيم وعلى إدراك الحيل الشرقية الناجحة فى معالجة الأمور ، مد حدود إمبراطوريته فى أثناء مدة حكمه الطويل (٥٣١ — ٥٧٩) إلى نهر جيحون (أموداريا Oxus) بوسط آسيا وإلى اليمن جنوبى بلاد العرب . ثم اغتنم الفرصة التى سنحت فى (٥٤٠) . وذلك أن جستنيان جرد الحدود الشرقية للدولة

من الجند ليؤلف القوة اللازمة لفتوحه فى الغرب ، على حين سئمت لازيقا وأرمينية سيادة بيزنطة عليهما واستمرت الحرب الفارسية الثانية من (٥٤٠—٥٤٥) . وأغارت جيوش فارس على سورية ونهبت أنطاكية فى سنوات متعاقبة ، ثم احتلت لازيقا . وأحست كوماچينى (Commagene) وأرمينية وأرض الجزيرة بشدة وطأة الهجوم الفارسى . وأسفرت المفاوضات عن عقد هدنة لمدة خمس سنوات ، على أن يدفع جستنيان تعويضاً ضخماً ، غير أن القتال ظل مستمراً متناثراً فى بعض أرجاء لازيقا وبين أتباعه من العرب فى الشام . ولكن المسألة لم تحسم ، وفى (٥٥٥) عقدت هدنة أخرى ، أعقبها فى (٥٦١) سلام دام خمسين عاما ، تعهد بمقتضاه الفرس بالجلاء عن لازيقا مقابل إعانات مالية طائلة . وعلى الجملة احتفظ الطرفان بما كان موجودا من قبل من الأوضاع القائمة (Status quo antea) .

ومن العجيب أن الأساليب التى تتبعها الدول الإمبريالية بتلك المنطقة لم تتغير إلا قليلا ، فإن خطط روما وفارس الحربية ذات مشابهة عجيبة لخطط تركيا وروسيا وبريطانيا فى العصور الحديثة . ومن الأمثلة الواضحة ، ما اتخذته بيزنطة من أساليب فى معالجة شيوخ العرب بسوريا . فالحارث بن جبلة شيخ الغسانية . أصبح بمساعدة بيزنطة حاكما على دولة عربية رومانية (ليكون مساويا فى القوة والسلطان لملك الحيرة الذى كان من أتباع فارس) . وقد رفع البيزنطيون قدر الحارث المعروف عندهم باسم أريثاس — فجعلوه من البطارقة الأشراف ومنحوه إعانة سنوية ضخمة ، وصارت عاصمته بصرى مقراً لمطرانية تدخل فى دائرة اختصاصها أجزاء من بلاد العرب وفلسطين . واستخدمت فارس تلك الوسائل عينها . ولو أنك اطلعت على تواريخ أميانوس أو بروكوبيوس لتحققت أن أوجه التشابه امتدت أيضاً إلى أساليب القتال الفعلى . وإنا لنجد نفس الخطط والحيــل الحربية وفن الحصار

والاستحكامات ، بل الأسلحة متشابهة عند الطرفين . وتتجلى صنوف التشابه أيضاً فى نتائج الحملات العظيمة . فإن فتوح الأباطرة أمثال تراجان (Trajan) أوجوليان لم تستمر طويلا ، فإذا استولى الفرس على لازيقا التى تنكرها عليهم حتمية الأوضاع الجغرافية ، لا تنقضى بضع سنوات حتى يضطروا إلى إخلائها . ويغير كسرى على سورية ، ويعمل فيها الفساد حتى يبلغ شاطىء البحر المتوسط ، ويحمل معه جزءاً من الصليب المقدس . ثم يضطر إلى رده سريعاً ، وإلى طرد المغيرين من أرض بلاده . لقد تجمد الموقف بين الطرفين ؛ إذ كانت وسائل الدفاع أقوى من الهجوم ، ولم يختل التوازن بين الإمبراطوريتين إلا بعد ظهور الإسلام على مسرح الأحداث .

على أن نهاية حكم جستنيان الطويل كانت عبارة عن فترة شديدة العبوس . إذ إن ثيودورا توفيت فى (٥٤٨) ، فلما حرم الإمبراطور المسن إلهامها ، تخلى عنه ما اشتهر به من الحزم ، فأهمل شئون الإمبراطورية واستبدلها بالمناظرات والمجادلات اللاهوتية . وتغنى كوريبوس الشاعر الأفريقى الرشيد فقال عند الاحتفال بتولى الحاكم الجديد العرش « كل أفكاره كانت تدور حول السماء » فالمرسوم الأخير الذى أصدره فى (٥٦٥) يدور حول شئون الكنيسة ، كما أنه حافل بالاقتباسات من الكتب المقدسة ومن أقوال آباء الكنيسة الأول ، وهو أكبر شاهد على دراسته العميقة المستفيضة . ولم تقع منذ (٥٥٥) حروب منتظمة ، ونظراً للأزمات المالية ، ازداد تناقص عدد الجيش ، وتضاءلت كفايته . وأضحى الحد الفارسى مكشوفاً بالفعل ، ولم يعد يدافع عن بيزنطة ذاتها إلا رجال الحرس الذين ليسوا إلا حلية وزينة . وفى (٥٥٨) أخليت معاقل الدانوب من الجند . وأخذ سور أناستاثيوس الطويل يتداعى ويتحول إلى أنقاض . وأثارت مخاتلات جستنيان سخط الهون الكوتروجوريين فانثالوا إلى تراقيا ، وتقدموا إلى أسوار العاصمة . وساد الذعر فى أرجاء المدينة ،

ولم ينقذ الموقف إلا التصرفات السريعة التى بادر بالقيام بها بليساريوس الجندى المحنك . وبعد ذلك بأربع سنوات قام الآفار بهجوم مماثل لهذا فرد بمشقة كبيرة . وذلك أن النفقات الطائلة التى أنفقها جستنيان فى إنشاء المبانى وفيما شن من حروب وفى نفقة بلاطه قد استنزفت كل مافى الخزانة . فانحطت قيمة العملة وزادت الضرائب فى عددها ووطأتها . وزاد فى شقاء السكان أن رماهم الدهر بعدة زلازل خطيرة متعاقبة ، اندلع على آثارها وباء الطاعون فيهم وأخذت الخدمات العامة فى بيزنطة نفسها تنهار . ومرت بالناس فى إحدى السنين أزمة فى المواد الغذائية ؛ وفى أخرى تناقصت مياهها . وعاد الخضر والزرق سيرتهم الأولى من الفساد وبث الاضطراب فى الشوارع ، ودار على الألسن حديث مؤامرة لقتل الإمبراطور ، على حين أن شخصين متنافسين اسم كل منهما جستين أخذا يتآمران علناً على ولاية العرش .

أما جستنيان الذى بلغ وقتذاك الثانية والثمانين من عمره ، فجلس فى قصره ينتظر منيته الدانية ، وهو لا يعبأ بكل ما يدور حوله من أشياء . ففى أعماق الليل ، وبما حبب إلى الشيخوخة من ميل إلى التكرار ، وفى براعة قوية ، طفق جستنيان ومعه بعض القساوسة المسنين يتدارسون ما يشغل الناس من مشاكل مثل دفن العظام ولغز تحلل جسد المسيح وفساده .

الفصل السابع

عواقب حكم جستنيان

لم يتكشف عمل جستنيان ويتبدى انهياره السريع مثلما تبدى فى شمال إيطاليا . فإن اللومبارد انثالوا فجأة بعد وفاته ببضع سنوات فى السهول الممتدة بين جبال الألب ونهر بو، ولم يلبثوا أن امتلكوا المنطقة كلها فى زمن وجيز . والمعروف أنهم اجتازوا أوربا على مراحل من موطنهم الأصلى فى إقليم نهر الإلب . وعند نهاية القرن الخامس أضحوا السلطة الحاكمة فى هنغاريا ، ولم يلبثوا أن أصبحوا جيران روما على الدانوب بعد أن سحقوا الهيرول . وأفضى اعتناقهم للمسيحية على مذهب أريوس واتخاذهم وضعاً أكثر استقرارا ، إلى زيادة قوة الملكية ، كما هو الشأن عادة مع الشعوب الألمانية عندما كانت تتعرض على هذا النحو للمؤثرات الرومانية . على أن الثقافة التى حصلوا عليها فى هذا الموضع كانت طفيفة جداً : إذ تجلى للرومان بعد قرن كامل أنهم لم يبرحوا « برابرة » . فإن ملكهم وإن كان مطلق السلطان لم يكن أكثر من قائد حرب ينتخب للقيام بحملة واحدة . ولم يكن لديهم قضاة (Magistrates) ولا دستور ؛ وكانت عداوات الثأر ومنازعات الدم لا زالت تتحكم فيهم ، كما كانت الرابطة الحقة فى المجتمع هى رابطة العشيرة . ومنذ رحيلهم عن منطقة نهر الإلب ، لم يستقروا بأرض واحدة ما يزيد على جيل واحد ، ومن ثم كانت زراعتهم بدائية بل إنهم حتى فى هنغاريا نفسها تركوا العمل فى الحقل للأرقاء والشعوب الخاضعة ، على حين أنهم هم أنفسهم أخذوا ينهبون أراضى جيرانهم .

الغزو اللومباردى

وكان اللومبارد والجيبيد حتى ذلك الحين هم القوى الأساسية على حدود الدانوب ، على أن جستنيان تمكن من الاحتفاظ بمدينة سرميوم التى تعتبر مفتاح المنطقة ، وذلك باتباعه سياسة روما التقليدية فى تأليب الشعوب بعضها على بعض . ولكن دخول الآفار الحومة وهم قبيلة شرسة ذات أصول أسيوية هدم هذا الموقف من أساسه . فاتخذوا من اللومبارد حليف لهم ودمروا مملكة الجيبيد ، واستولوا على معظم البلاد ومافيها من غنائم . وعندئذ بات اللومبارد فى محنة مؤسفة . إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآفار ، ولم يتأت لهم الحصول على الزيادة المألوفة فى الأرض . واستبد بهم اليأس فأقدموا على مايعتبر المرحلة الأخيرة فى هجرتهم . ففى (٥٦٨) انطلقت جموع اللومبارد إلى إيطاليا بزعامة ألبوين (Alboin) ، وتزايد بمن انضم إليهم من مغامرين من أجناس مختلفة . وتصادف أن استدعى نارسيس حاكم إيطاليا إلى بيزنطة فى تلك اللحظة ، ولذا لم يبد المدافعون عن الحدود أية مقاومة فعالة فيما يظهر . فسقطت كيفيدال ، ولم تلبث منطقة فريولى أن اجتاحها اللومبارديون ؛ وغادر بطريرك أكويليا مدينته المحتوم مصيرها وفر إلى مستنقعات جرادو . واحتفظت القوات الإمبراطورية بمدينتى بادوا ومانتوا حيث صمدوا عند خط نهر بو ، وحالوا دون انثيال اللومبارد إلى الساحل الشرقى ؛ ولكن ضاعت منهم فيشنزا (Vicenza) وفيرونا ، فانعزلت منطقة الحدود فى جنوب التيرول عن رافنا . وبعد ذلك بسنة دخل ألبوين مدينة ميلانو ، ثم توصل فى النهاية إلى الاستيلاء على بافيا بعد حصار طويل فأصبحت عاصمة اللومبارد . فانفصل بذلك شمال إيطاليا عن الإمبراطورية ، ولكن ما خبأته الأيام بعد ذلك كان أسوأ وأنكى . ففى السنوات التالية تعرضت رافنا وروما لتهديد مستمر ،

ونجح اللومبارد فى القضاء على هجمات بيزنطة وردها على أعقابها ، على حين أن جماعتين مستقلتين من اللومبارد زحفتا جنوبا وأسستا دوقيتى اسبوليتو وبنفنتو .

وتوفى ألبوين وظل العرش من بعده شاغراً مدة تجاوزت عشر السنوات . غير أن الفتح واصله زعماء من أتباعه ، تولوا قيادة الحاميات المرابطة بالمدن الرئيسية . وعلى مر الأيام أخذ هؤلاء « الأدواق » وهم حوالى خمسة وثلاثين دوقا ، يستقرون رويداً رويداً بالجهات التى سبق أن احتلوها فتحولت « الدوقيات » إلى أملاك مستقلة استقلالا كبيراً عن القوة المركزية . ولايخفى أن ضعف الملكية الذى تسبب فى هذا الاستقلال ، هو العامل الفاصل فى التاريخ اللومباردى . فلو أتيح للقوم عاهل قوى لجاز أن يلزم بالطاعة دوقاته الخارجين على إرادته ، بل لقد كان فى وسعه فى حالات نادرة ، أن يسيطر على دوقيات الجنوب القوية . غير أن المرحلة الأولى لما أصابه الدوقات من الحرية ، كان لها أثرها . إذ إن لومبارديا كانت مملكة سادها دائماً الانقسام والانشقاق . ولذلك فإن أعداءها سواء كانوا من الأباطرة أو البابوات أو من المغيرين من الفرنجة ، كانوا يستطيعون دائماً الاعتماد على نبيل لومباردى ثائر . ولذا فإن فتح إيطاليا لم يكتمل على أيديهم بسبب افتقادهم التماسك . ولم يكن فى وسع بيزنطة أن تدبر من الجند من تعزز بهم حامياتها ؛ وكانت البابوية لا تزال ضعيفة حتى ذلك الحين . وكان ضعف الملكية اللومباردية هو السبب الوحيد فى إنقاذ القوات الإمبراطورية من الطرد من سواحل إيطاليا وفى الحيلولة دون انحدار البابا إلى منزلة أسقف لومباردى .

والمعروف أن غزاة إيطاليا السابقين — كانوا كما رأينا — يعدون السكان الرومان شركاءهم فى الإمبراطورية . على حين أن اللومبارد كانوا على العكس من ذلك يعدونهم رعايا ويعاملونهم المعاملة التى كان يلقاها فى هنغاريا الصقالبة الذين كانوا

يفلحون الأرض لسادتهم المقاتلين . وجرد أصحاب الأراضى الرومان من أملاكهم، وأصبحت أرضهم وماشيتهم وبيوتهم وفلاحوهم نهباً وغنيمة للفاتحين . ولكن الذى كان يريده اللومبارد لم يكن الأرض فى حد ذاتها ، وإنما أرادوها لتكون وسيلة للعيش فى تكاسل ودعة ؛ أو أداة تكفل لهم من الحرية الاقتصادية ما يسمح لهم بشن الحروب . وبناء على هذا أبقوا على ما كان عند الرومان من نظام للأرض ؛ ولذا يمكن القول بأن كل ما تغير هو المالك وحده . وأصبح الفلاحون الصغار (Coloni) يقابلون الطبقة شبه الحرة عند اللومبارد ، وهى المعروفة عندهم بالألديونى (Aldiones) وشاركهم فى هذا المصير فيما يبدو الفقراء من أصحاب الأراضى . واستولى الغزاة على ممتلكات الكنيسة دون رادع ، وذلك لأن الغزاة الأريوسيين لم يميلوا إلى احترام حقوق الكاثوليك . وبهذه العملية أصبح كل لومباردى حر مقاتلا ومالك أرض ، وعلى الرغم من أن مساحة الإقطاعات لم تكن متساوية ، فإن الأدواق احتفظوا بجانب كبير من الأراضى على أنها ضياع خاصة . وترتب على اجتماع عاملى الاستيطان المستمر والتأثر بالنظم الرومانية أن تلاشت العشيرة رويداً رويدا ، وحلت محلها الروابط المحلية التى تترتب على امتلاك الأرض . فأصبحت الدوقية هى الوحدة ، وطابق اتساع هذه الدوقيات إجمالا ، رقعة المناطق التى كان يحكمها فيما مضى الحاكم (Magistrate) والأسقف ، وقد ظلت المدينة الرئيسية هى مقر الإدارة . ومع ذلك فإن دوقيتى اسبوليتو وبنفنتو احتلتا رقعة بالغة الضخامة والاتساع ، كما أنهما كانتا فى الواقع إمارتين مستقلتين ، وذلك بعد أن عزلها عن اللومبارديين فى الشمال نطاق من الممتلكات الإمبراطورية .

ولم ينته القرن السادس حتى صارت مملكة اللومبارد وطيدة الأركان بإيطاليا . فسادت الملكية على يد أوثارى ، وبفضل هذا الاعتداد بالسلطة المركزية لم يكتف اللومبارد بالمحافظة على أملاكهم ، بل بسطوا رقعة ممتلكاتهم

على حساب بيزنطة . وكان أخوف ما يخشونه من خطر فى تلك المدة هو عدوان الفرنجة ، الذين دأبوا على الإغارة على شمال إيطاليا فى غارات تعززها هجمات الجيوش الإمبراطورية من رافنا . وتمكن أوثارى (٥٨٤ — ٥٩٠) من القضاء على هذا التحالف الفرنجى البيزنطى ، الذى كانت تزلزله فى الواقع الشكوك المتبادلة بين الطرفين ، مذ كان كل منهما يتهم الآخر حقا وصدقا بالعمل لمصلحته فقط . وبفضل هذا العمل الذى حققه أوثارى، تهيأ اللومبارديا لمدة قرن ونصف من الزمان من الحرية ما مكنها من تركيز دفاعها على جبهة واحدة .

إيطاليا البيزنطية

على أن الدفاع لم يكن كل شىء . إذ كان مركز الملك يتوقف على عدد أتباعه ، الذى كان يمكنه من منازعة أقوى أدواقه . ونظراً لأن الملك كان يعوزه نظام مالى منظم ، أصبح لزاماً عليه أن يكافىء هؤلاء الأتباع بما يبذله لهم من الأرض ، واقتضى ذلك بدوره المزيد من الفتوح . وكانت كل زيادة فى عدد السكان اللومبارد تدعو إلى العمل فى نفس هذا الاتجاه ، وذلك نظراً لأن كل مقاتل حر كان — مثلما حدث فى إسبرطة — يعتمد من الناحية الاقتصادية على رقعة الأرض التى يملكها والتى يفلحها له الأرقاء . وكانت النتيجة أن شنت سلسلة مستمرة من الغارات على الممتلكات المجاورة ، وتحت هذا الضغط تحول التنظيم الداخلى لإيطاليا البيزنطية إلى نظام عسكرى للدفاع ، فى أثناء القرنين التاليين . وقد حرص جستنيان على أن يرجع لإيطاليا وإفريقية الأحوال الإدارية السارية فى القرن الرابع ، التى بمقتضاها كانت السلطات العسكرية مفصولة فصلا دقيقاً عن السلطة المدنية . على أنه مع ذلك قد آثر فى بعض أقاليم الشرق الجمع بين السلطتين فى يد موظف واحد، وهو تقليد ما لبث حتى تطور فأصبح ما عرف فى العصور التالية باسم نظام « الألوية Theme » .

وكان اتباعه هذه السياسة أمراً لامفر منه ، ثم لم تلبث أن امتدت إلى الغرب . إذ إن تهديد البرابرة أخذ يشتد سنة بعد أخرى ، ولم تقابل ذلك التهديد زيادة فى الجهود والموارد تكفى لمواجهته وكسر شوكته . وترتب على ذلك أن صارت الاعتبارات العسكرية بالغة الأهمية . وأدى استمرار ظروف الحرب إلى الانحراف بجهاز الإدارة المدنية التى اشتهرت به روما فى العصر القديم إلى النزعات الإقطاعية التى ظهرت بالقرون الوسطى . فالجندى صار أشد أفراد المجتمع أهمية ، والذى حدث فى إيطاليا ، هو أن طبقة عسكرية تبرز فى النهاية بوصف كونها إحدى الطبقات الرئيسية فى السكان الأحرار . وهذا المبدأ نفسه ينعكس أيضاً فى الحكومتين المركزية والمحلية سواء . فإن النائب الإمبراطورى الملقب بالإكسارخ ، وهو موظف يجمع بين السلطات العسكرية والمدنية كان يعين أول الأمر فى حالات الطوارئ الخاصة ، فلم يلبث أن صار حاكم إيطاليا الفعلى ، فحجب بذلك الوالى المدنى (Prefect) ، الذى اقتصرت دائرة اختصاصه على مايتطلبه الإشراف المالى من أعباء . وتلاشى ببطء كل من المجلس البلدى وموظفيه إزاء تزايد سلطة القائد العسكرى التريبون (Tribunus) الذى أضاف إلى سلطته الأصلية أعباء قضائية وتنفيذية .

أصبحت إيطاليا وقتئذ منطقة من ثغور الحدود ، وأصبحت كل مدينة مسورة قلعة يمتنع بها أصحابها فى وجه أعدائهم . وكان الإكسارخ يوجه النظام الدفاعى من مركز قيادته العليا برافنا ، وهو نظام مركزى بالغ الإحكام ، تمكنت بفضله بيزنطة وقد ضغط عليها بشدة كل الآفار والبلغار من ناحية ، والعاصفة المتجمعة — عاصفة الغزو العربى من ناحية أخرى ، — من الاحتفاظ بقبضتها على إيطاليا مدة قرنين تقريبا . وهو عمل عظيم جدير بالتنويه ،

نظراً للصعوبات الخاصة التي تجتمع في هاته الولاية . ولم تعد مصالحها هي مصالح العاصمة . إذ لم يكن مما يعني النبيل الروماني ولا الفلاح الإيطالي في قليل ولا كثير ، أن تحتاج بيزنطة إلى الجند والأموال للحدود الشرقية . فكل ما كان يعنيهما مباشرة هو الخطر اللومباردي؛ مع تذكر أن القوات الإمبراطورية كانت غير كافية لمعالجة هذا الأمر ، وأن الدولة كانت ترسل الجند والمعونة المالية بين حين وآخر تنفيذاً لهذا الهدف . ومن ثم أصبح من الضروري تحميل إيطاليا عبء الاعتماد على مواردها الخاصة ، وتنفيذا لتلك الغاية تحول السكان المدنيون إلى جند من المليشيا المرابطين ، الذين كان يقوى من أزرهم في البداية فصائل الجند النظاميين البيزنطية، ولكنهم أصبحوا فيما بعد يؤخذون بأجمعهم من مصادر وطنية بحتة . وكان يلي الإكسارخ — الأدواق (Duces) الذين يهيمنون على الأقسام الجديدة التي كان يتجمع تحتها بقايا إيطاليا الإمبراطورية ، ثم « القواد » العسكريون (Tribuni) الذين تحت إمرتهم حاميات المدن . وكانوا يحتفظون بالجيوش عند النقاط الاستراتيجية مثل : رافنا وروما ونابولي وكالابريا ، على حين أن أساطيل رافنا وصقلية كانت تضمن المواصلات بحرا . فأما على البر ، فإن الشريان الرئيسي للدفاع الذي أصبح عسيراً بسبب الظروف الجغرافية ، هو الطريق الذي يربط رافنا بروما ، وأقيم لحراسة هذا الطريق بعناية تامة خط من القلاع ، وقوة خاصة أنزلت في بيروجيا لتتحكم في التقاطعات الموجودة بين ممرات جبال الإيبنين .

وسارت المركزية إلى أبعد من ذلك . فبذلت جهود جبارة لكي تتمثل إيطاليا من كل النواحي في ولايات الإمبراطورية الأخرى . ونيطت الإدارة بموظفين من اليونان ، واستخدمت مناهج العمل والأساليب اليومية اليونانية . وأنعم بالألقاب البيزنطية على أعضاء الأرستقراطية الإيطالية ، فإذا أثبتت الأيام ولاءهم وكلت إليهم وظائف تنفيذية . وشرعت جموع غفيرة من التجار الشرقيين

والصناع والحجاج والقسوس والرهبان تتجه إلى إيطاليا . وأخذت الآداب والثياب البيزنطية تنتشر بين الطبقات العليا . فإن جريجورى أسقف تور (Tours) يصف نبلاء الرومان الذين رآهم يرتدون ثيابا من حرير مرصـــعة بالجواهر ، هذا إلى أن فسيفساء رافنا يحدثنا بنفس القصة. ومما يشهد بمحاكاة ملوك القسطنطينية وجود الخصيان بالبندقية وتحديد أقسام خاصة بالنساء فى المنازل بها، كما أن أردية الأرجوان التى يرتديها أدواج البندقية فى الحفلات الرسمية تذكرنا بأصلها البيزنطى . وكان القديسون والشهداء الشرقيون يلقون فى كنائس إيطاليا اهتماماً خاصاً فى ذلك الأوان . ومن أمثلة ذلك شيوع الأشياء التى كانت تنذر للقديس ميخائيل والقديس ثيودوروس والقديسين كوزماس وداميان ، على حين أن الشعائر والفنون البيزنطية كانت تستخدم بوفرة فى العمائر والصلوات الكنسية . ومن الأساقفة والبابوات المعروفين أيضاً من يحملون أسماء يونانية ، وشاع من جديد استعمال اللغة اليونانية فى روما . وكان الدوق (Dux) الرومانى بقصره المطل على البلاتين والممثل للإكسارخ ولمولاه الإمبراطور عن طريق ذلك الإكسارخ ، يسيطر على المدينة بجنده البيزنطية . وكان بكل مدينة كبيرة حى يونانى ، كان على استعداد تام لمؤازرة أية إجراءات تتخذها السلطة المركزية لإلزام السكان الإيطاليين بالطاعة . وأعجب شىء فى ذلك الزمان إعادة فتح جنوب إيطاليا أمام لغة بلاد اليونان وآدابها ونظمها مثلما فتحتها الهلينستية القديمة قبل ذلك بخمسة عشر قرنا — وتواصلت هذه العملية حتى القرن الحادى عشر وظلت حية حتى فى عهد ملوك النورمان ولا تزال بعض آثارها موجودة إلى يومنا هذا .

الحركة الانفصالية الإيطالية

وعلى الرغم من هذا التنظيم الاستقصائي الدقيق كانت قوة بيزنطة في إيطاليا تعتمد على أسس غير ثابتة . وقد ظهر أن اللومبارد كانوا هم السبب المباشر في تقوض سلطانها ، ولكن النظم نفسها كانت تحتوى بذور فنائها . فالواقع أن اكتمال عملية المركزية أسهم في ظهور قوى محلية برزت حينما تجلى ضعف السلطة المركزية . ذلك أن اليونانيين لم يتلقوا مطلقاً — حتى يوم جاءوا لإنقاذ إيطاليا من القوط الشرقيين — التأييد القلبي من السكان ، كما أن جشع الموظفين البيزنطيين وابتزازهم أموال الناس لم يزدهم إلا مقتاً في أعين الشعب . وقد زادت الخصومات السياسية من تأجج الخصومة بين الغرب والشرق التي زاد في أوارها اشتداد التعارض بين مصالح الطرفين . وجعل حكام بيزنطة رائدهم الاحتفاظ بوحدة الإمبراطورية مهما كان الثمن ، لذلك دأبوا في أثناء تلك القرون على بذل جهود متواصلة في سبيل فرض ما استطاعوا فرضه من توفيقات وتساهلات في الشئون الدينية ، وهي سياســة أثارت أشد العداء في إيطاليا الكاثوليكية ، التي لم تكن تأبه كثيراً بمثل هذه السياسة والتدبير التي تواجه الإمبراطورية . وأخيراً كانت نفس نزعات التفكك ، التي ظلت إبان القرون الثلاثة الأخيرة مصاحبة لتمزق الإمبراطورية الرومانية إن لم تكن السبب الفعلى لذلك ، قد أخذت تشتد وتتفاقم بحكم احتياجات الزمان ، التي جعلت الاعتبارات العسكرية في الأهمية الأولى . لقد انهارت الحياة في المدينة القديمة وانهارت معها الطبقات الوسطى تحت ويلات الغزو والدمار الاقتصادى التي أنتجتها تلك العوامل . وقديماً قصر الجهاز الضخم الذى اصطنعه دقلديانوس وقسطنطين الطبقات الدنيا على طوائف وطبقات حرفية تعمل في خدمة الدولة . أما الطبقة العليا فإنها سيطرت على هذا الجهاز لمصلحتها ، كما أن إفلاس الدولة

زادهم قوة . وتولى كبار أرباب الأملاك جميع الاختصاصات المحلية وجباية الضرائب . وأصبحوا مسئولين عن صغار الفلاحين الذين يخدمون في ضياعهم. وعندما أصبحت إيطاليا معسكراً مسلحاً ، وأضحى كل مواطن جنديا ، صار من الطبيعي أن ينتقل التنظيم العسكرى إلى قبضة هؤلاء النبلاء . فصار مالك الأرض قائداً لأتباعه ، مثلما كان التريبيون قائدا لكتائب المدن . وعندما غلب العنصر الإيطالي على طبقة الجند ، نظرا للافتقار إلى الأمداد البيزنطية ، صار لزاماً أن تنمو الروح الوطنية المحلية ، وبلغت العملية نهايتها بذوبان الفروق رويدا بين الموظفين البيزنطيين وبين الأرستقراطية الإيطالية ، وذلك لأن هؤلاء الموظفين حاولوا أن يزيدوا من قوتهم باقتناء الضياع في إيطاليا ، واستطاعت الأرستقراطية الحصول على المكانة الرسمية والامتيازات الاجتماعية بوساطة الألقاب البيزنطية والمناصب التنفيذية ، وهكذا نشأ مع اضمحلال السلطة المركزية نظام إقطاعى ، أحل محل الجهاز الإمبراطورى عــــددا من الحكومات المحلية .

ممتلكات البابا

أما الوظائف الباقية للسلطة المركزية فقد ملأتها الكنيسة ، التي كان نمو قوتها الزمنية آخر العوامل الكبيرة في تكوين إيطاليا العصور الوسطى قبل عهد شرلمان . فإن قانون ثيودوسيوس ومن بعده القرار التنظيمى (Pragmatie Sanction) لم يخول لسلم الوظائف الكنسية امتيازات خاصة فحسب ، بل منحها أيضاً قدراً كبيرا من السلطان السياسى ، ولا سيا في مجال حكومة المدينة ، إذ إن قائد حامية المدينة (التريبون) والأسقف أخذا عند ذاك يتقاسمان معظم ما كان لموظفى المدن من حقوق وواجبات ، وزاد في سلطان الكنيسة مالها من مكانة باعتبارها أكبر مالك للأراضى بإيطاليا . كان الأسقف

هو الذى يهيمن على أبواب المدينة ، وبنا يناط به تزويد أسوارها بالعدد الكافى من الجند ، ويكفل للمدينة توافر الماء والخدمات اللازمة لها . واختصت الكنيسة منذ زمن طويل بالنظر فى شئون البر والإحسان والمستشفيات ، بل إنها استطاعت بفضل ما كان لها من نظام فائق ، ومكانة أدبية ، أن تجعل لنفسها فى أمور القضاء والضرائب ، مكانة مرموقة فى نظام الحكم الإمبراطورى.

ومما يشهد بزيادة قوة البابوية نمو رقعة ما تملكه الكنيسة من الأراضى الزراعية ، وهو أمر لم يؤكد فقط متانة مركز إيرادات كرسى روما ، بل وزودها أيضاً بوسيلة تمارس بها نفوذها الأدبى والمادى فى كل أرجاء إيطاليا . إذ كان للكنيسة منذ عهد قسطنطين الحق القانونى فى حيازة الممتلكات ، وظلت هذه الممتلكات فى ازدياد دائم بسبب وصايا أغنياء النصارى لها بالأموال وما كان يهبه لها أشراف روما . وثم سبب آخر ، يتمثل فى تزايد الميل العام عند صغار الملاك إلى وضع أنفسهم تحت حماية مالك قوى ، وبذلك كان الملاك الأحرار يصبحون فى كثير من الأحيان مجرد مستأجرين للأرض مدى الحياة مقابل ما يجتنونه من ميزات الأرض والطمأنينة .

وتزودنا رسائل البابا جريجورى الكبير التى كتبت عند نهاية القرن السادس بمعلومات قيمة عما اشتهرت به روما من الكفاية والدقة فى إدارة أوقافها : وهى تظهرنا كذلك على الدور الذى لعبه جريجورى نفسه فى تنمية الموارد المادية للكنيسة . وقد بذل جريجورى فيما وجهه من تعليمات إلى قسس الأبروشيات ، وهم موظفون كنسيون كانوا يجمعون فى عملهم بين واجبات حكام الأقاليم والقضاة والموكلين بالصدقات فى مناطقهم الخاصة ، بذل اهتماماً كبيراً بأدق تفاصيل تربية الماشية والتأجير وحيازة الرقيق وجميع الأمور التى تهم كل مالك أرض. ومنها نتبين أن السروج يحصل عليها من كامبانيا وعروق الخشب من بروتيوم لتستخدمها كنيسة روما . أما صقلية التى تقع بها أغنى

الأوقاف وأوسعها مساحة ، فكان يرد منها مقادير ضخمة من القمح تفى بتموين روما نفسها — وفى ذلك دلالة على ما حدث من إحلال النشاط الكنسى مكان الحكومة الإمبراطورية فى عاصمة الإمبراطورية السابقة (روما) — وكانت الإيرادات الضخمة التى يحصل عليها بهذه الطريقة تستخدم فى وجوه شتى :— مثل افتداء الأسرى وتخفيف ضائقات المجاعة وصيانة المستشفيات والإنفاق عليها وإعانة مختلف الكنائس التى تعرضت لغارات وتخريب اللومبارد . وأخيراً يبدو أن البابوية لم تكن تضن بالألطاف والرشى السنية على معيار ملكى سخى إلى مختلف الموظفين البيزنطيين الذين يعتبر تعاونهم مع روما أمراً ضروريا ، وذلك فضلا عن الأموال المستخدمة فيما يتخذ بطريق غير مباشر من دبلوماسية . وإن هذه الرسائل تلقى ضوءا كبيرا على علاقات جريجورى بالهيئات الإدارية الإمبراطورية ، وهى مملوءة بالاتهامات المكتوبة بعبارة صريحة ، حول ما يرتكب فى حق الناس من سلب وظلم . ومن الواضح أن جريجورى كان يتحدث بوصفه شخصاً مسئولا ، وهو شديد الأمل فى أن تحذيراته لن تذهب سدى . وإن جريجورى ـ وقد سبقه فى منصبه وخلفه عليه أحبار خاملون ـ ليجلأ إلى حد ما المنزلة التى قدر للبابوية أن تحتلها إبان القرون التالية . كان رئيساً لمنظمة مركزية قوية (البابوية) والحَكَم المطلق فى كل الأمور المتصلة بالعدالة ، وقد تسلح بمفاتيح الحل والإبرام التى اختص بها بطرس الرسول — فى السماء والأرض ، وبما كان لروما من مجد غابر ، فلما كانت له شخصية فوق شخصية البشر ، لم يكن الإمبراطور إزاءها فى نظر سكان إيطاليا المعذبين ، سوى سيد بعيد الدار ، ولم يكن الإكسارخ إلا مجرد قائد ضعيف أو حاكم ظالم .

على أنه ينبغى لنا أن نؤكد أن أهم ما استندت إليه هذه السلطة ، ما كان لجريجورى من هيبة شخصية وسلطان أدبى ، لا إلى ما كان تحت تصرفه من

قوة مادية . وقد اضطرته الظروف أن يعتمد بلا كلل على أفانين الدبلوماسية وأن يعمد بكل حرص وعناية إلى إنشاء الائتلافات وتكوين العُصَب والاتحادات ؛ لكى يجابه المعارضة الكثيرة التى كانت تلقاها مدعيات الكرسى البابوى . إذ حدث حتى فى داخل حدود إيطاليا وإستريا ، أن كبار رؤساء الأساقفة فى الشمال بميلان وأكويليا ورافنا — رفضوا قبول سيطرة روما ، ومع أن الانشقاق قد التأم أخيراً فإنهم حافظوا على نزعتهم الاستقلالية بما تلقوه من التشجيع سراً من قبل بيزنطة ، التى رحبت بكل ما يُعوق ازدياد نفوذ البابوية .

على أن أهداف جريجورى تجاوزت حدود إيطاليا ، فقد اتخذ الموظفين الذين يعينهم للإشراف على ضياع الكنيسة بإيطاليا وغيرها من الأماكن ، من رجال الدبلوماسية ورجال المخابرات ، استطاع بفضلهم أن يتصل بجميع القوى الحاكمة فى الغرب علمانية كانت أو اكليروسية . ولم يتردد فى أن يطلب من حكومة السلطة الإمبراطورية أن تسانده فى إلزام أساقفة إلليريا بالطاعة ، وفى قمع حركة الدوناتيين والوثنيين فى إفريقية ، على الرغم من أنه لم يحرز فى ذلك نجاحاً تاماً . وفى أسبانيا حيث اعتنق القوط الغربيون المذهب الكاثوليكى حديثاً ، بادر جريجورى إلى توثيق علاقاته مع البيت المالك فضلا عن هيئة الكنيسة الجديدة . وبذل فى فرنسا محاولة جريئة ولكنها غير مثمرة ، كيا يمارس عن طريق القاصد الرسولى البابوى بمدينة آرلس ما كان يدعيه منذ زمن طويل أساقفة روما من سلطة على الكنيسة القومية هناك . والمراسلات المتبادلة بين جريجورى وبين مجموعة منوعة من ملوك الفرنجة ، لاسيما برانهيلدا السيئة السمعة ، تحض هؤلاء على القضاء على السيمانية[1] وغيرها

(١) السيمانية Simony : هى الاتجار فى المقدسات والمضاربة فى الرتب والوظائف الدينية . [المترجم]

من الأعمال القبيحة بالكنيسة ، وتدل على معرفته الوثيقة بالأحوال السائدة في سائر الأبروشيات ، فضلا عن إلمامه بالأحداث السياسية . على أن دعوى البابا لقيت الاحترام ، وإن لم تظفر بالرضى والقبول . وذلك لأن الميروفنجيين لم يميلوا إلى التنازل عن المزايا التي حققوها من السيطرة على الكنيسة ؛ ولكن النفوذ الشخصي لجريجورى كان معترفا به في كل أرجاء فرنسا ، وثمة امتداد آخر لنشاطه يتجلى في بعثة أوغسطين التبشيرية إلى إنجلترة ، تلك البعثة التي قدر أن تكون لها عواقب بالغة الأهمية .

وفي تلك الأثناء أصر الكرسي البابوي بروما أن تبقى له الصدارة ، رغم ما تعرض له من اعتداءات الكنيسة الشرقية ، بعد أن استمرت على طول الزمن خصومة مريرة مع أسقف القسطنطينية الذي كان يدعي — بوصفه مطرانا لعاصمة الإمبراطورية — بأن له الحق أن يتخذ لقب البطريرك المسكوني (Oecumenical) . ومما زاد في توتر العلاقات مع بيزنطة تنافر نظريات كل من البابوية والإمبراطورية . فعند جريجورى ، أن البابا فوق الوالي (الإكسارخ) ، وأن الكنيسة فوق الدولة ؛ على أن خلفاء جستنيان من الناحية الأخرى ، كانوا يرون أن الولاية الإيطالية ، شأنها شأن جميع أجزاء الإمبراطورية الأخرى ، لابد أن تخضع للإمبراطور ومرسومه ، وذلك لأن « الدولة لا تقع في داخل الكنيسة ، بل إن الكنيسة هي التي في داخل الدولة » . ولما كان جريجورى مقتنعاً أن الطريق الوحيد إلى الجنة لمن دعوا إلى صراطها المستقيم ونزلها الكريم ، إنما هو الكهنوت أو الرهبنة ، فإنه رأى أن مرسوم الإمبراطور موريقيوس الذي يحظر على موظفيه المدنيين أو جنده السيامة قسيسين أو التبتل رهباناً ، جريمة لابد من سؤاله عليها ساعة هول الحساب في يوم القيامة . ولا مراء أن أسقف بيزنطة الذي يقيم بمنطقة أقرب إلى الحدود الشرقية وهو بالتبعية أشد إدراكا للخطر البالغ المحدق بالإمبراطورية وحاجتها الماسة إلى

القسم الثالث

ظهور الإسلام

العقيـــدة

كان الإسلام فى مراحله الأولى عقيدة محدودة فى الجزيرة العربية ، أما اليوم فإنه بوصفه قوة عالمية ـ قد صار عقيدة وثقافة توحدان بين شعوب أشد ما تكون تباينا ! والإسلام بوصفه شريعة ، هو همزة الوصل بين هاتين الناحيتين : أعنى بهما العقيدة والثقافة . ومن ثم يمكن أن نستخلص فى إيجاز ثلاثة مظاهر للإسلام : ــ (أ) العقيدة (ب) الانتشار (ج) الثقافة ولعل من الأوفق—إن لم يكن من الأدق — أن تطلق هذه الأسماء على أدوار ثلاثة فى التطور التاريخى للإسلام .

ولم يكن مفر من أن يدور حول الأمور الثلاثة شىء من سوء الفهم الذى ألم بالآراء التى كونت عنها .

ولا يزال أتباع محمد (ص) يتهمون بالكثير من التهم الباطلة . ويعانون إلى اليوم مما أذاعه عنهم خصومهم فى العصور الوسطى من تخرصات أساءت إلى سمعتهم ، كما أن أوربا تنظر إليهم اليوم بالعين التى كانت تنظر بها إليهم أيام الحروب الصليبية . وقد بذلت فى الحقبة الأخيرة جهود يقصد بها استكشاف ماقد يكون منجمعاً من الحقائق تحت مجموعة الروايات والمأثورات التى نجدها فى المصادر المسيحية أو الإسلامية حول التاريخ المبكر لتلك الحركة الجديدة وأعنى بها الإسلام . والإسلام عقيدة جديدة ، وديانة عربية أصيلة . وذلك رأى صحيح . ولعمرى إن الجزيرة العربية مهد العقيدة ومنبتها ، وإن العقيدة احتفظت ببعض تقاليد العرب وسننهم الاجتماعية التى أثرت فى بعض مناسكها .

ولم يكن الإسلام عقيدة جديدة فقط ، بل كان أيضاً تأكيدا لاستمرار الوحى لأهل الكتاب . فإن سلسلة الأنبياء لاتنقطع : وفيها إبرهيم وموسى وعيسى ومحمد . وتعاليم الإسلام إن هى إلا توكيد جديد ، وتعديل موحى به لأسمى ماتحتويه المسيحية واليهودية من عناصر . تلك العناصر التى غطت عليها المؤثرات الهلينستية[1] . وقد اعتقد كثير من المؤرخين أن الفتح الإسلامى مظهر لحرب صليبية أو دينية عامة يشنها مقاتلة متعصبون حالمون ، يشهرون السيف فى يمينهم ويحملون القرآن فى شمالهم ، وقد وطدوا العزم على إدخال الكفار كرها فى دين الله وهو قول لاينطبق إلا على موقف الإسلام حيال المشركين من أهل الجزيرة . إذ الواقع أن الاسلام فضلا عما جبل عليه من تسامح شديد مع غير أبناء دينه لم يكن إلا حركة دينية عاصرت الحركة القومية ببلاد العرب[2] ، وكانت هذه حركة تقودها أرستقراطية من العسكريين شديدة الأخذ بالنزعة الواقعية ، وترى أن اعتناق الشعوب المقهورة للإسلام كرها ليس من حسن السياسة فى شىء . أما الثقافة الإسلامية فلم تكن كما ظن كثير من الناس حضارة أسيوية شديدة المناقضة للحضارة الأوربية . بل هى على العكس من ذلك بنت بيئتها ، فهى إحدى ثمار تلك العناصر التى صيغ منها مجتمعة الأساس الذى قام عليه أيضا الفكر المسيحى فى عصوره المبكرة . وهو اتحاد

(١) وهنا نشير إلى آراء كتاب العصور الوسطى تلك الآراء التى ظل الإسلام يقاسى منها إلى اليوم والتى ظلت تحجب عيون أوربا عن رؤية الإسلام على حقيقته . وهم وإن لم يرموه بالوثنية فقد اعتبروه فرقة خارجة (كذا ! ؟ ! . . .) انظر مقارنات يوحنا الدمشقى فى القرن الثامن . وانظر دانتى فى الكوميدية الإلهية ، (Historie de Byzance) (فاسيليف ج ١ ص ٢٧٤) (Seminator di scandaloedi scisoma)

(٢) وسواء أجاز لنا تقبل نظرية كايتانى التى تذهب إلى حدوث عملية متواصلة من الجفاف (inaridimento) فى شبه الجزيرة العربيه أم لم يجز تقبلها فالواقع أنه لا يمكن إغفال أهمية العامل الاقتصادى بين أسباب الهجرة العربية .

الثقافتين الهلينستية والسامية . ذلك الاتحاد الذى شمل الشرق الأدنى بأكمله. وعندى أن هذا الأساس المشترك إنما هو إلى حد كبير ، السبب فيما أحرزه الإسلام من أثر قوى على ثقافة أوربا فى العصور الوسطى . ولاشك أن الخصومة الدينية أفضت إلى إسدال ضباب الإبهام والغموض على المصدر المشترك لثقافة الإسلام والمسيحية : وأعنى بذلك اشتراكهما فى التراث الذى وهبته البشرية فتوح الإسكندر . على أنه يمكن تتبع هذه المشاركة على امتداد التاريخ الإسلامى بأجمعه ، على الرغم من تفوق العناصر الشرقية وازدياد بروزها ، نتيجة انتشار الإسلام فى الأقاليم الشرقية ، وانتقال العاصمة من الشام إلى العراق . وسنبحث الآن عن تفسير لهذه المفارقات الظاهرية .

بلاد العرب قبل ظهور محمد (ص)

إن الحركة المباغتة التى أطلقت على العالم فى القرن السابع الميلادى شعبا عربيا فاتحا ، إنما هى من المفاجآت المثيرة فى التاريخ . إذ إن بلاد العرب من البلاد التى لم تهيئها طبيعتها لتكوين حكومة موحدة ، وهى حقيقة لم تفت كلا من روما وفارس وتركيا وبريطانيا العظمى ، كل واحدة منها بدورها على كر التاريخ . ومن المعلوم أن الشطر الأكبر من أراضيها صحارى ورمال ، يجوبها البدو الرحل ، الذين تأصلت فيهم النزعة الفردية بحكم السليقة والتدريب ، وهى نزعة لاتعترف بأية رابطة ولا تدين بأى ولاء إلا فى حدود القبيلة ، أو حتى العائلة فى بعض الحالات . على أن العربى المتحضر النازل على الأطراف الخصبة والذى ألف حياة المدن ، واشتغل بالتجارة أو الزراعة ، وكان له اتصال دائم بالأمم المتحضرة ، والذى عمل وسيطا فى التجارة المتبادلة على الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب — ذلك العربى كان نقيضا

لإخوانه البدو الرحل . ومع ذلك لايكاد يحق لنا أن نتوقع العثور هنا على وجهة نظر قومية . على أنه حدث فى أقصى الجنوب العربى ، أن أفاد سكان اليمن من تجارة البحر الأحمر وبلغوا بفضلها قدراً من الوحدة ، كما تشهد بذلك آثارهم ونقوشهم — تحت حكم ملوك سبأ . ومع أن الغزو الحبشى قضى على أهميتهم السياسية قبل ذلك بقرن[١] ، فإنه لم يستطع أن يغير الأحوال التى هيأت اليمنيين نصيباً ضخما من التجارة مع الشرق الأقصى . أما فى الشمال ، فقد أدركت روما وفارس أن مصلحتهما تقضى عليهما بتشجيع قيام سلطة مستقرة بين القبائل المتجولة فى ربوع شرق الأردن والفيافى المترامية التى تمتد من فلسطين إلى نهر الفرات ، وهو نفس الشىء الذى فعلته الدول العظمى فى الأزمنة الحديثة . فقام ملك الغساسنة على أطراف الشام بمؤازرة روما ، على حين اتخذت فارس من مملكة الحيرة « دولة حاجزة » وهى الدولة الغنية التى تعتبر المركز التجارى على الفرات الأدنى . ومع ذلك ، فإن كلا من هاتين الدولتين التابعتين قد زالت من الوجود قبل ظهور الإسلام بزمن قصير .

وإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا عرب الحجاز يعيشون عيش الاستقرار وإن لم يتحدوا سياسيا . وقد مارسوا الزراعة بالجزء الشمالى من البلاد ، إذ إن يثرب التى عرفت فيما بعد باسم المدينة ازدهرت بها حرفة غرس النخيل ، وأقام بها عدد ضخم من السكان يتألف من زراع من اليهود والعرب . وعلى مبعدة مائتى ميل جنوبا على طريق القوافل الرئيسى الذى يسير على امتداد ساحل البحر الأحمر كانت تقع مدينة مكة ، التى كانت تدين برخائها كله للتجارة . وكان تجارها يزودون أسواق سورية والمغرب بالبخور وخشب العطور الواردة من جنوب بلاد العرب ، فضلا عما يرد من سلع الهند وأقاصى آسيا ، التى حالت العداوة

---

(١) انظر ص٢٠١ بعنوان البعثات البحرية والدبلوماسية .

بين روما وفارس دون اجتيازها طريق الفرات القصير . وكانت مكة أيضاً مثابة دينية تقوم بها « الكعبة » وحجرها الأسود الحافل بالأسرار وهي البيت العتيق الذي يجتذب الحجاج من كل أرجاء العالم .

ولم تكن الديانة في بلاد العرب بأوفر من السياسة حظاً من التنظيم ، وكانت عناصرها الأساسية المقدسة هي المزارات والأضرحة المحلية والأعمدة والحظائر المسورة المقدسة والشعائر الموروثة وعدد كثير من الأرباب البدائية الغامضة. وقد أدخلت المجتمعات اليهودية والمسيحية النازلة بالمناطق الساحلية عقائدها . على أن عقائدها هذه كثيراً ما كانت في صورة منحطة أو مبتدعة . غير أن الغالبية العظمى من السكان ظلت متمسكة بعقائدها العتيقة ، التي لم تتجاوز في معظم الحالات ما كان معروفاً من قديم الزمن في كريت وفلسطين من عبادة الأحجار النيزكية . ولاشك أن مثل هذه العبادات لم تعش نتيجة لشعور ديني أصيل بل عن استمرار التقاليد والعادات . ولم يحاول أحد من العرب البحث في اللاهوت ، وإن كان يبدو أنه قد ظهرت حركة تتجه نحو التوحيد . ولعل مكة هي أم مثابة دينية عند القبائل ، وتحيط بها منطقة حرام مقدســة . وزاد في مكانتها وأسهم في رخائها التجاري منسك الحج واحتفالاته التي تقام بها كل عام .

حياة محمد « عليه الصلاة والسلام »

ولد محمد بمكة حوالي عام ٥٧٠ م . وكان ينتمي إلى المجتمع التجاري النازل بها ، ويبدو أنه أدرك عند سن الثلاثين درجة معقولة من الغنى . والوصول إلى بيان مقنع عن خلقه من المصادر التي بين أيدينا ليس بالأمر اليسير . وإن جرت العادة عند الشعوب القديمة أن تكون لنفسها صورة عامة للنبوة . والنبـوة

— كما هو معلوم — طراز مألوف فى الشرق — وليس مختصاً بفرد بذاته — وفى أثناء « الفترة المكية » من حياته ، وهى المدة التى كانت دعوته الناس خلالها سراً ، تجمع حوله فئة قليلة من المريدين المخلصين . ولم يكن بد من أن تستثير الموضوعات الأساسية التى دعا إليها ، معارضة قوية من المعاديين المحافظين ، الذين تأصل لديهم العرف القديم والأخلاق القبلية . ولم يقابل مذهبه فى وحدانية الله بأى تحد ولا معارضة ، ولكن إنكاره لقيمة الآلهة المحليين كشفعاء ، وتشديده القوى على ضرورة أداء الزكاة والرحمة بالضعفاء ، وأكثر من كل ذلك تأكيده اقتراب يوم القيامة — تلك المبادئ التى ظل محمد يدعو إليها بحماسة بالغة مستنداً إلى الوحى ، كل ذلك لم يكن بد من أن يثير مخاوف وشكوك ذوى المكانة من رجال المجتمع القرشى وأن يعتبروها آراء هدامة . فلا عجب أن قوبلت دعوته العاصفة وفكره الثائر على مقدساتهم، بنقد وزراية من سادة المجتمع هؤلاء ، وهبط عليه الوحى يبررها بالأساليب الجدلية ، أما مبادؤه فقد عززت بالأمثلة والأقيسة المطابقة بصفة رئيسية لما ورد فى الكتب التى يؤمن بها أهل الكتاب من قبله . ولم يعد عليه هذا الاستدلال المنطقى إلا بزيادة عمق الهوة التى تفصله عما كان يعبد قومه ، ومن ثم أخذ الوحى يزداد تنديداً بشرك مكة وعبادتها للأوثان ، على أن حكمة الله اقتضت فيما بعد أن يجيز النبى بعض شعائر الكعبة ويتخذ منها ركناً جوهرياً فى الدين الجديد .

وكانت سنة (٦٢٢) نقطة التحول فى سيرة النبى (ص) . وهى السنة التى تمت فيها الهجرة ، حين غادر محمد (ص) مسقط رأسه مكة واتجه إلى المدينة وكانت بيئتها أكثر ملاءمة للتعاليم الجديدة . وكان كلما زاد أتباعه عدداً اشتدت الحاجة إلى القوانين والتنظيمات . ومن ثم كثر نزول آيات التشريع فى أثناء الفترة المدنية من رسالته . هذا وإن الأهمية السياسية الجديدة التى بلغها محمد (ص) لتنعكس فيما نزل من الآيات العديدة التى تحوى الحدود وتمثل

القانون المدنى والجنائى ، فضلا عن عدد من الشعائر والسنن الدينية . ولم يلبث محمد (ص) على الرغم مما لقى من السكان اليهود من معارضة ، أن بسط سيطرة الإسلام على مجتمع المدينة ، وأن جمع حوله مجموعة ضخمة من المؤمنين ، الذين أسلموا أنفسهم لله ورسوله على نحو ماتدل عليه كلة « إسلام » . وكانت خطوة هامة تلك التى عول بها محمد (ص) على اعتراض سبيل قوافل مكة بوصف ذلك ضربا من الانتقام الإلهى من الكفار الذين آذوا أتباعه وشردوهم من ديارهم . والحق أنه لم يتهيأ شىء أشد إقناعاً للعرب بصدق دعوة محمد (ص) ، من النجاح الذى أصابته غزواته تباعا. وعقد المكيون وغيرهم ممن أضرت بهم هذه الغزوات ائتلافاً قوياً لمهاجمة المدينة ، بيد أن ذلك الائتلاف لم يغز بطائل ، ومن ثم أصبح السبيل ممهداً لعودة النبى ظافراً إلى مكة (٦٣٠) . وعندما توفى محمد (ص) فى (٦٣٢) كان الحجاز كله يدين بالطاعة لسلطانه السياسى والدينى كما أن الاحترام الذى كانت تلقاه جيوشه بكل أصقاع الجزيرة أكبر شاهد على أن قوة جامعة ومركزية جديدة قد نشأت ببلاد العرب . وبذلك لقى ماقام به النبى من الأعمال الجزاء الأوفى من الله تبريراً وتزكية .

العقيـــدة

من الجلى أن أساس الإسلام كان دينياً محضاً . إذ إن الحاجة الماسة إلى ضم من حوله من الناس إلى عقيدته ، هى الحافز الذى دفع مؤسس تلك العقيدة إلى العمل على اكتساب أتباعه الأولين . على أن العناصر السياسية لم تظهر إلا بعد الهجرة إلى المدينة .

فمنذ تلك اللحظة أضحى انتشار الإسلام مرتبطاً بسيادة المدينة وسلطانها . على أن الجميع كانوا مسلمين طالما اقتصر نمو الإسلام على بلاد العرب . ولكن

عندما انتشرت قوات العرب فى أرجاء الشرق الأدنى وشمال أفريقية ، وهى مهاد الحضارات القديمة ، صار الوضع مختلفاً ، وإذا بالعرب المسلمين يقيمون «دولة» . ولكنها دولة تتصف بالتسامح المطلق . وبدلا من أن ينشر الفاتحون معتقداتهم بحد السيف ، تركوا رعاياهم أحراراً فى ممارسة عقائدهم على شريطة الاعتراف بسيادة العرب والالتزام بأداء الجزية المفروضة . فاحتفظ العرب بما للبلدان المغزوة من نظم إدارية وتجارية وقامت البواعث الاقتصادية بدورها . وبهذه الوسيلة تحققت المساواة الاجتماعية بين الغالب والمغلوب ، كما أن العناصر المشتركة بين المسيحية والإسلام ، ذللت العقبات التى تحول دون اعتناق الإسلام — غير أن عملية اعتناق الإسلام لم تتم إلا رويداً رويداً . ومن ثم فإن الفتح السياسى الذى أنجزته الجيوش العربية سبق طبع ذلك الشرق بالطابع الإسلامى بمدة مائتى سنة أو ثلاثمائة .

الباب التاسع

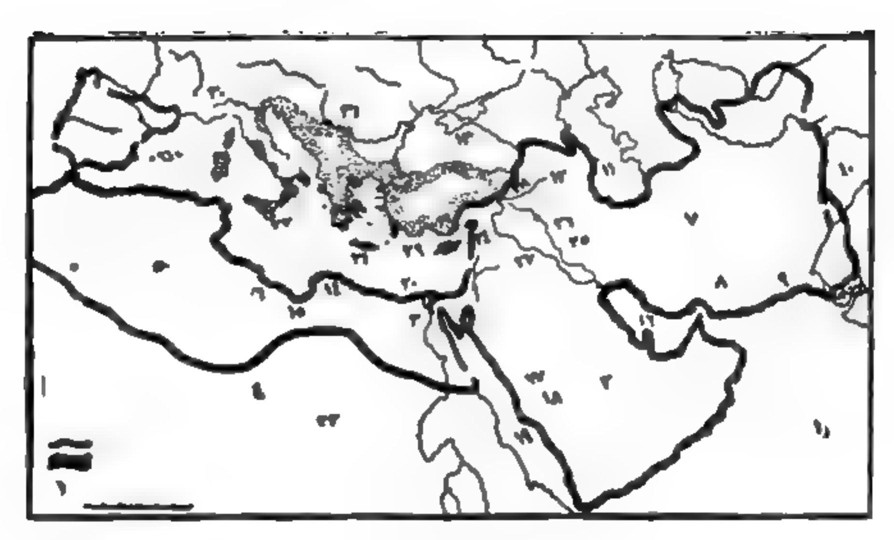
الفتوح الإسلامية

كان للدين الإسلامى — كما رأينا — الفضل فى تنظيم المدينة . وأدى ذلك التنظيم إلى جمع كلمة العرب ودفعهم إلى الفتح العسكرى : ونبتت عن هـذا المجتمع دولة . ولاشك أننا نلمس مفتاح هذه الحركة فى صفات الخلفاء الراشدين. فقد أعقبت وفاة محمد (ص) ثورة عامة ببلاد العرب على سيطرة المدينة ، وكأنما قدر للإسلام أن يخر صريعاً فى تلك اللحظة إزاء ما تعرض له من حركة جارفة من الشعور القبلى والنزعات الفردية . ولم ينقذ الموقف إلا القواد المسلمون الذين اشتهروا بالقوة والشدة فقادوا جيوش المدينة لقتال القبائل التى تسكن وسط شبه الجزيرة العربية . والواقع أن هؤلاء القادة ـ هم وحدهم دون المتأملين الذين ملأ الإسلام قلوبهم — هم الذين قادوا حركة قمع المرتدين . فاستطاعوا بما شنوه من حملات سريعة بسط سيادة الإسلام ثانية على الجزيرة العربيـــة ، وتمكنوا من جمع شتات العناصر المتحاربة كلها فى حلف واحد ، وبذلك أعدوها للقيام بأعمال الفتح . ولكن قبل أن يتم إخضاع بلاد العرب ، بدأت الغارات الأولى على الشام والعراق ، التى كانت تشنها جيوش قليلة العدد ، ليس لديها إلا فكرة ضئيلة عن الفتح الثابت المنظم ، واجتاحت كل شىء أمامها ، كما أن ما أحرزته تلك الجيوش من انتصارات جارفة فى اليرموك والقادسية[1] قد أتاح لذلك الحلف الحديث النشأة من التماسك ما جنبه التمزق وتفرق الكلمة بإنفاذه جموع حشوده على البلاد المجاورة. ذلك أن الوقت قد تهيأ فعلا لتلك الغزوات . إذ إن أقرب منفذ لتلك القوات

(١) انظر ص ١٠٣

المادرة هو الأرض الواقعة شمال الجزيرة العربيـة مباشرة بين إمبراطوريق روما وفارس .

ولم تكن الإمبراطوريتان فى مركز يؤهلهما للقيام بمقاومة منظمة . إذ تلت انتصارات هرقل فترة تفشت فيها الفوضى بدولة الساسانيين ، حتى إذا عاد النظام فى آخر الأمر إلى نصابه ، كانت عودته بعد فوات الأوان . على أن مركز دولة الروم (بيزنطة) التى كانت فى ظاهرها عظيمة القوة والازدهار ، يحتاج منا إلى شىء من التوضيح : ذلك أن ما أحرزته من انتصارات لم يقتصر على تحويل فارس إلى دولة ذليلة لا قدرة لها على القتال وحسب ، بل إن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة أدت إلى ضياع كل ما استردته حديثا بمصر والشام من الأراضى فى مدى سنوات ثمان . ومن أهم الأسباب التى أفضت إلى تحويل كفة الحظ عنها ، ما أصاب قوتها العسكرية من الانهيار . إذ إن الحملات التى استمرت طويلا أفسـدت نظام جندها . كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذى انصرف إلى الخصومات الدينية ، لم يعد كعهده قديما نافذ الكلمة فيهم . وكان الجيش يتألف من عدة أخلاط من الجند فانخرطت فيه أعداد غفيرة من الأرمن وسكان جبال القوقاز ، وأسهمت هذه العناصر الشاذة فى بث الفوضى بين صفوف الجيش ، على حين لم يكن قادتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين ببلادهم ، أقل منهم تمرداً . وقد أدت هـذه العيوب إلى إنزال أفدح الأضرار بالقيمة العسكرية لهذين الجيشين المرابطين بالشام ، على حين زادت الأحوال بمصر سوءاً . فإن الدفاع نيط هنا بجند من المليشيا من ملاك الأرض ، وهم قوم لا خبرة لهم فى شئون الحرب ، على حين كان يشترك فى القيادة خمسة قواد أنداد ، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب . وفضلا عن خطورة الموقف العسكرى ، كان هناك خطر



(٩) خريطة العالم الإسلامى

١ — المحيط الهندى	٢ — بلاد العرب	٣ — مصر
٤ — الصحراء	٥ — البربر	٦ — أفريقيا
٧ — فارس	٨ — كرمان	٩ — مكران
١٠ — هندوستان	١١ — بحر قزوين	١٢ — تفليس
١٣ — البحر الأسود	١٤ — برقة	١٥ — طرابلس
١٦ — الخليج العربى (الفارسى)	١٧ — الحجاز	١٨ — مكة
١٩ — البحر الأحمر	٢٠ — الإسكندرية	٢١ — كريت
٢٢ — صقلية	٢٣ — القاهرة	٢٤ — أنطاكية
٢٥ — العراق	٢٦ — بغداد	٢٧ — نهر الفرات
٢٨ — أرمينيا	٢٩ — جزيرة قبرص	٣٠ — الفرنجة
٣١ — الآفار		

أعظم، هو انتشار السخط بين السكان . ولو أن الدولة البيزنطية حزمت أمرها واتبعت سياسة اكتساب رضا الناس وخففت عنهم أعباء الضرائب وانتهجت سبيل التسامح الديني ، فلربما كان من المعقول أن تبقى على ولاء الشام ومصر نحو الإدارة البيزنطية . ولكن ما اتخذه هرقل من إجراءات لم يكن منها بد ، عادت على الدولة بتنفير جميع طبقات السكان منه . فإن جميع ما كان بالخزانة الإمبراطورية من أموال قد استنفدته حروب الفتوح ، كما أن الولايات التي استردت حديثاً سرعان ما ألزمت بتحمل نصيبها كاملا في أعباء الضرائب وتزويد الدولة بالإيرادات . ومما زاد الموقف ببلاد الشام تفاقما ، ما كان بين اليهود والمسيحيين من كراهية متبادلة تفجرت فتناً ومذابح هاجت بالمدن الكبرى . وفي (٦٣٤) صدرت الأوامر بتعميد اليهود كرهاً ، على حين أن أنصار مذهب وحدة طبيعة المسيح المسمون بالمونوفيزيتيين ، رفضوا العمل بما عرضه الإمبراطور من صيغة التوفيق بين المذاهب الدينية ، فأدى ذلك إلى إنزال الاضطهاد بكل من الشام ومصر على السواء . وتتجلى نتيجة ذلك فيما تشهد به التواريخ المعاصرة وتراجم الرهبان الأقباط ، التي تعبر عن الفرح لكل ما حل بالإمبراطورية من هزائم، وتعدها آية على الانتقام السماوي من « هراطقة خلقدونية » .

فتح الشام

دأب عرب الحدود النازلون على أطراف الشام على الغارة منذ زمن بعيد على مدن تلك الثغور ، ولذا لم تثر غارات المسلمين الأولى عليها أي قلق في بيزنطة . إذ حدث في (٦٢٩) قبل وفاة النبي بزمن طويل ، أن البيزنطيين صدوا هجوماً قام به العرب على جنوب فلسطين ؛ غير أن العرب ما لبثوا أن قاموا بعد ذلك بخمس سنوات بحركة أعظم قوة . إذ دخل جيشان من الجنوب

والشرق وأنزلا الهزيمة بقوات بيزنطة . وما وافت السنة التالية حتى كان العرب يعسكرون أمام دمشق . وبذل هرقل جهوداً جبارة باسلة لإنقاذ المدينة ولـكنها لم تجد نفعا ، وما لبثت أن اضطرت بعد ستة أشهر أن تفتح أبوابها . ثم أخذت المدن الباقية تخر الواحدة تلو الأخرى صريعة أمام الغزاة ، ولم تحافظ على كيانها إلا بيت المقدس وقيسارية وسائر المناطق الساحلية . واستعد هرقل بشجاعة لا تتزلزل لتوجيه ضربة فاصلة دفاعاً عن الشام . فلما أقبل الربيع ، زحفت على الشام قوات بيزنطية ضخمة جمعت فى أثناء الشتاء بعصبية محمومة . واستردت مدينة دمشق ، وتراجع العرب أمام القوات المتفوقة عليهم عددا إلى الجانب الآخر من نهر اليرموك . ودارت بهذه المنطقة عدة اشتباكات ، بلغت ذروتهـا فيما حل بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة على نهر اليرموك (أغسطس ٦٣٦) تقرر بها مصير الشام . وقد ألقى هرقل بكامل قواته فى تلك المعركة ، لذا أضاع ما أصابها من شامل التدمير كل أمل فى ملاقاة العدو مرة أخرى . ومن ثم لم تلبث الحصون أن سلمت واحدا بعد آخر . وما وافت (سنة ٦٣٧) حتى سقطت فى أيدى العرب المدن الساحلية : وهى عكا وصور وصيدا وبيروت : وشهدت السنة التالية سقوط بيت المقدس وأنطاكية ، وعندما سقطت قيسارية وهى العاصمة الإدارية للبلاد فى (٦٤٠) ، أصبحت البلاد بأسرها تدين للسيادة الإسلامية بالطاعة والإذعان .

وقد ركز العرب على الشام قواتهم الرئيسية المعدة للغزو ، ولم تـكن حملاتهم على العراق ذات نطاق واسع ، كما أنها لم تصب نجاحاً ملحوظاً . على أن ما أحرزه المسلمون فى اليرموك من نصر أتاح لهم أن يحولوا اتجاه الفتوح ، بعد أن دارت رحى معركة عظيمة فى القادسية (٦٣٧) ، كان أثرها فاصلا بالنسبة لبلاد الفرس كاليرموك بالنسبة لمستقبل الشام . إذ تراجعت الجيوش الفارسية بغير نظام بعد أن شتت شملها تماماً ، بينما سارع الملك إلى الفرار من عاصمة

ملكه . وعندئذ زحفت القوات العربية على المدائن (طيشفون) فاستولت عليها وانتهبتها . وسرعان ما اجتاحت جيوشهم أرض الجزيرة ، واندفعت جموع المسلمين إلى أعلى الدجلة والفرات ، ومضت فى سبيلها حتى اخترقت سلاسل الجبال الأرمينية . وفى نفس الحين ، واصل الفاتحون حلاتهم فى الإمبراطورية الفارسية حتى دانت ولاياتها الجنوبية والشرقية بطاعة العرب، أما آخر أكاسرة الفرس ، فإنه واصل الفرار شرقاً أمام الغزاة ، حتى لقى مصرعا غير كريم عند تخوم على تخوم بلاد الترك . ومما هو جدير بالملاحظة أن حضارة فارس الأصيلة التى لا تمت للسامية بأدنى صلة ، استطاعت بفضل تقاليدها الممتازة التى دامت نحو ألف عام ، أن تبدى من عنيد المقاومـــة للغازين مالم تبده بلاد الشام ولا العراق . إذ إن فتح فارس لم يكتمل حتى بعد انقضاء عشر سنوات ، ونجحت فارس فى الاحتفاظ بلغتها القومية وطرائق تفكيرها .

فتح وسط آسيا

لم يعد للإمبراطورية الفارســية وجود عند عام (٦٥٠) ، ولـكن قوة الاندفاع العربى لم تـكن تبددت بعد . ومن ثم صار لزاماً على أقاليم آسيا القاصية أن تتلقى آنذاك اندفاعة السيل العربى الجارف . وكما هو الشأن فى الغرب ، كان مما سهل تقدمهم ضعف الإمبراطوريات التى واجهتهم . فقد عمت الفوضى بلاد الترك الذين ظلوا قبل ذلك بحوالى قرن من الزمان سادة لآسيا الوسطى ، وانحلت عرى الإمبراطورية الضخمة لخانهم الأعظم فصارت مجموعة مضطربة من القبائل المتناحرة . وأخـذ فرسان المسلمين عند ذاك يزحفون قدماً على هراة وبلخ (٦٥١) . وتوقف الزحف ردحاً من الزمان بسبب ما نشب فى العراق من خلافات ثم لم يلبث أن مضى فى سبيله من جديد ، ولم تنقض عشرون سنة أخرى حتى سقطت أمام الزحف المظفر بخارى وسمرقند . وفى بواكير القرن التالى انسابت

موجة جديدة من الفتوح صوب الشمال الشرقى ، حتى بلغت تخوم الصين ، يوم بلغت أسرة تانغ الصينية الباهرة أدنى دركات الانحطاط ، وأوشكت التركستان الصينية على السقوط : لولا أن برزت قوى جديدة فى الصين ، فما وافى القرن الثامن حتى عادت الأمور إلى نصابها . وعنـد ذلك كانت قدم الإسلام قد توطدت راسخة بكل من بلخ وسمرقند،وسيطرت قبضته على التركستان الغربية، وأمسى متحكماً فى ممرات هضبة البامير ، وفى تلك الأثناء توغل الفرسان المسلمون فى الشمال الغربى من الهند . وكانت إمبراطوريات ذلك الإقليم وهى السند وكشمير والبنجاب تخضع لأمراء الجوبتا النازلين جنوبى تلك الإمبراطوريات. على أن هذه السيادة لم تلبث أن انهارت قرب نهاية القرن السابع ، ولذا فإن المد الكامل للفتوح الإسلامية الذى بدأ فى مستهل القرن التالى ، حمل راية العرب المظفرة إلى صميم حوض السند ، ووضع أساس العظمة التى بلغها فيما بعد أمراء البنجاب .

فتح مصر وشمال إفريقية

على أن فتح مصر إلى الغرب كانت له أهمية مباشرة بالغة ، وقد جاء على أثر فتح الشام ، وكما هو الشأن فى جميع الحالات السابقة ، سبقت احتلال مصر حملة نهب لقيت من النجاح المفاجىء ما شجع على القيام بعمليات أوسع . على أن القيام بالحملة كان أمراً لا مفر منه . فبالإضافة إلى ما تملكه مصر من الأراضى الغنية بالقمح ، وما لها من مركز عظيم الأهمية التجارية ، فإنها كانت مصدر تهديد مقيم لبلاد الشام الإسلامية ، كما كانت قاعدة بحرية دائمة لكل ما تشنه بيزنطة من هجمات مضادة . وكانت الإسكندرية هى المركز الرئيسى لبناء السفن فى شرق البحر المتوسط ، ثم قيض لها إبان القرون التالية أن تصير مهداً لقوة الإسلام البحرية النامية .

وعلى الرغم من أن تفاصيل الفتح ليست واضحة ، فقــد برزت فيه شخصيتان كبيرتان . فكان زعيم المقاومة البيزنطية هو البطريرك كيروس (Cyrus) ، الذى كان يتولى كذلك مقاليد الإدارة المدنية فى البلاد . وكان قائد القوات العربية هو عمرو بن العاص وهو قائد عنك أظهر جدارته فى حروب الشام . ويتركز الفتح فى حصار حصن بابيلون ، وهو يقع غير بعيد من القاهرة الحديثة . ومن العسير علينا أن نصدر تقديراً لسياسة كيروس المعقدة : إذ يبدو أن أهم ما كان يبغيه هو الوصول إلى اتفاق يتفادى به إهراق الدماء بغير جدوى ويحول دون تدمير الممتلكات ، وكانت نتيجة ذلك أن حصن بابيلون سلم فى (٦٤١) بعد أن صمد فى دفاعه عدة أشهر ، ثم فتحت أبواب الإسكندرية فى السنة التالية بمقتضى معاهدة كان الداعى إلى عقدها كيروس نفسه ، ثم تواصل بعد ذلك إخضاع ما تبقى من القطر المصرى ، وقد در ت سياسة المسلمين فى تلك الأيام الأولى كما أشرنا آنفاً على عزل العنصر العربى عن باقى سكان البلاد المفتوحة ، وجعل العرب طبقة حاكمة تنعم بامتيازاتها الخاصة . ومن ثم اختيرت عاصمة جديدة قرب حصن بابيلون القديم فظهرت فى الوجود مدينة الفسطاط أو مصر القديمة ، لتكون المركز الرئيسى لسلطان العرب ، مثلما حدث فى بلاد العراق أن مقر الحكم لم يجعل فى المدائن (طيشفون) بل فى الكوفة (بالقرب من الحيرة) ، لتكون قلعة العروبة الإسلامية . وعلى هذا النحو ، يمكن القول إن استكمال فتح شمال إفريقية بدأ بإنشاء مدينة القيروان الضخمة .

فتح شمال إفريقية

على أن فتح شمال إفريقية كان عملية بطيئة يثبطها عاملان رئيسيان : هما مقاومة البربر والنزاع على الخلافة . ومن المعروف أن الحروب العظيمة التى خاضها جستنيان قضت على الوندال ، وأعادت الرخاء إلى المناطق الساحلية ، ولكنها أخفقت دون القضاء على قوة مشايخ البربر وكبح جماحهم : فبقيت فى أيديهم مناطق بأ كلها ، ولم يصن الأراضى المزروعة من غارات القبائل سوى اليقظة المستمرة على امتداد شبكة الطرق العسكرية والمعاقل فضلا عن الأساليب الدبلوماسية والأعطيات المالية التى تصرف فى إبانها . على أن موارد الإمبراطورية استنزفتها حروب هرقل مع فارس وهجمات المسلمين ؛ وكانت عاقبة ذلك أن العاصمة (القسطنطينية) أصبحت عاجزة عن مساعدة ولايتها الإفريقية ، فضلا عن ضبطها والهيمنة عليها ، ولذا فإن حاكم قرطاجة شق عصا الطاعة على الإمبراطورية . فكأن الفتوحات العربية التى بدأت حوالى (٦٤٢) لم تلق والحالة هذه إلا القليل من المقاومة المنظمة ؛ ولكن الاحتلال الدائم للبلاد تأخر حتى نهاية القرن السابع . ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ما اتخذه شيوخ البربر منذ البداية من الروح العدائية للعرب . على أن الموقف لم يلبث حتى تغير بمجرد دخول رجال القبائل فى الإسلام . وقد تركز حكم قرطاجة وروما للولايات الإفريقية فى المدن الساحلية ؛ أما سيادة الإسلام فاستمدت قوتها من البربر سكان المناطق الداخلية ؛ ومن حشود البربر هؤلاء ، جاءت جموع المقاتلين الذين تدفقوا على مناطق ساحل البحر المتوسط ، حتى أزالوا بقايا الحكم البيزنطى وانتشروا عبر البحر إلى أسبانيا وصقليـة . ولا ريب أن البربر كانوا العامل الحاسم فى هجمات المسلمين على غرب أوربا .

أما العامل الآخر الذى سبقت الإشارة إليه على أنه عقبة فى سبيل تقدم

المسلمين ، فلم يبلغ من الأهمية هنا ما كان له فى الشرق . على أن النزاع على الخلافة قد أخر تماسك مصر ، وبذلك عوّق كل ما وراء ذلك من زحف أو تقدم ؛ يضاف إلى ذلك أن كل قائد يوفق فى حملاته كان يتعرض دائماً لإثارة غيرة الخليفة منه ، ولذا فإنه كثيراً ما كان يستدعى أو يعين قائد آخر مكانه. وحرص العرب منذ (٦٤٢) على الاستيلاء على إقليم برقة الساحلى (إقليم المدن الخمسة Pentapolis) الذى يقع غربى مصر مباشرة ، رغبة فى وقاية جناحهم الأيسر من هجمات البيزنطيين : ولكن إنشاء المعسكر العظيم بالقيروان فى تونس لم يتم إلا فى (٦٧٠) ، وكان الغرض من إنشائه اتخاذه قاعدة لمواصلة القتال والتوسع فى فتح ولاية إفريقية البروقنصلية . وحدث بعد ذلك بنحو اثنى عشرة سنة ، أن البربر الذين كانوا لايبرحون ضالعين مع المدن البيزنطية قاموا بعصيان عام ، رد المغيرين إلى برقة ، ولذا فإن الفتح النهائى لشمال إفريقية الذى تم فى السنوات الأولى من القرن الثامن ، لم يكتمل إلا بعد أن خضع البربر النازلون بجبال أوراس ، وبعد تمكن العرب من استرضائهم ، وبعد تركز الامتداد الإسلامى على البلاد الساحلية بفضل نمو البحرية العربية .

على أن مشكلة البربر ظلت على ماهى عليه : فلم تكن الإعانات المالية عاملا كافياً يضمن ولاءهم ، كما أن فتح أسبانيا الذى تلا ذلك مباشرة ، إنما يرجع إلى الحاجة إلى توفير الغنائم للحلفاء الجدد وشغلهم ببعض المشاغل. ويبدو أن الهجوم على أسبانيا الذى حدث فى (٧١١) — لم يكن فى البداية إلا واحدة من الغارات العنيفة التى كانت تهبط طوال العصور الوسطى على سواحل جنوب أوربا وجزرها ، وتعود محملة بنساء المناطق الريفية وبالتماثيل المحلاة بالجواهر والمنتهبة من الأديرة . على أن المغيرين كان ينتظرهم هنا نجاح لم يخطر لهم ببال . ففى أثناء سيرهم على امتداد الساحل ، التقوا بالقوط الغربيين وشتتوا شملهم ، وعندئذ بدأوا حركة تقدم وزحف ظافر ومهد السبيل للنصر

المؤزر كراهية الشعب للقوط ، وما كان من خيانة اليهود الذين أرادوا الانتقام لأنفسهم على ماحل بهم من اضطهاد . ولم ينقض شهران حتى سقطت قرطبة ثم تبعتها طليطلة بعد بضعة أسابيع . وقد انهارت مملكة القوط الغربيين كبيت مصنوع من ورق اللعب ، إذ أوهنت تقلبات الأسر المالكة على العرش قوتها ، وأضعفتها الخلافات والفتن الداخلية . وما عتمت هذه الانتصارات الرائعة السريعة التى أحرزتها جيوش المسلمين ، أن استقرت وتماسكت فى السنة التالية عندما عبر البحر والى إفريقية بأمداد وتعزيزات وفيرة ، واستطاع بعد معارك عديدة محكمة طرد فرسان القوط إلى جبال أستورياس ، ثم أعلن من طليطلة سيادة خليفة دمشق على البلاد . واستمر الزحف إلى ما وراء جبال البرانس ، ولم تمض سنوات قليلة حتى صار فى حوزة الجيوش العربية البربرية ساحل فرنسا الجنوبى حتى أربونه . ومن هذا المركز ظلوا فى الأربعين سنة التالية يناوئون المدن المجاورة ويرهقونها بالغارات : تولوز وآرل وآفينيون . ولكن الطرف الأيسر من الجيش الإسلامى الزاحف كان قد اقترب من النهاية وبلغ أقصى طاقته . ذلك أن أودو (Eudo) دوق قطانية (أكيتانيا) (Aquitaine) استبسل فى الدفاع عن أسوار تولوز ، وبلغ النضال أقصى غايته فى المعركة الحاسمة المعروفة باسم وقعة تور — بواتييه أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ ، التى هزم فيها شارل مارتل هزيمة ساحقة الجيوش الإسلامية . على أن الواقع أن شدة الغزو كانت تبدحت ، ولذا فمن المشكوك فيه إمكان قيام فتح دائم بجنوب فرنسا . وقد كثرت الأخلاط البربرية فى ذلك الحين فى الجيوش العربية ، كما أن بوادر العداوة بين الجنسين ازدادت عند ذاك وضوحا فى أسبانيا وإفريقية . هذا إلى أن مملكة أستورياس التى تقع فى الطرف الشمالى الغربى من أسبانيا ، والتى اجتذبت إليها جميع العناصر المناهضة للمغيرين ، كانت

تزداد فى كل يوم قوة ونموا ، وإذ صارت حاجزا على امتداد جبال البرانس، حالت دون تدفق المدد من الجنوب .

الخطر على بيزنطة

على أن الحضارة الأوربية تعرضت لتهديد أشد وطأة ، أخذ يشتد فى الطرف الآخر من البحر المتوسط ، حيث صارت بيزنطة الهدف الحقيق الذى يشخص إليه المسلمون ، ولقد كان هذا الهجوم الصادر فى الجناح الأيمن للإسلام أقوى كثيرا من سابقه بصورة مطلقة ، وذلك لأنه كان صادرا من قلب الإمبراطورية الجديدة ذاته .

ولما وافت (٦٤٢) كانت الكتائب الناهبة تمرح فى قبادوقيا ، ثم بلغوا فريجيا فى (٦٤٦) ، ولم يلبثوا حتى نفذوا إلى أنقره فى (٦٥١ ، ٦٥٣) ، أما الموقف فى أرمينية فكان بالغ الخطورة : إذ تم احتلال البلاد احتلالا منظما بين عامى (٦٤٦ ، ٦٦٦) . لقد كان مد الزحف متجها نحو بيزنطة فى حركات بطيئة متمهلة ، تخللتها هجمات مفاجئة . وبلغ الزحف مدينة خلقدونية فعلا فى فى (٦٦٨) . وفى تلك الأثناء كانت قوة البحرية الإسلامية فى نمو مطرد . فتسللت أساطيلهم من الموانى الإفريقية وفتحت كريت وليقيا وجزائر بحر الأرخبيل ، ولم تلبث قبرص حتى أصبحت قاعدة بحرية هامة . وكلما زادت أساطيلهم جرأة ، زاد ضغطها على العاصمة (القسطنطينية) ، ومالبثت العمليات الحربية أن بدأت بمنطقة الهلسبونت (الدردنيل) نفسها . ثم تعرضت القسطنطينية فى (٦٧٣) لهجوم بالغ الشدة من البر والبحر ، ولم يصد الروم ذلك الهجوم إلا بأقصى مشقة ، وربما كان للنار الإغريقية من أثر رهيب . ثم هدأت الحملات عشرين عاما تهيأ فيها للبيزنطيين وبيزنطة المرهقة فترة تنفسوا فيها

الصحراء ، وذلك لما وقع بين المسلمين وقتذاك من الفتن الداخلية ، فانتهز البيزنطيون الفرصة واستردوا أرمينية برهة قصيرة . على أن العرب ماعتموا أن عاودوا الزحف فى (٦٩٣) ، وتعرض البوسفور مرة ثانية للتهديد . وأخيراً حدث حصار القسطنطينية الكبير فى (٧١٧) ، وهب للدفاع عنها الإمبراطور ليو (لاوون) الأيسورى دفاعا بطولياً مجيداً أحرز من الانتصار الرائع ماأوقف تقدم المسلمين [١] مدة ثلاثة قرون بعد ذلك .

وربما أمكن اعتبار هذه المعركة إحدى المعارك الفاصلة فى التاريخ . وعندما ولى الغزاة وجوههم شطر بلادهم بعد حصار طويل دام عاماً كاملا أحرقت فيه وسائل نقلهم أووقعت بأيدى أعدائهم ، وفت فى عضد جندهم برد قارس ، وفتك بهم الوباء والمجاعة فتكا ذريعاً ، تخلوا لعدة قرون بعدذلك عن آخر مغامرة جدية لهم على عاصمة الإمبراطورية الرومانية . ذلك أن الأباطرة الأيسوريين أقبلوا على الدولة ينظمونها من جديد ، فشدوا بذلك من قوة الموارد الداخلية للمتلكات البيزنطية ، وبذلك قضوا على احتمال القيام بعمل مشترك على هذا المعيار الضخم . وآية ذلك أن العمليات البحرية بشرق البحر المتوسط أصبحت منذ تلك اللحظة مقصورة على غارات صيفية ، حتى شاركهم فى ذاك عرب المغرب الذين ملكوا صقلية وكريت . على أن ما انعقد لبيزنطة من مجد ، إنما يرجع إلى صمودها منفردة أمام قوة الإسلام الكاملة ، فى اللحظة التى بلغت فيها قوة المسلمين ووحدتهم ذروتها ، لا باعتبارها منفذة للتقاليد الإمبراطورية القديمة فحسب ، بل باعتبارها أيضاً صاحبة الفضل مستقبلا فى تخليص أوربا فى العصور الوسطى .

---

(١) عاود الإسلام تقدمه للمرة الثانية على يد الأتراك السلاجقة بعد معركة مانزيكرت (١٠٧١)

الفصل العاشر

الحضارة الإسلامية

لم يترك محمد (ص) للمسلمين من بعده أية خطة لولاية الحكم، كما أن وفاته حرمت الحركة من ينبوعها الرئيسي - ذلك أنه كان مرجعهم في كل شيء؛ فإن كلمة الله التي تصدر على لسان رسوله كانت هي العليا. ولم تلبث المناقشات حتى نشبت بين صحابته وهم أتباعه المباشرون، واقترن ذلك بثورة تمرد قامت بها القبائل العربية التي لم تألف بعد سيادة المدينة عليها، على حين نهض بجهات مختلفة من شبه الجزيرة العربية، جماعة من المتنبئة. على أن حروب الردة الدامية التي أفضت كما رأينا آنفاً إلى إلزام بلاد العرب كلها بالطاعة، كانت لها نتيجة مباشرة هي فتوح الإسلام الخارجية. بيد أنها كانت لها مع ذلك نتيجة أخرى هي قضاؤها على ما كان بين أحزاب المدينة من مناقشات لمواجهة الخطر المشترك. فاختير أبو بكر خليفة للنبي، لما له من وقار وهيبة واحترام، ثم تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب، وهو سياسي عبقري من الطراز الأول، وهو الذي وضع أساس الإمبراطورية الإسلامية بما أبداه من براعة في توجيه حملة فتح بلاد الشام. على أنه اغتيل في (٦٤٤) بيد مجرم من الروم أو الفرس، فتولى الخلافة من بعده عثمان أحد أفراد بني أمية .. وبدأت حركة انتقاض على الحكومة المركزية بين جند الكوفة ومصر الذين غلبت عليهم البداوة وزكاها باسم الدين خصوم عثمان - وبدأت في الخفاء مفاوضات مع مسلمي المدينة انتهت بمقتل عثمان على يد جماعة من جند مصر.

على أن عليا ابن عم النبي ، جانبه الصواب ، حينما رضى بأن يتولى الخلافة بعد عثمان ، وذلك بعد أن انسحب إلى مكة جميع المطالبين بها . ولما كانت البصرة هي التي تناصر هؤلاء المطالبين ، كان طبيعياً أن تناصر الكوفة علياً على منافستها ، وحقق له انتصار الكوفة على البصرة سيادة مؤقتة على العراق . وعند ذلك صار لزاماً على علي أن يلتقي بجيش معاوية والى الشام ، ومع أن النتائج الأولى للقتال لم تكن حاسمة ، إلا أن ميزان القوة العسكرية والرأى العام مالبث أن تحول رويداً رويداً إلى جانب معاوية . ولكن قبل أن يستطيع الطرفان الوصول إلى نتيجة حاسمة ، لقى على مصرعه فى أوائل (٦٦١) على يد أتباع حزب ثالث . وأعلنت خلافة الحسين[١] بالكوفة ، ولكنه تنازل عنها لمعاوية بعد ذلك ببضعة أشهر — ومنذ تلك اللحظة استتب الأمر للبيت الأموى الذى قدر له أن يحكم الإمبراطورية حتى (٧٥٠ م) .

وفضلا عن الأخذ ببدعة نظام الوراثة فى الحكم ، التى لم يكن فرضها على العرب من الأمور الهينة ، فإن هناك تغييرات هامة أخذت تدخل على نظام الحكم[٢] .

وجعلت دمشق عاصمة البلاد ، وحلت السلطة السياسية محل ما كان للمدينة من سلطة دينية ، وهى سلطة سياسية استمدت أجهزتها من النظام الإدارى البيزنطى . وبلغت قوة الأمويين أوجها فى مطلع القرن الثامن . وعلت كلمة الشام واستقرت سيادتها ، وقام على تنفيذ أوامر الخليفة بمختلف الأمصار ولاة أشداء . وجددت حملات العرب على بيزنطة بعنف زائد . وفى الغرب أضيفت أسبانيا إلى ممتلكات الإمبراطورية ، على حين تقدمت الجيوش الإسلامية شرقا

---

(١) الحقيقة أن الذى تنازل عن الخلافة هو الحسن . [المترجم]

(٢) انظر ص ٢٦٥ — ٢٦٦ من هذا الكتاب .

حتى بلغت البنجاب ، وتوغلت فى أواسط آسيا . وقام بدمشق بلاط رائع ، ازدهر فى ظله الشعر وتقدمت العلوم ، كما أن المسجد الأموى بدمشق ومسجد عمر ببيت المقدس يعدان مظهرا لازدهار ثان أصابه فن العمارة البيزنطى ، بفضل ما اجتمع للعرب من الثروة .

سقوط الدولة الأموية

وهنا أخذ الانهيار يتطرق إلى الدولة . إذ إن الفترة الأخيرة من تاريخ الأمويين ، ليست إلا فترة تعاقب فيها على الخلافة خلفاء قصار العهود ، ونشبت فيها المنازعات الشديدة وشبت فيها الثورات العديدة . وانبعثت المعارضة للبيت الأموى من جهات كثيرة . ولم يحدث قط أن أئمة المدينة المؤمنين بالحكم الدينى (الثيوقراطى) الانتخابى أظهروا فى أى يوم رضاهم عن العظمة التى بلغتها بالشام جماعة القواد والساسة الوطنيين ، ولذا لم يكن بد من أن تواجه الدولة مؤامرات مستمرة فى ذلك البلد . وتطورت المنازعات المحلية حتى غدت تنافساً بين القيسية عرب الشمال وبين اليمنية أو القحطانية عرب الجنوب ، وما لبثت أن انتشرت بكل أرجاء الإمبراطورية . كما أن ما أحدثته الفتن الداخلية من التمزق والانقسام فى إفريقية وأسبانيا لا يقل عما أحدثته فى العراق وخراسان ، بل إن أصداء التنافس ترددت داخل البيت الأموى نفسه وتمخضت عن كثير من الاغتيالات داخل القصر وعن عزل العديد من الخلفاء . على أن ألد أعداء تلك الدولة كانوا هم الشيعة ، الذين استقرت قيادتهم العليا ببلاد العراق . ومن المعلوم أن الكوفة جعلت عاصمة للدولة أيام خلافة على القصيرة الأجل . ولذا لم تبرح لتلك الذكرى الذهبية صورة ماثلة تزيد فى حدة الشعور بالكراهية والامتعاض نحو أهل الشام الذين تفوقوا فى القوة والحضارة . ولم تلبث حركة الشيعة أن اتشحت رويداً بتلك الألوان العاطفية الخادعة التى تتخذها كل نحلة

دينية . فرفع على وابنه الحسين اللذان سقطا دفاعاً عن قضية أهل الكوفة إلى مصاف الشهداء والصديقين . وصار صهر رسول الله وسبطه الحسين شهيدى الإسلام . وأصبح لسلالتهم أو لفئة معينة منها على الأقل (وهى مسألة أثارت خلافاً جديداً) الحق الشرعى دون غيرهم فى تولى الخلافة . على أن الثورة لم تنبعث من العراق ، بل من فارس . فعلى الرغم من أن فارس ظلت على الجملة موالية لبنى أمية أيام رفعتهم ، كما بقيت بعد سقوطهم أشد إخلاصاً لذ كراهم من أية ولاية أخرى عدا الشام ، إلا أن أطرافها الشمالية الشرقية كانت مسرحاً لثورة غيرت وجه العالم الإسلامى بأ كمله .

وقد ظهرت فى خراسان حركة قويةمناهضة لأهل الشام والأمويين يؤيدها عرب الجنوب القحطانية ويسيطر عليها النفوذ الفارسى ، وتولى مرشحها أبو العباس الملقب بالسفاح ومؤسس الأسرة العباسية خلافة المسلمين ، فأمعن فى سفك الدماء إمعاناً يبرر إطلاق اللقب عليه . وراح يطلب أفراد البيت الأموى ويقتلهم الواحد بعد الآخر ، ولم ينج منهم إلا واحد لاذ بالفرار غربا حتى بلغ أسبانيا ، وهناك استتب له الأمر واستولى على مقاليد السلطان وفى تلك الأثناء أحرقت رفات الأمويين السابقين وذريت فى الريح ودمر كل ماشيدوا من قصور وقناطر سقاية تدميراً شاملا . ذلك أنه قد حانت بداية عصر جديد ؛ وذلك هو الشعار الذى اتخذه الفاتحون .

الإمبراطورية الإسلامية

وكان الفاتحون فى ذلك على جانب الصواب . إذ يسجل انتصار العباسيين تغييراً شاملا فى الإمبراطورية الإسلامية ، كما يتبين ذلك فيما بعد فى كل مايتعلق بالأمور الإدارية والاجتماعية . فمنذ تلك اللحظة تخلى الفاتحون العرب عن مكانتهم السامية الانعزالية . فقد ظهرت أهمية ما كان من تزايد عدد من اعتنقوا

الإسلام ، وضرورات الحكم والإدارة والتجارة ، وتفوق الشعوب المغزوة فى الكثرة والحضارة . فلم يعد الإسلام دين السيد الأعلى العربى ؛ بل أصبح القوة التى يرتبط بها المسلمون من جميع الأجناس . والخليفة هو رمز تلك القوة . فلم يعد ذلك الخليفة كشأنه فى عهد الأمويين المدبر لخطط الفتح والاستغلال ، يسانده فى ذلك جنس ملكى إمبراطورى . وعلى الرغم من ازدياد أجهزة الحكم وتعقد النظام الإدارى ، فإن أقاليم الإمبراطورية الإسلامية نجحت فى تحرير نفسها مما للسلطة المركزية من هيمنة سياسية ، على حين ظلت على ولائها لسلطة تلك الحكومة الدينية ـ وكانت أسبانيا أولى البلدان التى انفصلت عن الدولة . فنى (٧٥٦) نودى بعبد الرحمن ، آخر من بقى حيا من الأمويين ، أميرا وأخذ يحكم البلاد بوصفه أميرا مستقلا . ولم تلبث ولاية إفريقية أن حذت حذوها . فنى (٧٨٨) أسس إدريس بن عبدالله ، وهو من سلالة على إمارة مماثلة بمراكش ، هى إمارة الأدارسة التى جعلت فاس عاصمة لها . وهنا أيضا لم ينتقض أحد على السلطة الدينية للخليفة ، وإن كان الأمير مستقلا بالفعل ـ واستقرت فى القيروان بأرض تونس إمارة أهم من إمارة الأدارسة . إذ إن إبراهيم بن الأغلب حوالى (٨٠٠) أسس أسرة الأغالبة ، الذين سيطرت قوتهم البحرية طوال القرن التاسع على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وواصل المسلمون فتح صقلية حتى تم لهم ذلك فى (٩٠٢) . ولم يكفوا عن الغارة على جنوب إيطاليا وإعمال السلب فيه ، وفى (٨٤٦) كانت روما نفسها مسرحا لإحدى مغامراتهم الجريئة . وحوالى (٨٧٠) وقعت فى أيديهم مالطة التى تعتبر مفتاح التجارة الغربية على حين أن مدن البحر الأدرياتى ، ظلت آنئذ على الدوام تحت رحمة القراصنة المسلمين المغيرين عليها . ولم يتم دفع العرب إلى إفريقية إلا بعد قدوم النورمان فى النصف الثانى من القرن الحادى عشر . على أن مصر لم تنفصم روابطها نهائيا بالسلطات العباسية إلا عند الفتح الفاطمى لها فى (٩٦٩) ، وعندئذ تنصلت

مواردها التى كانت فيا سلف تنصب فى خزائن بغداد إلى تجميل القاهرة ، وأصبحت فى أثناء القرون التالية من أزهى عواصم العالم الإسلامى وأفخمها .

وأخذت الأقاليم فى الشرق والغرب تنسلخ ويستقل الواحد منها بعد الآخر ، حتى إذا وافى القرن العاشر الميلادى ، لم تعد الإمبراطورية الإسلامية وحدة سياسية . على أنه ساد أرجاء الإمبراطورية الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها وحدة من نوع آخر ، لاتقل أهمية عن الوحدة السياسية ، غير أنها لاتضارعها من الناحية المادية . فلم يكن عبثا أن نفس الأذان الداعى إلى الصلاة ، كان ينطلق فى نفس الوقت من مآذن قرطبة والقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد ، وأن كل الوجوه كانت تتجه كل يوم صوب مكة ، وأن كل القلوب كانت تهفو إلى الذهاب إلى تلك البقعة المقدسة أداء لفريضة الحج . وثمة رابطة أخرى اجتمعت إلى وحدة العقيدة هى وحدة اللغة ، ذلك بأن العربية أصبحت فى كل مكان لغة الدين ووسيلة العلم الصحيح ، وأكبر آية على مابلغته بغداد من مكانة وفخامة مسارعة جميع الأقاليم إلى محاكاة نظام الحكم فيها وتقليد عرفها وعمارتها؛ كما أن فيض التجارة الدافق الذى ينساب برا وبحرا من أقاصى أرجاء آسيا إلى المحيط الأطلسى ، أحاط مختلف شعوب الإسلام بشباك حضارة خصبة متعددة الجوانب .

النظام الإدارى فى حكم العباسيين

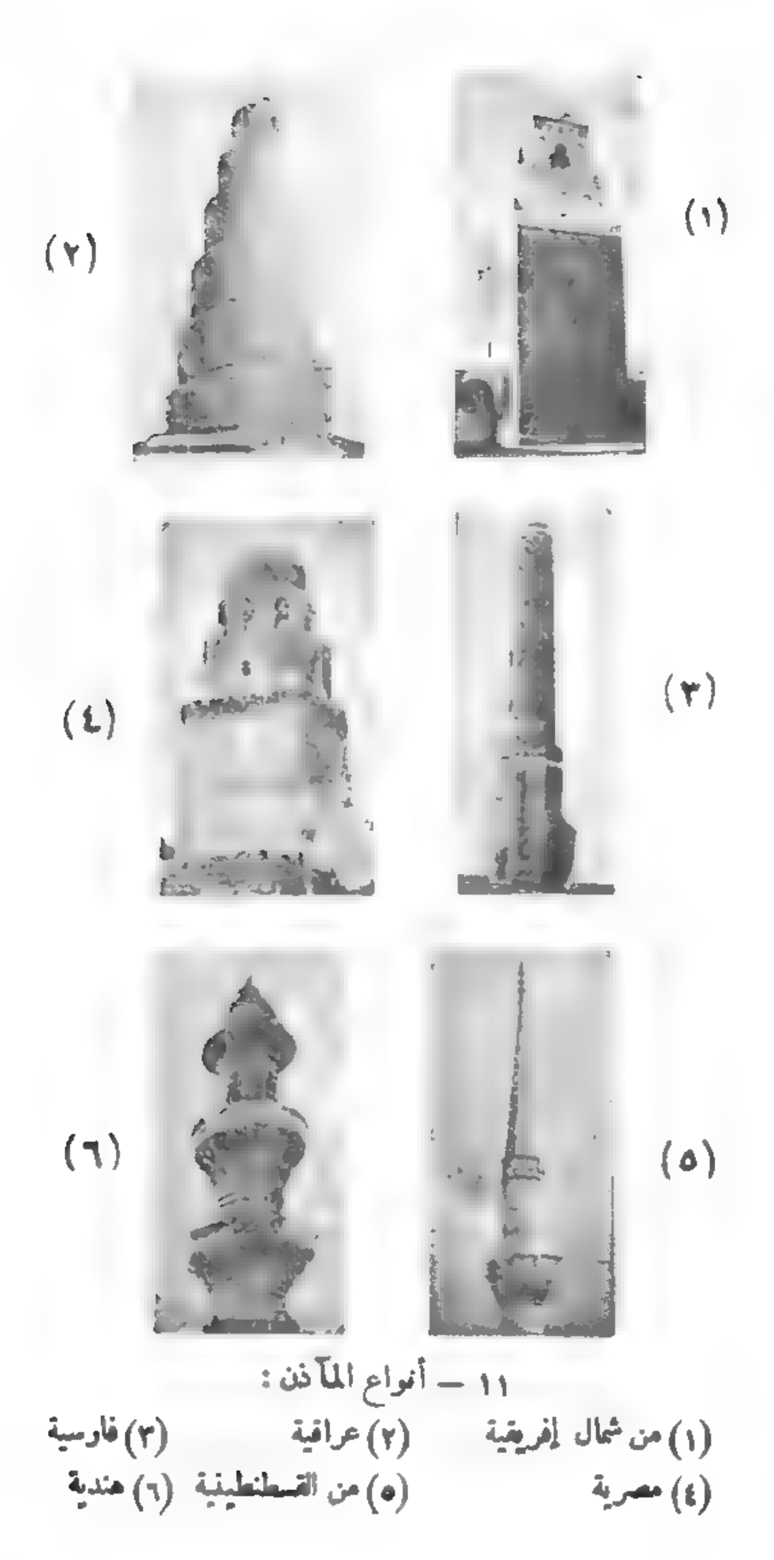
وفى أيام الإسلام الأولى التى تقدم محمد (ص) فيها أتباعه فى المدينة للالتقاء عسكريا بالقوافل ، كان كل مايحتاج إليه الأمر من التنظيم المالى هو تقسيم بسيط للغنائم . واستمر هذا الأمر طويلا فى المرحلة التالية ؛ وذلك لأن الإمبراطورية الأموية فى عهدها الأول كانت فى واقع الأمر تقوم على نظام الغنائم . فكان



١٠ — (ا) صورة فسيفساء من المسجد الكبير بدمشق



١٠ — (ب) صورة نقش محفور من المشتى



١١ ــ أنواع المآذن :

(١) من شمال إفريقية (٢) عراقية (٣) فارسية

(٤) مصرية (٥) من القسطنطينية (٦) هندية

الفاتحون العرب ينزلون فى معسكرات حربية ضخمة ، ويأخذون الجزية التى كانت تفرض على الشعوب المقهورة . ثم يرسل فائض الدخل إلى بيت مال المسلمين بالمدينة ، فيوزع منه الخليفة الأعطيات على الناس.

وسرعان ما تجلى للقوم أن هذه الخطة لا تكفى للقيام بحاجات الإمبراطورية. وكلما زاد الإسلام انتشارا بين الناس، تضاءل ما تحصله الدولة من الخراج؛ وذلك لأن الذميين وحدهم هم الذين كانوا يدفعون الجزية - وعندما زادت هذه الطبقة نفوذا وصوتا ، لم يكن بد من أن تثير شكاياتها المتاعب ، وتبين آخر الأمر أن هـــذه الطبقة كانت من أهم العوامل التى أدت إلى سقوط الدولة الأموية . وأخذت الأنفس تضيق رويدا رويدا بالنظرية القائلة بشعب أو عنصر ممتاز مسيطر يرتهن فى يمينه شعوبا ومناطق مترامية . وتتجلى إحدى مراحل تلك العملية فى الحل الوسط الذى تم به إلزام جميع أصحاب الأراضى ، بدفع الخراج (أى ضريبة الأراضى) إلى بيت المـال ، بغض النظر عن عقيدتهم ، بينما التزم الذميون بدفع ضريبة الرءوس (الجزية) ، لتــكون آية واضحة على تفوق المسلمين .

ولم يكن انهيار هذا النظام القائم على الاعتزال والسيادة العنصرية إلا واحدا من التغيرات العديدة التى آذن بها قيام الدولة العباسية . إذ إن الممتلكات الإسلامية قد انتزعت من قبضة إمبراطوريتين عريقتين فى الحضارة : هما فارس وروما . ولم يكن للعرب من الخبرات السابقة ما هيأهم للنظم الإدارية المعقدة التى اقتضتها ضرورات أحوالهم الجديدة . وكانت النتيجة أن الفاتحين احتفظوا فى كل من مصر والشام بالجهاز الحـكومى البيزنطى ، كما أن البرديات المـكتشفة حديثا تشهد بمواصلة الغزاة الاحتفاظ بالنظم المالية والإدارية بهذين القطرين . ولما انتقلت العاصمة إلى بغداد ، كان لنفوذ الفرس

أثر محسوس فى الحكومة المركزية . إذ لم تكن العاصمة الجديدة لتبعد أكثر من ثلاثين ميلا عن طيشفون (المدائن) ، وهى العاصمة القديمة لملوك الساسانيين. ولم تلبث الأسرة الجديدة (العباسية) أن حاولت مزج المنصرين الفارسى والعربى ، وإقامة توازن متكافئ بين الطرفين . وأشد مظهر لهذا التغير إنما يتصل بمركز الخليفة نفسه . فقد كانت السلطة الصادرة عن المدينة تتخذ طابعا روحيا فى عهد أبى بكر الذى ولى الخلافة بعد النبى مباشرة . على أن ساسة بنى أمية فى دمشق حولوا هذه السلطة فيما بعد إلى سيطرة سياسية منظمة ، وإن بقيت آثار من أصلها العربى فيما عرف عن الحكم الأموى من التمسك بأساليب القومية العربية . أما الخلافة العباسية فإنها تعد بمعنى ما ، عودة إلى مبادئ الإسلام الأصلية . وذلك لأن الحركة التى أوجدت تلك الخلافة قد غلب عليها الطابع الدينى إلى حد كبير ، وهى تعتبر رد فعل طبيعى للطابع الدنيوى الذى اشتهر به الأمويون ، وكانت النتيجة المنطقية أن الحكام الجدد حرصوا على دعم سلطتهم بنظريات فقهاء المدينة ، وهى نظريات اقتبسوها من نصوص القرآن واستندوا فيها إلى بعض الأحاديث النبوية ، وتجلت فيها الاستفاضة والمعاناة فى البحث والدرس ، وذلك لأن فقهاء الحجاز المؤمنين بالحكم الدينى (الثيوقراطى) ، ظلوا نيفا وقرنا من الزمان نافرين ومبعدين عن كل مشاركة فى حكم المسلمين القائم بدمشق . وكان حكم الخليفة العباسى مطلقاً من الناحية النظرية. غير أن هذا الحكم المطلق كان مقيدا من نواح عديدة. فإن سيادة الخلفاء على مختلف الإمارات كانت كما أسلفنا إليك سيادة ظاهرية لا حقيقية ، بل إن سلطة الخليفة فى العاصمة نفسها كثيرا ما طغت عليها سلطة الوزراء . وكان الخلفاء الضعاف يقنعون بالانسحاب من مشاهد الصراع فى الحياة العامة وينصرفون إلى إشباع رغباتهم بمعزل عن الدنيا ، تاركين لموظفيهم شئون

الحكم فى الإمبراطورية ، وموكلين بجنـــدهم الخراسانية أمر حراسة أشخاصهم . ولم يفت قواد الجيش أيضاً أن يحرزوا نصيبهم من السلطان السياسى ، إذ كثيراً ما كان رجال الجيش ينصبون الخلفاء ويعزلونهم .

وكانت تتبع الوزراء سلسلة معقدة من الإدارات الحكومية وهى المعروفة بالدواوين ، التى تتولى شئون بيت المـال والقضاء والجيش والديوان الخاص وما إلى ذلك . ومن أهم هذه الدواوين ديوان البريد ، وهو مثال طريف للطريقة التى ورث بها الخلفاء تقاليد كل من روما وفارس . فإن لفظة « البريد » منقولة عن اللفظة اللاتينية (Veredus) ، أى الحصان المخصص لنقـل الرسائل ، ولا يختلف نظام البريد عما كان معروفاً باسم (Cursus pudlicus) أى المراسل العام فى أنه نظام حكومى ، الغرض منه تحقيق سيطرة الحكومة المركزية ، وضمان سرعة انتقال الجند والموظفين . ومن مظاهر نظام البريد ما يرجع أيضاً إلى النظام الفارسى فى عهد الأخمينيين ، الذى وصفه هيرودوت : وكان من بين أغراض نظام البريد العباسى كسلفيه الأقدمين ، مباشرة الجاسوسية التى كانت تمارس على نطاق واسع فى كل طبقات المجتمع . على أن مابلغته هذه الجاسوسية من نمو متزايد جعلها من أهم أجهزة الحكم ، يعد نموذجاً لما ساد بغداد من طرائق الحكم الشرقى . فلم يكن للحكومة ثقة بأى موظف ، حتى أسرة الخليفة نفسها كانت موضع رقابة شديدة . وكانت الشرطة تؤلف جزءاً هاماً من إدارة المخابرات ، وتشمل واجباتهم التدخل فى أدق تفاصيل الحياة اليومية ، ومما زاد فى تقييد حرية الرعية ، ما زخرت به كل مدينة من عدد ضخم من الموظفين المحليين والقضاة وجباة الضرائب والقائمين على أملاك الخليفـة .

وكان التغير الذى أحل حكم العباسيين ذا الطابع العالمى ببغداد محل حكومة دمشق القوميـــة ، نتيجة أخرى هى التعجيل بامتزاج الغالب

بالمغلوب . فمنذ تلك اللحظة ، صار الجميع يخضعون لحاكم واحد ، على أن الواقع أن عملية التسوية بين الجميع بدأت فى عهد بنى أمية . فطالما كان العربى — وهو القليل العدد والمحدود علماً — يحتفظ لنفسه بفضل امتلاك العقيدة الحقة ، ويعيش فى عزلة شديدة كأنه من أهل إسبرطة ، ويتباعد عن القطيع العام من الناس بعسكره المسلح ، ويحصل على عيشه من أعطيات الخليفة ، فإنه بفضل ذلك كله كان مستطيعاً الاحتفاظ بمركزه الأمين الممتاز . ولكن هذه الامتيازات لم تدم طويلا . وكان من العوامل التى أفضت إلى ذلك ، أن الحرص على المصالح المادية وإغفال الاهتمام بالدين ، أديا إلى تزايد عدد من اعتنقوا الإسلام من غير العرب ، فنقصت بذلك الجزية المجبية من الذميين ؛ كما أنه حدث من ناحية أخرى ، حينما انتهت حروب الفتح ، أن لم يعد العرب يعيشون على الأعطيات التى يتقاضونها من الدولة ، وصاروا أصحاب أرض وفلاحين أو تجاراً صغاراً يخضعون للقوانين الاقتصادية والصفات الاجتماعية السائدة فى البلاد التى يتصادف استقرارهم فيها . وكان لابد له من التعليم والقدرة الفكرية إن هو شاء الاحتفاظ بمكانته . ذلك أن الحضارة المعقدة التى استقرت ببلاد الإسلام أيام بيزنطة ظلت ماضية فى سبيلها دون تغير كبير ، وظلت كدأبها فى الماضى تحتاج إلى المحنكين فى الشئون الإدارية . وقد دعت الحاجة المسلمين حتى فى أيام الفتح إلى استخدام المسيحيين فى أعمال تتطلب الثقة وبخاصة فى الشئون المالية : كما أن تسامح بنى أمية إزاء غير المسلمين ، أفسح لهذه المجتمعات مجال اليسار المادى على شريطة تسديد الضرائب المقررة ؛ وهى ضرائب لم تكن فى جملتها أثقل بأية حال من تلك التى كانت تبتزها الحكومة البيزنطية . ومنح المسيحيون نصيباً كبيراً من الحكم الذاتى ، فزخرت البلاد بالكنائس والأديرة . ومما له دلالته ، أن هذا الزمان امتاز بما بذله النساطرة من نشاط تبشيرى تغلغل فى آسيا حتى بلغ الصين نفسها .

ومع ذلك، فقد مرت أوقات كان للتعصب الديني فيها سلطان غالب على النفوس. ولم تجد نعرة الكبرياء العربية متنفساً تعبر فيه عن نفسها خيراً من المراسيم التي تحرم على النصارى امتلاك أرقاء مسلمين وتنكر عليهم أنواعاً منوعة من الامتيازات القانونية، بل حتى تصر على ارتدائهم زياً خاصاً. على أن الاتجاه الرسمي ظل في جملته ينزع إلى التسامح، كما أن تناقص عدد المجتمعات المسيحية لا يرجع إلى الاضطهاد الديني بل إلى أسباب أخرى. فإن الطبقة المتعلمة من أبناء العقيدتين كانت تكتشف أن بين الديانتين أسساً كثيرة مشتركة، كما أن تطورات الفكر الإسلامي بكل من مصر والشام تشهد بتأثير الفكر المسيحي. وكما هو الشأن في أيامنا هذه بذلت محاولات للتوفيق بين الدين والعلم الحديث، ولذا فإن الأساس الفلسفي للعالم القديم الذي يمثل خلفية تم التوفيق بينها وبين المسيحية إلى حد ما، قد وجب آنذاك اللجوء إليه لشرح شعائر الإسلام وعقائده، حتى يلقى الدين الجديد قبولا لدى المفكرين. على أن غير المفكرين كانوا في الحين نفسه يرون أن التوفيق الرائع الذي أصابته الجيوش العربية تتجلى فيه رعاية الله وصنيعه، فلم يسعهم إلا الإذعان للأمر الواقع. وثم عامل أخير كان له أثر عظيم في أخيلة الناس، هو ما ذاع في الآفاق من سنا العظمة من العواصم الإسلامية الكبيرة، التي كانت تتشكل بها حضارة زاهرة متأثرة بجميع العوامل حديثها وقديمها. فقد حدث في أسبانيا مثلا، أن لاتينية المؤرخين وعلماء الدين (اللاهوتيين) ذات الطابع المتبربر لم تستطع أن تصمد تلقاء ما للشعر والأدب العربي من جمال فاتن: فإن كاتباً من أبناء القرن التاسع شكا مر الشكوى من أنه يوجد بين المسيحيين أنفسهم من يقدرون جمال اللسان العربي تقديراً يفوق كثيراً تقديرهم لكتاب الآباء الأولين.

التجـــارة

وكان اتساع التجارة العظيم التالى لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، من التطورات الرئيسية التى فرضت عليها تلك الوحدة السابق الإشارة إليها . فبالإضافة إلى أن صناعات مصر والشام وهما أغنى أقاليم الإمبراطورية البيزنطية ، واصلت كسابق عهدها إنتاج المصنوعات الزجاجية والمنسوجات وغيرها من السلع المصنوعة ، فإن العهد الجديد حقق للتجارة مزايا خاصة . ذلك أن العربى ما يكاد يستقر حتى يتجه بطبعه إلى الاشتغال بالتجارة . وكان رخاء مملكة الحيرة يقوم على أسواقها العظيمة ، وذلك هو الشأن فى رخاء اليمن القائمة فى الطرف الأقصى من الجزيرة العربية ، ومرجعه إلى البضائع الأسيوية التى كانت تمر بمينائها ، بينما كانت أسواق مكة وقوافلها تشكل الصناعة الرئيسية فيها . وكان النبى نفسه تاجراً ، والقرآن يجعل للتاجر منزلة كريمة . ولذا فإن أحوال الحياة الاجتماعية الإسلامية تفوق فى ملاءمتها للنشاط التجارى أحوال العالم اليونانى بما اشتهر به من احتقار لكل صاحب حرفة . ولا تنس أن التركيب الجغرافى للعالم العربى كان يوائم تلك الغاية بصورة خاصــة . فقد انتهى عند ذاك ما كان بين روما وفارس من عداوات أوقفت تدفق التجارة بين الشرق والغرب ، وبذا أصبحت تخضع لأمير واحد كتلة متماسكة من الأرض ، تمتد مترامية من المحيط الأطلسى إلى سهوب آسيا الوسطى . ولم يعد البحر الأحمر والخليج الفارسى خصمين متنافسين ، بل أصبحا طريقين متبادلين ، وبذا أصبح كل ما يصل إلى أوربا من ذهب وعاج من وسط إفريقيا ، ومن توابل وعطور من الشرق الأقصى ، لا منـدوحة له أن يمر على أيدى المسلمين . ومما يجدر ملاحظته أن المدن الكبرى بالإمبراطورية إنما تقع عنـد التقاء طرق المواصلات الطويلة . فمدينـة

دمشق التي تقع عند نقطة تقترب فيها القوافل القادمة من وسط آسيا من البحر المتوسط ، كانت تتلقى كذلك تجارة مصر والشام وما يرد من السلع عن طريق البحر الأحمر . أما القاهرة فكانت سوقا للمنتجات الخام الواردة من آسيا وإفريقيا ، كما أنها كانت مركزا صناعيا ، وكانت تنتشر من مصر على ساحل البحر طائفة من المدن التجارية الزاهرة تؤدى إلى عواصم شمال إفريقيا وأسبانيا . وقد بنيت البصرة على نهر الفرات بعد فتح فارس بزمن وجيز ، وذلك بقصد السيطرة على الخليج الفارسي وتجارته الشرقية . ولكن سرعان ماطغت بغداد على أهميتها . وشقت بين دجلة والفرات قناة ربطت بين بغداد وبين الطرق البرية القادمة من آسيا الصغرى والشام ومصر، على حين أن القوافل المقبلة من آسيا الوسطى كانت تهبط عند أبوابها قادمة من مرتفعات فارس وبخارى . بيد أن التجارة البحرية كانت أرحب مجالا . وتروى قصص السندباد البحرى التى تصور ذلك الرجل مقيما فى أوائل القرن التاسع فى عهد الخليفة العباسى هرون الرشيد ما يشير إلى أن جميع رحلاته تبدأ من بغداد ، كما أن كثيرا من الأحداث والأماكن المذكورة فيها ، يمكن تحقيقها من مصادر أخرى . وتصف كتب الأسفار العربية التجارة فى سيلان وملبار ومدن السواحل الهندية . وتشير السجلات الصينية إلى ما كان بالصين من تجار العرب فى عهد أسرة تانج . بل إن منهم من بلغ كوريا . وفى الغرب ، أظهرت موانى مصر وشمال إفريقية نشاطا مشهوداً ، كما أن السفن المصرية والإفريقية كانت تربط مدن الساحل الجنوبى من البحر المتوسط حتى أسبانيا غربا . على أن تجارتهم مع فرنسا وإيطاليا كانت ضئيلة لاتكاد تذكر ، إذ كان المسلمون يهبطون هذه الشواطىء قراصنة لاتجارا . وظلت بيزنطة مركزاً للتجارة الأوربية ، ولم يلتق المسلمون والمسيحيون لتبادل السلع إلا فى القرن العاشر ، حيث بدأ العرب يجوسون خلال أسواق بيزا وأمالفى تجاراً آمنين .

على أن تأثير التجارة الإسلامية كان محسوسا فيما وراء حدود الإمبراطورية الإسلامية بآماد شاسعة . ففي الشمال كانت طرابيزون مركزا هاما للتجارة ، لا يؤمه التجار من أجل سوقها فحسب ، التي اجتذبت إليها التجار من كل أرجاء الشرق الأدنى ، بل لأنها أيضاً كانت نقطة الحدود التي تلتقي عندها تجارة الروم والعرب . وبهذه الوسيلة كانت المنسوجات والمصنوعات المعدنية وغيرها من المنتجات تتخذ طريقها إلى القسطنطينية ، ومن الممكن ترسّم أثرها في الحضارة البيزنطية . وكان سيل من التجارة يتدفق في مجرى الفولجا وغيره من الأنهار ، ويصل إلى وسط الروسيا واسكنديناوه عن طريق مملكة الخزر . وآية ذلك أن مقادير ضخمة من العملة الإسلامية معظمها من خراسان والجهات الشرقية للخلافة الإسلامية ، اكتشفت بجهات نائية مثل ألمانيا وأقاليم البلطيق ، ويدل مصدرها واتساع توزيعها على ضخامة حجم التجارة بين الأقاليم الأسيوية وشمال أوربا ، وهي تجارة بلغت ذروتها في السنوات الأولى من القرن التاسع .

ومما زاد في حجم التجارة و نشاطها داخل العالم الإسلامي ، رحلات الحج التي تدعو إليها العقيدة الإسلامية والتي كان الخلفاء يشجعونها . وعنيت الدولة بتحسين المواصلات بما احتفرت من آبار وما شادت من فنادق القوافل (المسافر خانات) ، وأقيمت الأسواق الكبيرة بمراكز الحج . وكلما فقد الحكام العرب المثل العليا التي استنها لهم نبيهم ، والأخلاق البسيطة التي أورثها لهم أسلافهم ، نقلوا عن الإمبراطوريتين القديمتين اللتين حلوا محلهما حب الترف والمظاهر ، فأحاطوا أنفسهم بأبدع المباني وأفخر الرياش ، فازداد بذلك الطلب على المنتجات الدقيقة والسلع المستوردة .

الأدب الإسلامى

إن التطور الذى نالته حضارة الإسلام الروحية قد سار جنبا إلى جنب مع حضارته المادية . وكما أن الفاتحين العرب أدركوا أن من الضرورى لهم تكييف عاداتهم وفق النظم القديمة التى هى أعلى تطوراً وقد وجدوها عند الشعوب المقهورة ، فقد حدث أيضاً أن الفقهاء أدركوا ـ وقد واجهتهم فى الخارج فلسفات متضاربة متناحرة واصطكوا فى الداخل بنزعات متشعبة ـ أن عليهم أن يوضحوا القرآن ، بأن يقيموا على أساسه السهل صرحا ضخما من التعقيبات والشروح . ولما كان القرآن لديهم المصدر الأعلى للدين والشريعة والأخلاق ، صار من الضرورى لهم التوفيق بين آياته وعمل تصنيف لتلك الآيات ووضع ترتيب لها. والتماساً للقواعد والأحكام حاولوا باستخدام القياس والاستنباط أن يجعلوا أحاديث الرسول تنطبق على أحوال لم يكن يتوقعها . ومن ثم فإن الأصل فى شطر كبير من الإنتاج الأدبى الرائع الذى ظهر فى العهد العباسى ، إنما يرجع إلى دراسة القرآن . بل إن أول دراسة علمية للنحو العربى ، لم تتم فيما تقول الروايات ، إلا بقصد المحافظة على نص القرآن . ومهما يكن الأمر ، فإن تطور اللغة العربية كلغة أدبية مرتبط ارتباطا وثيقاً بما أحسه أتباع العقيدة من حاجة إلى الشرح والتوضيح . واقتضت الرغبة فى تتبع تعاليم النبي ، إجراء دراسة حول حياة النبي وتقاليد أسرته. فإذا اجتمع ذلك بدراسة حياة الأبطال الأوائل للإسلام ، تهيأ الباعث لكتابة التاريخ ، التى جعلها المؤرخون المسلمون تنطوى على قدر كبير من التراجم والنوادر . وعلى هذا النحو ظهرت طائفة ضخمة من المصادر التى تعالج الفقه ، واستندت أساسا إلى القرآن ، باعتباره الينبوع الأول والمرجع الأصيل .

أما من حيث علم أصول الدين ، فإن المفكرين المسلمين أخذوا يواجهون من المشاكل ، ما يماثل ماسبق أن كدر صفو الكنيسة فى مستهل أيامها .

وبتأثير مدارس الفلسفة اليونانية بدأ القوم يستخدمون الاستدلال المنطق فى موضوعات من أمثال وحدانية الله وصفاته ومسألة الجبر والاختيار . وفى أثناء النصف الأول من القرن التاسع بلغ التحدى للسنيين الذين يلتزمون حرفية التقاليد القروة فى تلك المحاولة المنظمة التى بذلت للتوفيق بين العقل وسلطان الدين وفازت الفلسفية الكلامية الرسمية بالظفر فى تلك المعركة، ومنذ تلك اللحظة لم يكن سبيل للهرب من جدب تلك الفلسفة الكلامية «المدرسانية» وجفافها إلا باللجوء إلى طريق التصوف . وانتهجت الفلسفة المحضة ذلك الطريق نفسه. وبذل ابن سينا (المتوفى ١٠٢٧) محاولة قاطعة للتوفيق بين مذاهب أرسطو وبين الفكر الإسلامى ، وواصلت القيام بعمله مدرسة المفكرين الأندلسيين الضخمة التى كان لها أثر بالغ القوة على أوربا فى القرون الوسطى . فإن العقيدة الإسلامية السنّية احتفظت بمكانتها فى الشرق ولا سيما فى فارس ، وعلى الرغم من أثر الغيبيات (الميتافيزيق) وعلم النفس اليونانى فى الشرق ، فإن العنصر التصوفى سيطر على الفكر الفلسفى الذى تطور بتلك المنطقة . وكان للترجمة من اليونانية كذلك الفضل فى كثرة ماظهر من مؤلفات فى الطب ، وازدهرت مدرسة كبيرة من الأطباء فى عهد الدولة العباسية . وكان احتذاء حذو اليونان دافعا للمسلمين على إنشاء دوائر المعارف ، كما أن ترجمة نظريات اليونان والهنود فى الفلك والرياضة أدت إلى وصول علماء الإسلام بعد ذلك بزمن غير بعيد إلى مكتشفات تتصف بالأصالة. وفى تلك الأثناء ازدهر الأدب فى البلاط العباسى — على أنه والحق يقال أدب «تهرب» لا أدب تعبير ، ولكنه يتميز بما يترقرق فيه من فتنة ساحرة وأستاذية فنية باهرة . وازدهر النثر فتشكل أخيلة رائعة ومفاتن دقيقة خلابة ، على حين كان الشعر يتراوح بين الغزل الرفيع والخمريات المرحة وبين ماغلب على شعراء الزهد والتصوف من التأمل السوداوى .

الفن الإســـلامى

أما الفن الإسلامى فإنه هو أيضاً يقوم بتمثيل الأوضاع المحيطة به ، إذ يستطيع المتأمل أن يشهد فى تطوراته بوضوح لا بأس به ، المؤثرات الكبيرة التى تكاتفت لإنتاج حضارة عظيمة . فهو خلاصة لتاريخ الإسلام فى كل نواحيه . على أنه نظراً لسرعة ازدهاره يعطينا لأول نظرة نلقيها عليه مظهر أسلوب جديد أصيل انتشر منذ القرن التاسع إلى القرن السابع عشر حتى شمل أصقاعاً مترامية : تمتد بين آسيا وشمال إفريقية ومصر والشرق الأدنى وفارس والتركستان وشمال الهند ، بما حفلت به من المدن الضخمة والمساجد الفخمة والقصور المتألقة ، وجميعها تتسم بالتجانس فى البناء والحلية ، على الرغم من بعض التنويع الراجع إلى المؤثرات المحلية . على أنه ينبغى ألا يغيب عنا أن هذا المظهر خداع . فلابد للمرء من الرجوع إلى المصدر الأصلى لكى يتبين أن الطراز إن هو إلا خليط صيغ من العناصر القديمة ، هو عملية انتقاء ولدتها الظروف الخاصة التى هيأت لجنس فاتح أن يستثمر مختلف الطرائق والتقاليد الفنية عند مجموعة من أقوى الأجناس روحاً فنية . فإذا تجاوزنا عن ثروة الأقاليم المفتوحة ورغدها ، والأموال الطائلة التى سخرتها سلطات الخلفاء المطلقة للإنفاق على أغراضهم الشخصية ، فإن التطورات الاجتماعية والسياسية للإمبراطورية شجعت على نمو الفن الإسلامى وازدهاره . وتمخض قيام عدد من الإمارات المستقلة عن ظهور مجموعة من العواصم المتألقة ، حرصت كل منها جاهدة على منافسة بغداد فى فخامتها ، على حين أن تغير الأسرات الحاكمة وقيام ثورات بالقصور طالما أفضى إلى قيام عواصم إمبراطورية جديدة . ويتجلى ما طبع عليه الحكام من خلق شرقى فى كراهيتهم للمبانى القديمة الموروثة عن السلف ، وتباطئهم فى إصلاح القديم ، حيث كان التبرم يدفعهم على الدوام

إلى اختيار أماكن جديدة لدورهم . وكان ما اشتهر به المسلمون من ميل إلى القيام بالأعمال الخيرية والمنافع العامة،هو السبب فى إقبالهم على تشييد المدارس والعيون والحمامات (والبيمارستانات) المستشفيات وفنادق القوافل ، فضلا عن المؤسسات الدينية البحتة كالمدارس والمساجد والرباطات (التكايا) .

ومنذ البداية ، اقترن اتساع رقعة الإسلام بنشاط عظيم فى العمارة . فبعد وفاة النبي بخمسة أعوام شيدت البصرة على الفرات الأدنى وأقيمت الكوفة جنوبى مدينة بابل ، لتكونا مركزين للنفوذ الإسلامى بأرض الجزيرة . ومن النتائج الأولى التى ترتبت على فتح مصر بناء مسجد عمرو الذى سمى باسم القائد المظفر العظيم ، على حين أن ما يسمى « بمسجد عمر » فى بيت المقدس ومسجد سيدى عقبة بالقيروان يجمعهما أصل واحد متشابه . أما مسجد دمشق الكبير فقد جددت عمارته ليزيد فى أبهة بنى أمية وعظمتهم ، وفوق هذا فإن تركيز الحكم بتلك المدينة صحبه إزدهار الفنون جميعاً . وانتجت فترة عظمة العباسيين عمائر بغداد وأمجادها الرائعة ، فشيدت فيها القصور الفاخرة أثناء القرنين الثامن والتاسع ، ولكن غارات التتار محت معظمها من الوجود . والواقع أن كل العصور التى ازدهر فيها الفن الإسلامى ترتبط على هذا النحو بالأحداث السياسية . إذ إن تألق سلطان بنى مرين بفاس وازدهار نفوذ الفاطميين بالقاهرة ، يتجليان فيما زينت به عاصمتاهما من مونق المبانى ؛ كما أن ما حدث فيما بعد من سيطرة الأتراك والسلاجقة فى أرمينية ، وتيمور فى سمرقند أو المغولى الأعظم فى جنوبى الهند ، إنما يسجلها جميعاً تلك العمائر التى خلفوها وراءهم والتى تعتبر دليلا جلياً على وحدة الفن الإسلامى وقوة حيويته فى مراحل اكتماله ونضجه ، وما له من تأثير على الغزاة الأسيويين غير المتحضرين . ثم إن تأسيس الدولة الأموية بأسبانيا كان مؤذناً بعصر لا نظير له فى الفخامة والازدهار ، بلغ الذروة فى أوائل القرن العاشر . فازدحمت جامعة

قرطبة بالطلاب الوافدين من كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ، على حين أن المدينة نفسها أثارت إعجاب زوارها القادمين إليها من ألمانيا وفرنسا . وغصت ضفتا نهر الوادى الكبير بالدور المترفة ، وينهض قصر الزهراء دليلا واضحاً على ميول الأمير الحاكم ، وهو مدينة من مدن الخيال حافلة بغريب المباهج . ولم يبق من عمائر تلك المدة إلا النزر اليسير ، مع أنها عمارة لعلها كانت تنافس بجدارة ما بلغه القصر (الكازار) والحمراء من روعة وفخامة ، إن لم تبزهما ، وهما المبنيان اللذان زين بهما أمراء المغرب مدينتى أشبيلية وغرناطة بعد ذلك بأربعة قرون .

عنصر الانتقاء فى الفن الإسلامى

وكما أن قيام الأسرات المالكة وسقوطها يحدد الأزمنة التى ازدهر فيها فن العمارة الإسلامى ، فكذلك الشأن فى الأحوال الاجتماعية للإمبراطورية التى أسلفنا إليك خلاصة لها ، فإنها تتجلى فى تطور ذلك الفن من الداخل . ذلك أن حظ العرب فى الجاهلية من فن العمارة كان ضئيلا ، ومن ثم لم يكن محيص من أن تنهج العمارة الإسلامية فى العصر الأول على نهج تقاليد البلاد المقهورة . فاستولى الفاتحون فى مصر والشام على الكنائس (الباسيليكات) المسيحية وحولوها إلى مساجد بعد إدخال تغييرات طفيفة عليها ، بل الواقع أنهم حتى عندما كانوا يبنون مبانى جديدة ، عمدوا إلى الكنائس القديمة المخربة فسلبوها أعمدتها وتيجانها . وقد أكثر العرب من استخدام الفسيفساء البيزنطية والأخشاب القبطية المحفورة فى تزيين مساجدهم ، ولا يكاد يكون لديهم ظاهرة من البناء أو الزخرفة لا يمكن إرجاعها إلى ما سبقها من تقاليد أو آثار . ومن الأمثلة الشائعة للتأثيرات الإقليمية المآذن بأشكالها المختلفة . ففى بلاد العراق كانت المئذنة ذات المنحدر شبه الحلزونى بما يعلوها من قبة

صغيرة تبنى على نسق زيجورات[١] بابل القديمة : أما مآذن دمشق ذات الجوانب الأربعة ، والتى ترتفع فى شكل منشور ، فإنها تذكرنا بما كان معروفا فى الأزمنة الوثنية والمسيحية من آثار جنائزية ، وهذا الطراز نصادفه أيضاً فى أسبانيا والمغرب . وقد حمله إلى تلك الأصقاع النائيـة ، النفوذ الدينى والسياسى لعاصمة الأمويين . ولعل المآذن المصرية ترجع فى أصلها إلى فنار الإسكندرية الشهير (Pharos) ، بما فيه من طبقات متداخلة من المناشير ومن مصباح يتوج هامته : ثم إن فارس بتقاليدها القائمة على الشكل الرشيق المتوازن تبنت فى مآذنها هيئة الأبراج المرتفعـة المستديرة . على حين أن الهند أرض الوفرة ، استخدمت التصميمات الفاخرة فى عمارة مآذنها . ثم إن المدرسة العثمانية التى لعلها قد راعتها أعمدة النصر القائمة بالقسطنطينية ، قد رفعت مآذنها كالشموع السامقة المنتهيـة بالمخاريط المدببة الحادة والمحوطة بالشرفات على ارتفاعات مختلفة ، التى تشرف حتى اليوم على مدينة إستانبول .

ومن هنا يتبين أن الفن الاسلامى ليس ابتـكاراً فجائياً لطراز جديد ، بل يرجع أصله شأن سائر مظاهر الحضارة الإسلامية إلى ما كان لمدنيات العصور القديمة من مظاهر عريقة فى نضجها . والشىء الجديد هنا هو امتزاج هذه العناصر المستعارة وانصهارها معاً . إنها عناصر أذابتها طاقات العرب وفتوحهم ، فانصهرت معاً وخرجت فى النهاية مادة جديدة . وكانت جماعات من المعماريين والبنائين وجيوش من الفعلة والأرقاء ، تنتقل من قطر إلى آخر ، فتحمل معها أساليبها الفنية المنوعة إلى بيئة أخرى . وطبقت على الحجر طريقة حفر الخشب : على حين أن ما اشتهرت به فارس من المنســوجات الجميلة قد نفذ طرازه فى الآجر والرخام ، أما مؤثرات الحفر البـارز والغائر والتصميم ، فحلت محلها

(١) الزيجورات (Ziggurat) كلمة آشورية معناها قمة الجبل أو البرج . وهى فى العمارة تدل على برج هرمى الشكل تقريبا [المترجم]

المواد والألوان المتضادة . وهناك فوق كل ذلك عامل آخر ، هو الروح الداخلى للإسلام ، الذى له أثره فى توحيد هذه العناصر المرنة . فإن للشعائر الإسلامية مقتضيات لا مفر من مراعاتها : فالقبلة (المحراب) التى تتجه نحو مكة التى يولى إليها المسلمون وجوههم فى صلواتهم تلقى من المعالجة المعمارية ما يتفق مع أهميتها . أما صحن المسجد والبئر فيفرضان صفة خاصة على بنائه . وينسب إلى النبى (ص) حديث ينهى عن تمثيل أشكال الناس والحيوان ، ولهذا الحديث أثر جذرى فى الزخرفة الإسلامية ، غير أن بنى أمية بالشام ، وأمراء فارس تجاهلوا ذلك الحظر ، لأنهم حرصوا على الإبقاء على ما كان بأقاليمهم من قبل من فنون التصوير والتشكيل . أما سائر البلاد الإسلامية فإنها لا تستخدم الزخرفة الشكلية ، ومن ثم فقد اتخذ القوم من نبات السنط (Acanthus) ومن خيوط عساليج الكرم ومن موضوعات أخرى فى الفن الكلاسيكى والأسيوى «وسطاً» لفنهم تطور فأصبح ما يعرف باسم فن الزخرفة العربى (Arabesque) . وذلك الفن هو الإطار الذى يتكرر فيه رسم الأزهار والفاكهة ، التى تصحب عادة الأفاريز المؤلفة من كتابات عربية جميلة . ثم تمضى عملية التجريد شوطاً أبعد . إذ أدخل على الأشكال الطبيعية من التعديل والتغيير ما جعلها تختلف عن شكلها الأصلى . ومن ثم أصبح الاتزان والسيمترية (التناسق) مظهرين رئيسيين فى التصميمات الفاخرة عند المتأخرين من الفنانين المسلمين . ثم صارت النماذج الهندسية المتشابكة ذات الخطوط المستقيمة أو المنحنية ، وهى تعد فى إطار تنوعها رموزاً للوحدة ، — صارت تلك النماذج تشبع ما للعربى من نزعة إلى التصوف ، كما تعرض علينا ـ على حد تعبير بعضهم ـ « حقيقة قوامها منطق خفى وتماسك رياضى تجلوها فى زى خيال وميل » .



(١٢) خريطة إنجلترا فى عهد الأنجلو سكسون

١ - ويلز الغربية　　٢ - ويلز　　٣ - السكسون

٤ - أنجل الشرق　　٥ - نورثمبريا　　٦ - البكتيون

٧ - آنجل الوسط

القسم الرابع

عصر شرلمان

الفصل الحادي عشر

الأوضاع الأوربية

١ ـ الغزوات الأنجلوسكسونية

إن المدونات التاريخية والسجلات المكتوبة عن تاريخ الجزر البريطانية بين ٤٠٠ و ٥٠٠ للميلاد تكاد تكون معدومة تماماً . فهي حقبة تغشاها الظلمات ، كما تنسدل عليها غمامات أساطير الملك آرثر. على أن ما تم في السنوات الأخيرة من دراسة إقليمية لأسماء الأماكن، ومن التنقيب عن المساكن والجبانات وعن خطوط الحدود واستحكامات الدفاع الترابية ، والمسح الجوى للأرض وما بذل من جهود لإقامة موازين يعتمد عليها لتحديد تواريخ الفخار والعملة والمصنوعات المعدنية ، قد جمع بين أيدينا من المواد ما يصلح لإعادة تكوين صورة للطريق الذى سلكته طوائف المغيرين المختلفة ، وعن طبيعة استيطانهم ومصير السكان الرومان البريطانيين. وربما أمكن في النهاية تركيب هذه النتائج على حال يؤلف صورة لهذه القرون المعتمة . على أنه يمكن فى الحين نفسه ملاحظة بعض العوامل الهامة .

وقد تعرض ساحل إنجلترة لتغيرات كبيرة منذ أيام العصور الوسطى[١] . فإن الساحل الشرقى والجنوبى الممتد من مصب نهر فيرث إلى جزيرة ويت ، تناثرت عليه عند ذلك على التعاقب مرتفعات صخرية وعرة ومستنقعات متخلفة عن المد . وكان الدفاع عن الشواطىء الصخرية سهلا ميسوراً ، فلم يكن فيها ما يحتاج إلى حراسة إلا ما يتخلل تلك الصخور من ثغرات تجرى فيها

---

(١) انظر الخرائط المساحية لبريطانيا الرومانية

مصبات الأنهار ، وأكبر شاهد على ذلك بقايا محطات الإرشاد والقلاع الساحلية التى ترجع إلى العصر الرومانى المتأخر ، وكلها توضح تلك الحقيقة . على أن مناطق المستنقعات الضحلة كانت مفتوحة لزوارق المغيرين . وكان مصب نهر همبر وهو الذى يمتد طويلا إلى الداخل يكوّن منطقة طينية مشبعة بالماء ، كما أن الظروف نفسها كانت تتكرر على معيار أكبر حول منطقة الواش (The wash) حيث امتدت منطقة البطائح حتى وصلت إلى ستامفورد وكبريدج. « وكان المغير الناهب ... يجد القنوات الراكدة خير معين له على حمل زورقه إلى جوف البلاد ، وكان مستطيعاً أن يتخذ لنفسه على كثير من الجزائر القائمة بالمستنقعات مخيمات يستجم فيها من متاعب القتال ويجمع فيها غنائمه دون أن يكدر عليه أحد صفوه[1] » .

جغرافية بريطانيا

أما فى داخل البلاد فإن لطبيعة الأرض صورة أشد استرعاء للنظر . فإن صرف مياه المستنقعات وإزالة الغابات قد غيرت وجه مناطقها الريفية ، وذلك أن شطراً كبيراً من إنجلترة كانت تغطيه فى عصر الرومان والسكسون غابات كثيفة، على حين أن الوديان غالباً ما كانت مستنقعات لا سبيل إلى اجتيازها . ومن هنا تحكمت طبيعة الأرض وجغرافية البلاد إلى حد كبير فى تاريخ المستوطنات الأولى وتكوين ممالك السكسون. وكان مصب الهمبر الذى تتصل به المستنقعات من الجانبين تحف به من الغرب غابة إلمت (Elmet) ، التى كانت تمتد إلى منحدرات تلال بينين (Pennine) ؛ ومن ثم فإن المصب والمستنقع والغابة كانت تؤلف على هذا الوجه حاجزاً يحول دون الاتصال بين الميدلاند (وسط إنجلترة) والشمال . وكانت منطقة فن (Fen) تفصل بين آنجليا الشرقية وبين المنطقة

---

(١) انظر ج . ا . وليمسون فى : « The Evolution of England » (أكسفورد ١٩٣١) ص ص - ٢ ج ج .

الوسطى ، وذلك مثلما كان نطاق الغابات الكبير الذى يمتد جنوباً بغرب من الفنز (Fens) إلى إبنج ، يعزل إيسكس (Essex) ويحول دون التوغل غرباً . وكانت غابة أندردسويلد (Andredsweald) هى أضخم هذه الغابات وتغطى شقة عريضة من الأرض تمتد فى الواقع بين ونشستر وهاستنجس ، غير تاركة سوى شقة من الأرض لا يتجاوز عرضها بضعة أميال تمتد فيها تلال الساوث داونز (South Downs) محاذية البحر . ويقول ولمسون إنه : « فى عهد متأخر هو القرن الثامن عشر نفسه ، يوم تم قطع معظم غابات منطقة ويلد ، كان من العسير بلوغ ساحل ساسكس من لندن فى أثناء الشطر الأكبر من السنة[1] » . وفى أقصى الغرب ، كان نطاق الغابات التى تبقى منه إلى اليوم غابة كارنبورن تشيس (Carnborne Chase) – يسد الطريق إلى وست دورست وساوث ثومرست فى وجه المغيرين الزاحفين شمالا من ساوثهامبتون واتر (Southampfon Water) . فإذا لم يغب عن بالنا انتشار المستنقعات والغابات على هذا النحو المذكور ، يتجلى لنا أهمية السدود الترابية مثل بوكرلى دايك (Bokerly Dyke) ، التى كانت تحمى المستوطنات الرومانية البريطانية بمنطقة كارنبورن تشيس . ومع أنه لم يبق من السور المقام بداخل الريف سوى بضعة أميال ، فإنه كان فى تلك الأزمنة يحرس المدخل المؤدى إلى منطقة تحميها من الجهات الأخرى موانع طبيعية .

والحق أن مصائر مختلف الممالك يفسرها موقعها ويحددها إلى حد كبير . فإن ممالك ساسكس وكنت وباسكس وإيست آنجليا حرمت الأهمية السياسية ، وذلك بسبب توقف اتساع رقعتها ، بينما استطاعت نورثمبريا ومرسيا وويسكس بسط رقعتها على حساب البريطانيين الرومان ، فكسبت بذلك اتساعاً فى رقعتها فضلا عن زيادة فى تنوع ثقافتها وسكانها ، وبذا برزت كل منهن على

---

(١) جـ . ا . ولمسون بالموضع السابق .

التعاقب بوصفها أقوى وحدة بإنجلترة فى أثناء القرن السابع والثامن والتاسع. ولكن ويسكس كانت الدولة الوحيدة التى أحرزت تفوقاً سياسياً حقا، على أن سيادتها تتجاوز بنا مجال هذا الكتاب . أما نورثمبريا فإن الخلافات بين برنيكيا وديرا مزقتها من الداخل، على الرغم من أنها كانت تضم وهى فى أوج عظمتها شرق اسكتلندة جنوبى نهر فورث وشمال إنجلترة حتى نهر ريبل ونهر يوركشير أوز، كما أنه حدث أكثر من مرة أن زعماء مرسيا الوثنيين تحدوا ملوكها المسيحيين. ومما عجل باضمحلالها الذى بدأ بقوة فى أثناء القرن الثامن، غارات النهب المخربة التى قام بها السكنديناويون القدماء المسمون أهل الشمال (Northmen) . وكانت مرسيا منذ البداية دولة مختلطة، فكانت خليطاً من عصابات الحرب والمغامرين الذين ينتمون إلى أصول مختلفة، كما أنها شغلت المناطق المترامية بالميدلاند الغربية التى كانت مدار نزاع دائم، والتى لا شك أنها كانت فى أثناء السنوات الأولى من الغزوات مسرحاً لامتزاج الكلت والسكسون ومشهداً للتوفيق بين حضارتيهما . وإذ سيطر عليها من تامويرث، مركز إنجلترة الجغرافى الواقع على واتلنج ستريت، زعماء أكفاء قساة أشداء، فإنها بشرت فى لحظة من اللحظات بقيام تقسيم ثلاثى لإنجلترة يمتد إلى عصور مستقبلة، وتكون فيه تامويرث فيما يحتمل فضلا عن لتشفيلد، عاصمة للميدلاند ومستقراً لكرسى الأسقفية بها . وقد انبسط سلطانها فى بعض الفترات على سكان منطقة بيك فى الشمال وعلى سكان تشيتشير وجنوب لانكشير وعلى ورسترشير هويكاس فى الجنوب، على حين أن الحدود الطويلة التى كانت تفصل بين سكان ركن (Wre kin) وبين ممالك ويلز كان يكملها سد أوفا، وهذا السد من صنع أوفا أشهر ملوك مرسيا، وهو الذى تبادل الرسائل مع شرلمان، كما أنه أهم شخصية بإنجلترة عند نهاية القرن الثامن .

على أن زوال حكم الرومان من إنجلترة ، لا يزال حتى اليوم من أعوص الأسرار التاريخية . وربما جاز لنا أن نذهب إلى أنه متى اجتمعت لنا معلومات أوفى ، فإن ذلك قد يقلل من أهمية التواريخ الفعلية لزوال الحكم الرومانى بهذه الجزيرة سواء حدث ذلك فى ٤٠٧ أو ٤٤٠ م . والراجح أن إعادة استيليكو تنظيم التحصينات الساحلية حوالى نهاية القرن الرابع هى آخر محاولة جدية قامت بها الإمبراطورية للاحتفاظ بولايتها النائية . وتدل الأحوال المماثلة التى سادت بلاد الغالة ، أن الانتقال إلى حكم البرابرة لم يكن حادثة مفردة بل عملية تدريجية تمت رويداً رويداً . ذلك أن ما أصاب الحكومة المركزية من الضعف البطىء أفضى إلى ذيوع الارتباك والفوضى الداخلية بإنجلترة ، وهو وضع دعا أصحاب الأملاك والموظفين المحليين إلى تسليح أتباعهم دفاعاً عن النفس ، كما دعا الأهلين إلى هجران الريف المكشوف والالتجاء إلى المدن المسورة ، ومن المعروف أن هجمات البرابرة الأولى كان يعقبها فى العادة فترة هدوء نسبى يتسرب فيها البرابرة فى هدوء يختلف شدة وضعفاً بحسب الأحوال . وهناك من الدلائل ما يشير إلى حدوث هذه الأحوال فى بريطانيا. فمنذ عام ٢٥٠ للميلاد تعرضت السواحل لغارات النهب من الشرق والغرب ، من قراصنة من السكسون والإرلنديين ، ولم تكن غارات الجرمان فى القرن الخامس إلا القمة التى بلغتها تلك الغارات ، التى كان يعقبها فيما بعد هجرات العائلات إلى البلاد . ومن جهة أخرى لا تعوزنا الشواهد على تداعى الحضارة الرومانية بتلك الجزيرة إلى حد ما ، منذ زمن مبكر يرجع إلى القرن الثالث الميلادى . وآية ذلك تدهور فن البناء وتقنياته . وقد حدث حتى فى الأراضى المنخفضة نفسها ، وهى من المناطق التى اكتملت بها الصبغة الرومانية ، أن اشتداد الشعور بالافتقار إلى الأمن والطمأنينة ، يدل عليه تحصين المدن ، على حين أن ما قام على الساحل السكسونى من قلاع مرتفعة مشيدة من الحجارة ،

يغلب عليها طابع العصور الوسطى ، يؤكد الأخطار التى تعرض لها سكان المناطق الساحلية على الدوام . على أن الضربة القاصمة التى وجهت إلى كيان الحياة البريطانية فى العصر الرومانى ، هى الغارة الضخمة التى حدثت فى ٣٦٧ . ففى تلك السنة اجتاحت البلاد قوة مؤلفة من البيكيتيين والسكسون والإرلنديين ، فدمرت دور الضياع ، وألحقت بنظام الزراعة فى إنجلترة من الضرر والأذى ما لا سبيل إلى إصلاحه . ويشهد بخط سيرهم سلسلة متصلة الحلقات من الدور الريفية المحروقة . وأكبر دليل على النتائج الثابتة المترتبة على تلك الغارة أن ما اكتشف من كنوز المال فى المواضع الرومانية المنعزلة، انخفضت قيمتها بعد هذا العهد . ولاشك أن القرن التالى ظل يشهد الاضمحلال يدب فى حضارة الجزيرة متواصلا ، وإن كان ذلك بصورة متقطعة ، فقد هجرت الدور الريفية ، على الرغم من أن معظم المدن المحصنة استمرت فيها الحياة بصورة ما حتى صميم القرن الخامس . وفى المناطق الريفية عادت المتاريس الترابية والمخيمات المنصوبة فوق أعالى التلال (التى ترجع إلى عهد ماقبل الرومان) فاتخذت للمرة الثانية ملتجأ للسكان . وتمخض ضغط الغارات الخارجية والنضال الداخلى ، عن ظهور الزعماء المحليين كما هو الشأن فى جهات أخرى من الإمبراطورية ، وعندئذ يتعرض زحف المغيرين البرابرة فى الجهات المتفرقة لنكسة مؤقتة .

على أنه لا يصح هنا القياس بما يسود القارة الأوربية من أحوال . ذلك أن الأنجلوسكسون كانوا شعباً يختلف اختلافا ملحوظاً عن القبائل الجرمانية ، الذين تعرضت أفكارهم بل حتى لغتهم لتأثيرات بالغة نتيجة لاتصالهم بروما طوال أربعة قرون على امتداد خطى حدود الراين والدانوب . هذا إلى أن بريطانيا التى خربها المغير وسلبها كل نظام ، ما كانت تستطيع أن تقدم للوافدين إليها تلك الآثار الرائعة ، التى تعتبر قواماً صلباً للحياة المتمدينة ،

والتى يصادفونها فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا . هذا إلى أن زعماء السكسون كانوا يفتقرون إلى ذلك الإحساس بالإعجاب الذى استشعره زعيم مثل ألاريك أو ثيودوريك نحو النظم الرومانية ، وإلى براعة كلوفيس فى التلاؤم معها ، وإلى إخلاد الدوقات اللومبارديين إلى حياة المدن . وتشير شذرات من الشواهد المتناثرة إشارات تغشاها الريب إلى ردود أفعالهم إزاء الأقواس المخربة والأعمدة المتبقية عن المبانى الرومانية . إذ أثارت فيهم إحساساً بالخوف والنفور المقترن بالقلق ، فخيل إليهم أنها يكمن بها أشباح من الموتى بل قوى أشد خفاء حتى من الأشباح ، مما يستشعره الإنسان فى القاعات الحجرية والقبور التى ترجع إلى العصور الخالية : وفضلا عن ذلك فإن ما أقامه السكسون من مستقرات كان يتجنب فى العادة المواضع الرومانية . وكأنى بالشعور العام فى مجمله ليس إلا شعور نزلاء هبطوا إقليماً مهجوراً تجرد من معظم سكانه ، وهو أمر تشهد به الأدلة الوفيرة بمقاطعات إنجلترة الشرقية والجنوبية ، التى يظهر أن ما كان لدى السكلت فيها من أسماء أماكن وديانة وعرف قد توارت من الوجود إلى حد كبير عند نهاية القرن السادس . أجل إن جيوبا وبلزية محصورة بين أملاك السكسون كانت توجد فى هذه المنطقة ، حيث تعيش بين الغابات أو وسط المستنقعات ، إما لأن الفاتحين أبقوا عليها ، وإما لأنهم لم يستكشفوها ، كما أنه حدث فى روسيا و نورثمبريا وويسكس ، أن السكان السابقين قد توصلوا على التدريج إلى الاتفاق مع المغيرين المنتشرين غرباً ، على الرغم من أن دية البريطانى تقل عن دية السكسونى الذى ينتمى إلى أدنى فئة من الأحرار ، شأنه فى ذلك شأن الغاليين الرومان فى ظل حكم الفرنجة . وهناك سبب آخر يدعونا إلى الظن أن مهارة الصانع البريطانى بمقاطعة كنت وغيرها من المقاطعات لم تفلت من يده نهائياً فى أثناء فوضى الغزو ومحنته وبعدها .

حضارة نورثمبريا

وتبدو أمامنا على أرض القارة الأوربية صورة مماثلة عندما تتأمل التطورات التالية التى ألمت بالممالك الأنجلوسكسونية، ذلك أن ممارسة طرق الرومان فى الإدارة أسهمت فى نمو الروح الاستبدادية عند زعماء القبائل الجرمانية النازلة بداخل الإمبراطورية[1] ، وشجعت على تطوير تدوين القوانين . وكانت الكنيسة هى التى تقوم بهذه الجزيرة (يعنى بريطانيا) بوظيفة روما وعملهـا ، وكان لها أثر فى تشكيل النظم الأنجلوسكسونية أقوى من أى أثر آخر . مثال ذلك أن قانون كنت لم يظهر إلا عقب قدوم أوغسطين . كما أن سلطة كل ملك سكسونى ناجح كانت تدعمها مشورة رجال الكنيسة لديه وتعاونهم معه ، وقد أدركوا أن قيام حكومة مركزية قوية ضرورى لمصالح الكنيسة . ودام الاتصال بين الجزيرة وبين القارة ، ومن ثم بينها وبين المجرى الرئيسى للحضارة ، بفضل رجال الدين إلى حد كبير ، حيث لم تكن للتجارة والدبلوماسية فى تلك الأيام إلا أهمية ضئيلة ، على حين أن الأديرة الكبيرة التى وهبها الملوك الأتقياء الأراضى والضياع ، قامت بدور كبير فى نمو العوامل الإقطاعية التى تتمثل فى ازدياد الاختصاصات المحلية والإعفاء من الأعباء العامة .

ولا شك أن أهم مظهر لفتح بريطانيا على أيدى الإنجليز السكسونيين من وجهة النظر الأوربية ، ما بلغته نورثمبريا فجأة من التفوق الأكيد فى حضارة العالم الغربى على الرغم من أنه كان تفوقا قصير الأمد . ومن المعروف أن بريطانيا زمن الرومان ظلت دائماً تعد معقلا أمامياً للإمبراطورية ، وتعتبر إقليماً متخلفاً متأخراً فى حضارته بالقياس إلى غالة وأسبانيا وإفريقية . ثم تنقطع

---

(١) انظر ما سبق ص ٧٧ .

صلتها بحاضرة الدولة ومركزها منذ (٤٠٠) ، ثم تحوى الجزيرة شيئاً فشيئاً من دائرة وهى روما وبيزنطة . على أن بعثة أوغسطين التبشيرية إلى الجزيرة البريطانية أعادت اتصالها بالقارة ، كما أن عودة الاتحاد بين الدراسات والعلوم الكلتية وبين ما العلوم فى الغرب من تقاليد أصيلة أورثت نورثمبريا نهضتها فى الفنون والآداب . إذ لم يحدث قبل ذلك ولا بعده أن تبوأ الإنجليز مثل هذه المكانة فى المدنية الأوربية . وبلغ الأمر بتقدمها أن روما نفسها اضطرت أن ترسل فى طلب المخطوطات من المملكة الشمالية ، وهناك يبرز بيده (Bede) أكبر علماء الغرب دون منازع لتفوقه فى كل فروع العلم ، كما أنه من حيث القوة الفكرية الخالصة يسمو محلقا فوق العصر الذى عاش فيه ، على أن ما أصاب نورثمبريا من الاضمحلال ، وما قابل ذلك من ازدياد قوة مرسيا ، قوض الأسس الاقتصادية التى تقوم عليها هذه الثقافة المتألقة ، ثم لم يلبث كل ما تبقى منها أن زال فى أثناء غارات الفيكنج ، يوم نهبت الأديرة الكبرى وأضرمت فيها النيران : ولكن ألكوين ورفاقه حملوا من قبل مشعل إلهامها إلى آخن وتور ، حيث صارت أساساً للنهضة الكارولنجية . ثم سدد جانب من هذا الدين حوالى نهاية القرن التاسع ، بعد أن زال الإرهاب الدانيمركى ، حينما أسهمت مؤثرات من القارة فى زيادة ثروة مدرسة ونشستر العظيمة للتصوير والرسم فى عاصمة مملكة ويسكس الزاهرة . كما أن النماذج المعمارية فى بلاد الراين استوحاها فيما يبدو فن العمارة السكسونى المتأخر ، على الرغم من أن تقاليد الجزيرة البريطانية المتصلة الحلقات ، تستطيع تحدى كل موازنة بينها وبين مختلف أنواع الفن الرومانسكى . وقد زال من الوجود كل أثر لكاتدرائيات درهام وونشستر الفخمة : وكل ما تبقى لنا عن روائع العصر الإنجليزى السكسونى المتأخر ، ما نستشفه عن قلة ضئيلة من الكنائس القروية استخرجت دلالاتها من شواهد هزيلة حوتها تلك الوثائق . على أن تلك البقية

والدلالات كافية لإثارة بعض الأسف فى أنفسنا على زوال كل أثر للطرائق الوطنية تلقاء عمائر البناء الفخمة التى خلفها النورمان والتى كثيراً ما تكون جامدة النمط. وذلك كله متى وازناها بما بقى عن السكسون من نحائت ، وبالفنون الصغرى التى كانت تمارس بإنجلترة فى تلك الأزمان .

٢ — المد الصقلبي

كانت حركة انتشار الصقالبة آخر حركة عنصرية بأوربا ، بلغت ذروتها قبل نهاية العصور المظلمة . وهى عملية لا تقل فى خطورتها بالنسبة لمستقبل السلالات البشرية بالقارة الأوربية عن كل ماسبق وصفه من العمليات ، بما كان لها يوم بلغت أقصى مداها من تأثير على كل الأراضى الواقعة شرق خط يمتد على وجه التقريب من رأس البحر الأدرياتى إلى مصب نهر الإلب ، وتختلف هـذه الحركة عن غزوات وهجرات سائر البرابرة ، مثلما يختلف مد يرتفع دون أن يحس به أحد عن شلال شديد الانحدار،أوعن نهر يتلوى جامعاً بين المنحدرات السريعة والروافد الهادئة . إذ إن أهل ذلك العصر لم يلحظوا تسلل الصقالبة فى هدوء إلى مسرح التاريخ الأوربى . لم يكن عملهم غارة رائعة تقودها شخصيات بارزة شأن غارات القوط أو الوندال . وما كان اندفاعة سريعة انبعثت من آسيا كاندفاعة الهون . وإنما الذى تم هو توسع مطرد قام به عنصر من الفلاحين ، كان يشكل فى بداية الأمر الطبقة الدنيا والأساس الاقتصادى لجماعات يقودها حكام مقاتلون من الجرمان أو الأسيويين ، ولكنها كانت تزداد فى كل يوم عدداً وتمتص قاهريها ؛ لم يقم بينها تماسك وما كان لها مطمع سياسى ، ولذا كانت تنتزع من هنا إلى هناك فى المنطقة الممتدة من بحر البلطيق إلى البحر الأدرياتى لخدمة أغراض الخاقانات المستبدين ، وهى مدٌ طامٍ من السكان طغى على شرق ألمانيا وانساب إلى بلاد اليونان ، وكان

يجتاز فى مسيره شرقاً سهول جنوب الروسيا ، حين يمنحها البدو الرحل من طلاب النهب فترة وجيزة من الهدوء .

على أن أعماق مستنقعات البربيت التى يخيم عليها الضباب والتى يميل غالبية العلماء فى الوقت الحاضر إلى اعتبارها الموطن الأصلى للصقالبة ، كانت تقع فى ذلك الحين على مسافة بعيدة من مرمى أبصار الإغريق والرومان لا تقل عن بعد السهوب الأسيوية النائية ، التى كان فى إمكان الناظر أن يتبين فيها بصعوبة شخوصاً صغيرة راكبة مع قوافلها تسير فوق منبسط هائل من السهول . والواقع أن الصورتين متكاملتان تتمم الواحدة منهما الأخرى ، وذلك لأن سكان المستنقعات فى بولبزيا ، وهو الاسم الذى اشتهرت به هذه المنطقة الصقلبية البدائية فى العصور الوسطى ، — يمكن اعتبارهم أحد تلك الأجناس المتعسة التى وضعها سوء حظها على حوافّ منطقة السهوب والتى جعلتها نزعتها السلمية وحياتها المستقرة فريسة للحشود البدوية الشرسة[١] . وهناك من الإشارات المتناثرة عند بعض المؤلفين القدماء ما يصورهم لنا شعباً شكلته المتسمات الصامتة من المستنقعات المملوءة بالقصب والبرك الراكدة ، وتمثلهم أسرابا وعائلات منعزلة من صيادى السمك والمزارعين ، وهم يتزلون مناطق متناثرة أخلوها مما كان بها من مستنقع أو غاب ، وتجعلهم شعباً بدائياً أصهب الشعر وأناساً خجولين يتجرون فى الفراء والشهد وعليهم القليل من الثياب ، وهم يفرون من مطارديهم بالاختفاء فيما يجاورهم من ماء أو غياض : وهم إلى ذلك مهرة فى الرماية وحرب العصابات وجند ممتازون متى كانوا فى خدمة الأجانب .

ومن الغريب أنهم أمة مجهولة بصورة تبعث على الدهشة . وليس لهؤلاء

---

(١) عن تحديد هــذا الرأى ، انظر ما كتبه ل . نيدرل فى (Revue des Etudes Slaves) مجلد ٢ ص ص ١٩ ع ع .

الصقالبة الأصليين تقاليد مأثورة ، ولا أنساب ميثولوجية . ومن عجب أن ما يرجع إلى عصورهم المتأخرة من مأثور شعبي (Folk - Lore) ، يحتفظ أساساً بذكريات شعوب أجنبية استولت على أخيلة الصقالبة . وفيها يبدو شعب الآفار الرهيب فى صورة المردة أو الوحوش ، على حين أن الإمبراطور تراچان فاتح داكيا (ترنسلڤانيا ورومانيا) فى القرن الثانى للميلاد صار فى أساطير البلقان القيصر تراچان العظيم ، الذى يفيض إليه الذهب الوهاج والفضة الصافية من سبعين عيناً . والواضح من هذا ومن غيره من الشواهد ، أن الصقالبة بدءوا فعلا ينسابون من منطقتهم البدائية الأولى قبل القرون الأولى للميلاد حيث شرعوا يتسربون جنوبا نحو الدانوب على كل من جانبى جبال الكربات ، واتجهوا غربا مجتازين السهول التى تمتد بين نهرى الإلب والفستولا وساروا شرقاً متجهين نحو حوض الفولجا وبحر آزوف . ولاشك أن الموقع المتوسط لموطنهم الأصلى — الذى يقع على برزخ شبه الجزيرة الأوربية (إن جاز مثل هذا التعبير)، وهو العنق الذى كونته الطرق المائية الكبرى بمنطقة غرب الروسيا — قد جعلهم يتعرضون لما كان لبحر البلطيق أو البحر الأسود من مؤثرين حضاريين بالغى التناقض ، على حين أن الاختلاط العنصرى بين الدماء التيوتونية من جهة والأجناس الأسيوية من جهة أخرى قد ساعد على زيادة الفروق التى قدر لها فيما بعد أن تميز القوميات السلافونية المختلفة بعضها من بعض وتفرقها أقساماً .

على أن المد الصقلبى ظل يتزايد دون أن يلحظه أحد من مؤرخى الحوليات (Ammalists) . حتى استيقظت بيزنطة قبيل زمن جستنيان ، وانتبهت إلى ما يتهددها من خطر صقلبى . ذلك أن غارات الصقالبة ظلت تزداد شدة طوال القرن السادس وتنزل الخراب والوبال بمناطق تراقيا وتساليا ومقدونيا ، بعد اختراقها لخط القلاع المحكم الذى أقامه جستنيان بقصد الدفاع

عن الدانوب وحماية الطرق الحيوية التى كانت تربط بين أجزاء إمبراطوريته الغربية والشرقية . على أن مركز إعصار عاصف ما لبث أن استقر فى هنغاريا فى صورة الآفار ، فانطلق يعصف بأمواج الصقلبى ويحيلها إلى تيارات عنيفة ، بما وهبها من قوة دافعة جديدة خطيرة ، وبما نثره منها وبدده فى صورة رشاش تطاير منتثراً فوق وسط أوربا . ويبدو أن هذه هى الفترة التى تم فيها صبغ بلاد اليونان بالصبغة الصقلبية ، وما ترتب على ذلك من شطر روما القديمة عن روما الجديدة (بيزنطة) . وعلى الرغم من الهجمات الباسلة التى بذلها القادة البيزنطيون لرد اعتداءات الصقالبة ، فإن حد الإمبراطورية من جهة الدانوب لم يعد له أهمية تاريخية بعد (٦٠٠) . وقد صدق المؤرخ إيزيدور الأشبيلى حين قال : « إن الصقالبة انتزعوا بلاد اليونان من الرومان » . وذلك لأن السكان الرومان والناطقين باليونانية دفعوا إلى حافتى شبه الجزيرة المطلتين على البحر الأدرياتى وبحر إيجة . أجل إن مدينة سالونيك التجارية العظيمة التى كانت تحميها أسوارها الضخمة ومجانيقها القوية وتقيها القراع القومية للقديس ديمتريوس الذى هو قديسها الحارس ، قد صمدت فى وجه الغزاة ، ولكن الصقالبة احتلوا رغم ذلك منطقة مقدونيا[1] المحيطة بها ، وأخذ فيض الصقالبة يتدفق إلى شبه جزيرة البيلوبونيز (المورة) ، ظلت مراكز الحضارة والحياة المدينية ، وحافظت على استعدادها للمشاركة فى الفتوح البيزنطية التى تمت بعد ذلك بثلاثة قرون . ولكن حدث فى أقصى الغرب أن هرع سكان مدينة سالونا الرومانية عاصمة دالماشيا من مدينتهم التى تعرضت للنهب والتخريب ، فهبطوا الى أسفل التل ، يلتمسون ملاذاً فى داخل أسوار قصر دقلديانوس الضخم فى أسبالاتو . بينما فر آخرون إلى

---

(١) بلغ من شدة ازدحام هذه المنطقة بالصقالبة عند حلول القرن السابع الميلادى ، أنها أصبحت تعرف باسم « اسكلافينيا » .

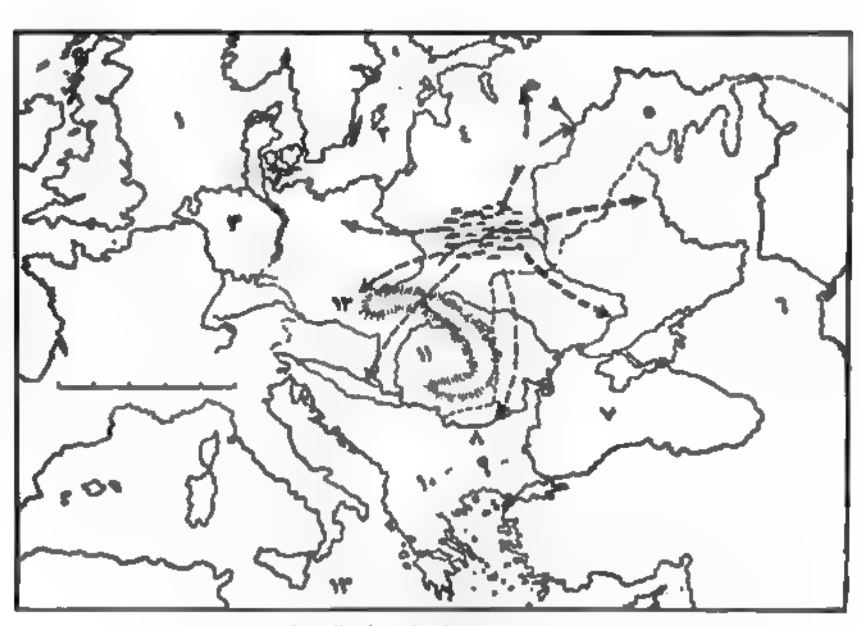
الجزر والخلجان الأدرياتية فأقاموا بذلك حافة منعزلة من اللاتينية ظلت قائمة حتى العصور الحديثة . إذ لم يمت آخر ناطق « باللغة الغربية» إلا فى ١٨٩٨ — ولم تكن لغته إلا سلالة منحطة من اللسان الرومانى القديم[1]، والظاهر أن مجتمعات ناطقة باللاتينية ، ظلت تعيش فى داخلية البلاد بنفس الولايات السابقة بكل من شمال الدانوب وجنوبه ، وأنه يرجع إلى تأثيرها ظهور اللغة الرومانية الحديثة .

انتشار الصقالبة

وفى تلك الأثناء كانت الزوبعة الآفارية فى دورانها الأولى من مركزها بهنغاريا تقذف بالجموع الصقلبية فى جميع الاتجاهات ، وتشتت قبائلهم وتنزل شراذم منهم بالأطراف النائية ، فاستقر بعضهم غرباً فى كارينثيا والتيرول ، وأقام بعضهم الآخر فى الشمال على امتداد نهر الإلب والسال ، واستخدمت رجالهم جنداً على محيط الدائرة الآفارية مسلطة إياهم على جند الباڤاريين واللومبارد والسكسون والفرنجة . على أن مدى سلطان الشعوب البدوية ، الذى كان يمتد بين حين وآخر من البيلوبونيز إلى البلطيق ، إنما يماثل ما كان للإمبراطوريات الألطائية بآسيا من نفوذ ، وهو قريب الشبه أيضاً بنفوذ أسلافهم فى أوربا ، وأعنى بهم الهون . وكان حكم الآفار يتمشى تمشياً صادقاً مع أصولهم فى بلاد السهوب ، إذ ينطوى على الاستبداد والنهب ويعتمد على القوة الوحشية ويقوم على غارات الرعب والإرهاب، ويتعرض للانهيار الفجائى . وعند مستهل القرن السابع ثارت عليهم الشعوب الخاضعة . فإن تاجراً من الفرنجة اسمه سامو قام بتنظيم الصقالبة النازلين بوادى نهر مين وتأليبهم على

---

(١) انظر ل . نيدرل فى (Manuel de L'antiquite Slave) ، ج ١ ص ٦٨ (باريس ١٩٢٣) .



١٣ — خريطة انتشار الصقالبة

١ - بحر الشمال	٢ - بحر البلطيق	٣ - السكسون
٤ - التوانيون	٥ - شعوب فنلندية	٦ - الخزر
٧ - البحر الأسود	٨ - البلغار	٩ - تراقيا
١٠ - مقدونيا	١١ - الآفار	١٢ - نهر الدانوب
١٣ - البحر المتوسط		

الآفار واستطاع الإبقاء على مملكته بنجاح إزاء كل من الآفار والفرنجة . وما لبث الكروات والصربيون أن حذوا حذوه ، وأخيراً كون البلغار على الدانوب الأدنى مملكة مستقلة . على أن الآفار ظلوا فيما عدا مملكة سامو مسيطرين فى كل مكان على جميع الفلاحين الصقالبة حتى امتصهم السكان المحيطون بهم . وتتجلى فى تنظيم هذه الدول البلقانية إبان العصور الوسطى شواهد واضحة تنبىء بوجود النظم الأسيوية .

وتعد بلغاريا مثالا بارزاً على تلك الأوضاع ، إذ إن شعبة غربية من البلغار ، وهم شعب وثيق الصلة بالهون نزلوا أول الأمر فيما نعلم على نهر الدون ، قد بلغت حوالى نهاية القرن الخامس سواحل البحر الأسود الشمالية الغربية فوق مصب الدانوب . فلما أن حرروا أنفسهم من نير الآفار حوالى ٦٤٠ ، اجتازوا الدانوب فبسطوا بذلك رقعة ممتلكاتهم جنوبا ، حتى أصبحوا على مسافة تقارب مائة وخمسين ميلا من أسوار بيزنطة ، وأخذوا يحكمون ، بوصفهم طبقة محاربة ، الصقالبة المشتغلين بالزراعة وينتزعون منهم الجند اللازمين لإنشاء إمبراطورية قوية البأس ، لم تلبث عند نهاية القرن التاسع أن امتدت إلى البحر الأدرياتى فى الغرب ، وبلغ طرفها الجنوبى جبال البيندس (Pindus) . وكانت هذه الإمبراطورية البلغارية الأولى عاملا فاصلا تحكّم فيما تلا ذلك من تاريخ البلقان . فلولا خاقانات البلغار الأشداء وأرستقراطيتهم المقاتلة لما استطاع المهاجرون الصقالبة بهذه المناطق المضى فى مقاومتهم المنظمة للجهود الدائبة التى بذلتها الإمبراطورية الرومانية قرناً فى إثر قرن بما لها من جيش محترف وخطط حربية بارعة ، لاستعادة خط حدودها القديم على الدانوب والمحافظة عليه ، والإبقاء على ما يقع على شاطئيه من الأقاليم ، ولولاهم أيضاً

ما ظهر إلى الوجود ما كان لبلغاريا وكرواتيا والصرب من أمجاد إبان العصور الوسطى .

زوال إمبراطورية الآفار

وقد تمخض تداعى قوة الآفار ، التى تواصل اضمحلالها حتى تم تدميرها النهائى على يد شرلمان ، عن آثار سيئة فى كل مجموعة الدول الآفارية الصقلبية. إذ انحسر مد مملكة الصقالبة المتجه غرباً ، وارتد منسحباً من أعالى النمسا ، كلما اندفع إلى الأمام جرمان بافاريا[1] . وإلى الشمال من ذلك ، استقر ما يزيد على ثلاثين قبيلة صغيرة من الصقالبة فى خط يمتد من الدانوب إلى مكلنبرج ، وهم على حال من التفرق والعيش فى مواطن متناثرة بين المستنقعات والغابات . وقد أصبحت بوهيميا التى تحيط بها الجبال من كل الجهات مملكة قوية الشأن ، غير أن الصقالبة النازلين على نهر الإلب قد تعرضوا للإبادة أو تحولوا إلى جرمان ، ولم يكن استيلاء شرلمان على سكسونيا الغربية إلا تمهيداً لتقدم جديد قامت به دولة غربية ، ثم تواصل الفتح عنيفاً عاتيا على امتداد عدة أجيال . ودأب الفيكنج من اسكنديناوة قراصنة كانوا أو تجاراً ، على الإغارة على مناطق الصقالبة على شواطىء البلطيق ، فأقاموا بها معاقل دائمة . واستطاعوا أن يضعوا أيديهم رويداً رويداً على طريق التجارة العظيم الذى يتألف من شبكة الطرق المائية الروسية التى تربط بين بحيرة لادوجا وبين البحر الأسود (Euxine) ، ثم توغلوا جنوباً حتى أسسوا بعد (٨٠٠) بزمن قصير مستعمرة كييف ، وهى نواة الإمبراطورية الروسية فى المستقبل .

---

(١) انظر الفصل الرابع عشر بعنوان حملات الآفار .

٣ - بيزنطة والبحر المتوسط

كان لأحداث القرن السابع آثار كبرى غيرت تماماً مركز بيزنطة فى أوربا فى ذلك الزمان . إذ سرعان ما أعقب النصر النهائى - الذى أحرزته روما على فارس فى (٦٢٨) والذى يعد من أعمال هرقل الباهرة — موجة الغزو العربى الذى هز أركان كل من هاتين الإمبراطوريتين العالميتين السابقتين روما وفارس . ولم تنقض على وفاة هرقل عشر سنوات حتى ضاعت مصر والشام من يد الدولة . حتى إذا فتح المسلمون الولايات الإفريقية ، وتقدم اللومبارد فى إيطاليا ، واصطبغ البلقان بالصباغ الصقلبى ، نظرت دولة الروم عند نهاية القرن السابع فإذا رقعتها قد انكمشت انكماشاً شديداً من جميع أبعادها . ولم تزدها الثورة الإيطالية والفتح الفرنجى لإيطاليا إلا ضعفاً وانتقاصاً لنفوذها فى الغرب ، ومنذ تلك اللحظة يمكن اعتبار تاريخ بيزنطة شيئاً مستقلا عما يجرى من تطور فى دول غرب أوربا التى لم تعد تتأثر تأثراً شديداً - كما لاحظ المؤرخ بيورى — بما كان يحدث فى شرق إيطاليا وجنوب الدانوب .

على أن السنوات التى سبقت ارتقاء ليو الإيسورى (٧١٧ — ٧٤١) العرش تعتبر من أحلك الساعات فى عمر بيزنطة الطويل . إذ إن حيويتها أخذت فيما يبدو تتداعى بسبب انكماش حدودها . فاضمحلت الآداب والفنون وهبط مستوى التعليم ، وازدادت الخزعبلات انتشاراً بين جميع الطبقات . ونظراً لما كانت تعانيه بيزنطة من مركز قلق ، الأمر الذى اقتضى اشتداد سلطة الإمبراطور الأوتوقراطية استبداداً ، رغبة فى الإبقاء على وجود بيزنطة نفسه ، فقد قوبل ذلك بتحدٍّ عنيف من المعارضة الأرستقراطية تدل عليه سرعة تعاقب الأباطرة على العرش — حيث تولى الملك ما لا يقل عن سبعة منهم فى عشرين سنة . وكان الكثير منهم يدين بارتقائه العرش إلى مؤامرات النبلاء ملاك الأراضى بالإمبراطورية .

إصلاحات الأسرة الإيسورية

إن قيام البيت الإيسورى القوى ليسجل بالفعل اتجاهاً جديداً فى شئون بيزنطة . إذ يتوارى عن الأنظار الصراع على الملك بكل مايورث البلاد من فوضى ، ولا يعود إلى الظهور إلا فى مستهل القرن التالى . أما العاصمة التى هددها الأمويون بكل مايملكون من قوة فى أثناء الحصار العظيم الذى ضرب عليها فى (٧١٧ـ٧١٨) ، فقد دافع عنها ليو ، وهو الجندى المحنك المجرب دفاعاً مجيدا وكان ذلك فى نفس اللحظة التى استهل فيها حكمه [١] ، ومنذ تلك اللحظة وقفت الإمبراطورية على قدميها على امتداد الجبهة الإسلامية ، حتى تراجع مركز الاضطراب قليلا فى آسيا ، عند انتقال مقر الملك من دمشق عاصمة الأمويين إلى بغداد عاصمة العباسيين (٧٥٠ م) . ومما ينبغى أيضاً إضافة الفضل فيه إلى الإيسوريين قيامهم بإصلاح مالية الدولة على أسس سليمة وتشجيعهم التجارة وإجراؤهم تطويرا صالحاً للنظام العسكرى بالولايات ، لدرء ماتتعرض له الثغور (الحدود) من أخطار . وهى إصلاحات ومنجزات يمكن مقارنتها بما أتاه آل هرقل والمقدونيون وغيرهم من منقذى بيزنطة فى ساعة العسرة . ولذا فإن الأسرة من هذه الناحية يمكن اعتبارها متمشية مع مادرجت عليه الأسرات الإمبراطورية من تقاليد . على أن أوجه التشابه تنتهى عند هذا الحد . إذ الواقع أن الإيسوريين ينسب إليهم فضل اتخاذ سياسة ثورية ، وأنهم مبتدعون بارعون ، استطاعوا بفضل قوة مثاليتهم الأسيوية الأجنبية أن يغيروا مجرى الحياة فى بيزنطة فترة قرنين من الزمان . ثم قدر لتلك الحياة أن تنساب مرة أخرى فى مجاريها المعتادة . إذ إن الفلسفة الكلية العامة (Weltanschauung)،

---

(١) انظر ماقبله ص ٢٠٧ بعنوان الخطر على بيزنطة .

الحضارة بأكملها ، إنما هى تيار أقوى من أن يستطيع بضعة أفراد تغييره ، وذلك لأن ماتحداه الحكام الإيسوريون لم يكن سوى تراث البحر المتوسط بأجمعه .

ومن أهم عناصر ذلك التراث ، النظام القانونى الرومانى ، الذى كان يتحكم فى وجوه كثيرة جداً من حياة بيزنطة الاجتماعية . فقانون الأكلوجا ، الذى أصدره الإمبراطور ليو الثالث ، وهو مجمل لكل القوانين البالغة الأهمية ، يدل على تغيير خطير فى القانون الرومانى . وبصدور هذا القانون لم يعد فقهاء القانون من الرومان مصادر موثوقاً بها ، بل صار التشريع والفقه قائماً على «الوحى» ، والتمست النظرية القانونية مبرراتها من نصوص مستمدة من الأناجيل. وزالت الفكرة القائلة بأن الزواج عقد مدنى ، يمكن فسخه بالتراضى المتبادل بين الزوجين ، وحل محلها ماقررته المجالس الكنسية من أن الزواج يعتبر من الأسرار المقدسة ، فتعذر بذلك الحصول على الطلاق . ويتجلى نفوذ الكنيسة ورجالها فى أمور أخرى أيضاً ، منها مثلا زيادة العقوبات على الجرائم الجنسية وإحلال عقوبة التشويه وبتر الأعضاء محل عقوبة الإعدام بوصفها أقصى عقوبة فى القانون ، رغبة فى منح المذنب فرصة التوبة . ومما له مغزاه أن إضفاء الصبغة المسيحية على الدولة بهذه الصورة قد توقف قبيل نهاية القرن التاسع الميلادى ، وحل محله الرجوع إلى اتخاذ مبادئ قانون جستنيان . فعندئذ تتجلى بيزنطة المدينة المقدسة وحامية العقيدة السلفية الصحيحة فى صورة أخرى بالغة الأهمية : هى أنها وارثة ومستودع تقاليد روما الإمبراطورية الوثنية .

وعن هذا المصدر تجىء كذلك فكرة عميقة الجذور فى العالم البيزنطى ، وهى فكرة عدم إمكان الفصل بين الكنيسة والدولة [1] . وذلك أن سلامة

---

(١) انظر ص ١٦٤ بعنوان « الحياة فى العاصمة البيزنطية » .

الإمبراطورية ورخاءها كانا يتوقفان على مالها من موارد روحية فضلا عن المادية ، وأن نفوذ السلطات المدنية كان يعززه إقرار رجال الدين له . على أن بعض الأباطرة من أمثال الإيسوريين المناهضين لعبادة الصور ، والذين تدخلوا فيما شاع بين السكان من معتقدات ـ كالمقدسات الدينية والأيقونات وتبجيل هيئات الرهبان ـ إنما كشفوا عن وجود ازدواج في السلطات : أي إمكان حدوث صراع بين السلطتين العلمانية والإكليركية ، وهو وضع كان يخالف صراحة سياسة بيزنطة العامة ، ولذا كان محتوم الفشل نتيجة لذلك . وهذا الضرب من رجحان كفة الميزان في صالح الدولة ، تمخض عن حركة مضادة بين أتباع ثيودور رئيس دير ستوديوم (مات في ٨٢٦) ، الذي طالب بأن يكون للكنيسة استقلال داخلي تام ، بل إنه أيد البابا على إمبراطوره . على أن هذه الأفكار كانت غريبة أيضاً عن التفكير البيزنطي ، ولم يلبث هذان الرأيان المتناقضان أن اختفيا من الوجود في النهاية ، فتهيأت الفرصة مرة أخرى للإمبراطور كيما يمارس سيادته على شئون الكنيسة ، وهي مع ذلك سيادة يلطف منها استعمال الحكمة والأناة في معالجة حساسية الشعب وميله بطبعه إلى الاستثارة السريعة .

نضال مناهضي عبادة الصور

وكان آخر تحد لقيته المعايير البيزنطية هو حركة تحطيم الصور (Iconoclast) ومناهضة عبادتها . فعلى الرغم من أن هذه الحركة تؤلف في بعض مظاهرها جانباً من إصلاحات الإمبراطور العلمانية ، فإن الدافع الجوهري إليها هو الاعتقاد الديني [1] ، ولذا فإن المعاصرين كانوا ينظرون إلى المسألة بأسرها بوصفها مسألة

(١) من المعلوم أن الدين والسياسة لايمكن فصلها فصلا تاما كما رأينا من قبل ، ولا شك أن سلامة الدولة من الزلازل والأوبئة والغزو كانت في نظر مناهضي عبادة الصور تعتمد إلى حد عظيم على قيام مايعتبرونه العقيدة الصحيحة ، خاصة وهم قوم لم يكونوا «عقليين Rational» في تفكيرهم ـ بالدرجة الشديدة التي يصورهم بها بعض الناس أحياناً .

دينية بحتة . فقد ادعى خصوم التحطيم أن إنكار إمكان تمثيل مرئى ، هو إنكار لحقيقة التجسيد وبالتبعية إنكار لأس العقيدة المسيحية . ولا سبيل إلى تقدير المرارة الشديدة التى اتصف بها الكفاح إلا إذا وضع القارئ هذا الاختلاف الأساسى نصب عينه [1] . على أن معركة تحطيم الصور ومناهضة عبادتها ، ليست إلا نزاعا اجتمع فيه من الاختلافات والدوافع السياسية والفلسفية والجمالية ، بل العنصرية أيضاً ، مايرجع أصول كثير منها إلى الماضى البعيد . وما من صيغة عصرية تستطيع أن تعرض علينا من جديد ما تنطوى عليه هذه الحركة من مشاكل معقدة . فقد نشبت الحرب فى جميع المستويات ، وتحولت الآراء من النقيض إلى النقيض ، وتشعبت فى كل شكل من أشكال الحلول الوسط . ومن اليسير على المتصفح أن يكتشف ما ارتكبه الجانبان من سخافات وحماقات، فهناك من ناحية أولئك الأباطرة الذين تمادوا فى تلك الحملة حتى لقد اعترفوا «بنطويب» يهوذا الأسخريوطى وتلقيبه قديساً وعمدوا إلى إزالة لفظة « القديس » من أسماء الأماكن . على أن الواقع من الناحية الأخرى ، أن إقامة عبادة سحرية للصور يرجع سخفها إلى أنها فى أحط صورها تعتبر ضرباً من الإيمان « بالفتيشة » لحالة مرضية . ومع ذلك فإن الفارق الفلسفى كان هاماً وحقيقياً ، وإن جاز لنا أن نشك من خلال مايحيط بالأمر كله من سحب سوء الفهم وتأجج المشاعر ، — فى أن المتخاصمين كانوا يرون بوضوح الأشكال التى كانوا يوجهون إليها طعناتهم . فالصعوبات الكامنة فى علاقة الصور بما تمثله ، ليست إلا قصة قديمة ترجع إلى الأزمنة الوثنية ، ثم تواصل الجدل فى شأنها طوال عصور المسيحية جميعاً . من هنا يتبين أن كلا من الجانبين كان وراءه معين من السوابق لاينضب يستطيع أن ينهل منه ، بالإضافة

---

(١) انظر التذييل ب .

إلى الفقرات المنتزعة من نصوصها الأصلية فى الـكتب المقدسة وكتابات الآباء الأولين ، والتى شكلت لتكون قذائف فى الحرب الكلامية الناشبة .

كان معظم أفراد حزب تحطيم الصور ينتسب إلى آسيا الصغرى موطن الأباطرة الإيسوريين ومنبت الشطر الأكبر من جندهم وكثير من موظفيهم. وفى هذه المنطقة ازدهرت عدة طوائف متشددة في التطهر والتعفف، ولم تتولد الكراهية لعبادة الأوثان عن هذه المذاهب التطهرية فحسب، بل أسهم فى ذلك أيضاً عقائد المسلمين المجاورين . ولـكن الأباطرة أنفسهم لم يكونوا من الهراطقة . إذ كان فى وسعهم أن يعتمدوا هم وخصومهم على السـواء على التقاليد الصحيحة للـكنيسة . وينبغى لنا أيضاً ألا نشدد التأكيد على التناقض بين ما لدى آسيا من الرمزية التجريدية وبين الفن التشكيلى اليونانى الرومانى . فالمعروف أن البحر المتوسط تعرض طوال قرون عديدة لمؤثرات شرقية ، وأن الفن البيزنطى فقد بالفعل كثيراً من خصائصه التقليدية (الـكلاسيكية) . وأثارت مساجد وقصور الخلفاء الأمويين وقتئذ من الجاذبية القوية ، ما لابد أن يثيره كل فن خصيب رائع . على أن الراجح أن النزاع حول التحطيم ومناهضة عبادة الصور ، لم يكن له تأثير جوهرى على تطور الطراز البيزنطى ، الذى استقرت مبادئه الأساسية من قبل فى عهد جستنيان .

وقد بدأ ليو فى (٧٢٥) حملته لتحطيم الصور . إذ ارتقى الجند السلالم وأزالوا التمثال الـكبير للمسيح المنصوب فوق باب القصر بالساحة الرئيسية بالقسطنطينية . فاحتشد جمهور غاضب وعقبت ذلك الفتن وقتل الدهماء أحد الجند . وأحدثت المراسيم الإمبراطورية فى هذا الصدد طائفة من الاضطرابات نشبت فى العاصمة وبلاد اليونان وجزر بحر الأرخبيل ، بل لقد نودى بأحد الأفراد إمبراطورا ، ولـكن المؤامرة أحبطت ، وكانت الغلبة فى النهاية لسياسة ليو ، التى كانت تؤازره على الجملة الطبقات المتعلمة . وازداد الـكفاح مرارة

فى عهد قسطنطين الخامس ، ولم يلبث ما قام به الرهبان من النشاط السياسى ، الذى سبق أن تنبأ ليو بخطورته على الدولة ، أن تطور إلى المطالبة بأن يكون للكنيسة استقلالها . على أن قسطنطين الخامس الذى كان يضارع أباه فى العبقرية الفكرية ويفوقه فى البراعة السياسية والتدبير ، التقى بخصومه على أرضهم ، وآزر حركة التحطيم بكل ما توافر له من موارد . وفى (٧٨٧) انتهزت إيرين فرصة اندلاع فتنة شعبية فأعادت عبادة الصور ، على أن حركة التحطيم ومناهضة عبادة الصور لم تلبث أن عادت فى (٨١٥) نتيجة لرد فعل آخر . ومع ذلك فإن قوتها ما لبثت أن تضعضعت رويداً رويداً ؛ إذ فقد الجيش ما كان له من سلطان فى البلاط ، وفاز رهبان دير ستوديوم بالغلبة . وفى (٨٤٣) تمكنت الإمبراطورة ثيودورا وهى وصية على ولدها ميخائيل ، من الجمع بين تنفيذ رغباتها وبين مقتضيات السياسة بإعادتها للأهلين عبادة الصور التى لم يكفوا عن التعلق بها .

والظاهر أن هناك شيئاً من المبالغة فى تقدير الأثر الذى ولدته فى الغرب حركة مناهضة عبادة الصور . أجل إنها قد تأججت بسببها المشاعر ، وذلك نظراً لأن الصور والآثار المقدسة كانت تلعب دوراً جوهرياً فى عقائد الناس ، ولكن أحداً لم يستطع إدراك النقاط الفلسفية التى كان الموضوع يدور حولها . على أن الواقع أن أقوى أسباب الثورة التى شبت فى إيطاليا كانت كراهية الناس للموظفين البيزنطيين والضرائب البيزنطية ، وتأجج الوطنية ودوافع السياسة المحلية ، ولم يحمل الفرنجة على التدخل إلا ضعف بيزنطة العسكرى . ومن ثم فإن النزاع حول عبادة الصور لم يكن إلا حدثاً واحداً فى شقة الخلاف والتنافر بين روما البابوية والقسطنطينية الإمبراطورية . وآية ذلك أن العودة إلى عبادة الصور لم تصلح ما فسد ، وذلك لأن الخلافات السياسية لم تكن تدور حقاً حول المسائل العقائدية . على أن فترات الانشقاق بين الكنيستين

الشرقية والغربية التي أخذت تزداد طولا وتتكاثر عدداً بلغت ذروتها في الصدع النهائي الذي حدث في (١٠٥٤)، ومع ذلك فقد كان في الإمكان حتى بعد هذا التاريخ الوصول إلى اتفاق حول المسائل الاعتقادية . ومن هنا يتضح أن السبب في عدم الوفاق بين الطرفين لم يكن فقرة : « والابن أيضاً Filioque »، بل مدعيات البابا في السيادة وخطط الإمبراطورين الشرقي والغربي . وثم فاصل آخر كان يزداد في الحين نفسه على الأيام علوا وقوة ، هو فاصل اللغة والعرف والتقاليد . وعمد ليو الإيسوري إلى توجيه ضربة مضادة لتحدى البابا ، فضم صقلية وجنوب إيطاليا ودالماتيا إلى البطريركية البيزنطية ، ولم يلبث أن شاع بهذه الجهات عناصر عديدة للعقيدة الشرقية نتيجة تقاطر الرهبان اليونانيين اللاجئين . على أن فتح المسلمين لصقلية في القرن التالي أضعف قبضة البيزنطيين على الغرب ، على حين أن الشعوب الصقلبية الوثنيين بالبلقان ، أقامت عقبة أخرى حالت دون الاتصال المباشر بين الجانبين . ولكن بيزنطة تمكنت من ضم بلغاريا إلى حظيرة المسيحية في القرن التاسع ، بعد أن ترددت طويلا بينها وبين الولاء لروما[١] ، وأخيرا غلبت على مذهبها الأرثوذكسي ، والواقع أن أطرافها الغربية (وكانت تضم آنذاك الشيء الكثير من صربيا العصرية) كانت تحدد دائرة نفوذ بيزنطة الديني والثقافي . وبذلك أضيف سبب جديد للانقسام إلى ما يقوم بالبلقان من أسباب الشقاق التي لا يحصيها عد ، والتي لا تزال آثارها باقية إلى يومنا هذا .

---

(١) انظر استيفن رانسيمان في كتاب (A History of the First Bulgarian Empire) ص ص ٩٩ ع ع (لندن ١٩٣٠)

الفصل الثانى عشر

الفرنجة

عندما توفى كلوفيس فى (٥١١) انقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، « كأنما كانت مزرعة خاصة » . وهذه العادة فى اقتسام الإرث عند الفرنجة تعتبر من الحقائق الأساسية فى تاريخ الميروفنجيين ، إذ يرجع إليها قدر كبير من التفكك والفوضى التى سادت هذه الحقبة من التاريخ . فكلما مات ملك تواصلت التجزئة ، التى كثيرا ما كانت تستند إلى اعتبارات شخصية بحتة . مثال ذلك أن شرق فرنسا ضم عقب وفاة كلوفيس إلى الأوفرن ، دون مراعاة للأجناس أو القوميات . ولكن المملكة لم تزل على الرغم من هذا التقسيم تعد وحدة ، كما يدل على ذلك اسمها الذى اشتهرت به وقتذاك ، وهو مملكة الفرنجة (Regnum Francorum) ، واعترف أبناء كلوفيس الأربعة ، بأن من واجبهم المشترك ، أن يتموا مابدأه أبوهم من الفتح . وفضلا عن ذلك ، فإن العواصم الأربعة : ريمز وأورليان وباريس وسواسون ، كانت تقع فى أطراف الإمارات ، وكلها على قرب وثيق بعضها ببعض ، وبذلك ألفت بمجموعها مركزا للنفوذ الجرمانى .

ولا تنطوى قصة تلك الأسرة فى أثناء نصف القرن التالى إلا على سلسلة طويلة من جرائم القتل واستلحاق الأرض والثورات والتقسيمات الجديدة فى الإرث . ولكن الوحدة عادت مؤقتاً فى (٥٥٨) . يوم لم يبق من جميع سلالة كلوفيس سوى كلوتار . فعلى الرغم من الحروب الأهلية تواصل الربط بين أجزاء فتوح كلوفيس واستمر توسيع رقعتها . فأخضعت برجنديا نهائياً

فى (٥٣٤)[1] وأصبحت تؤلف جزءاً من ممتلكات الفرنجة ، وإن عاد عليها القرن الذى قضته مستقلة بنوع من وحدة الثقافة ، لم تنمحى عنها آثاره بعد ذلك أبدا . أما پروڤانس التى كانت تابعة فى يوم من الأيام لثيودوريك ملك القوط الشرقيين بإيطاليا ، فقد تخلى عنها خلفاؤه فى قريب من ذلك الوقت . على حين أن سبتيمانيا ، وهى المنطقة الواقعة بين الرون والبرانس ، كانت لاتزال بأيدى القوط الغربيين ، ولم تعترف بريتانى للفرنجة إلا بسيادة اسمية . ويمكن القول إجمالا بأن فتح غالة قد اكتمل حتى حدودها الطبيعية . ولم تظفر الجيوش الفرنجية بهذا المبلغ من النجاح خارج هذا النطاق . إذ إن حملاتهم على شمال إيطاليا وأسبانيا لم يترتب عليها نتائج ثابتة كهذه ، على الرغم من أن ضعف القوط الغربيين والقوط الشرقيين قضى على كل احتمال أمامهم للثأر لأنفسهم . وكان ثيوديبرت أشد أبناء كلوڤيس إقداما ، وقد دبر ذات يوم خطة رام بها أن ينحاز إلى الجيپيه واللومبارد للقيام بهجوم مشترك على تراقيا، بل تشير الرواية إلى أنه فكر فى شن هجوم على بيزنطة ذاتها . على أنه ينبغى لنا ألا نغلو فى تقدير هذه الأمور أكثر مما يجب . فما كان ثيوديبرت رجلا يضارع شرلمان أو أوتو ، وليس ثمة دليل على أن وراء هذه الخطط الطنانة بصيرة سياسية نافذة .

ولكن الواقع أن التقدم الحق فى أثناء تلك المدة كان فى اتجاه الشرق . إذ اكتملت فتوح الفرنجة على يد كلوڤيس فى صورتها الصحيحة . فقدمت باڤاريا فروض الطاعة والولاء ، وأُخضعت تورنچيا . ولكن قبائل السكسون بالسهول العظمى فى وسط ألمانيا أظهرت فى القتال عنادا أشد ، وردت الغزاة

---

(١) انظر ص ١٣٧ بعنوان ثيودوريك والكنيسة .

على أعقابهم بعد أن كبدتهم خسائر فادحة . على أن هذا يعد ابتداء العملية التى كتب لشرلمان أن يصل بها إلى خاتمتها ، كما يعد تمهيدا لطريق المبشرين المسيحيين الذين قاموا فيما بعد بتنصير ألمانيا .

الميروفنجيون الأوائل

على أن نصف القرن التالى يتصف بصفة مناقضة تماما . إذ حلت الحرب الأهلية فى أثنائه محل الفتح . وعلى الرغم من تواصل الحملات على شمال إيطاليا ، فإنه لم يترتب عليها إضافة هذه الجهات إلى الفرنجة نهائياً . أجل بذلت بعض الجهود لانتزاع سبتمانيا من القوط الغربيين ، وشهدت كل من كركاسون ونيم الاشتباك المسلح بين الطرفين : غير أن المنطقة ظلت خاضعة لحكام أسبانيا، ثم انتقلت فيما بعد إلى أيدى المسلمين . ولم يبرح البريتون والباسك (الباشكنس) يحافظون على استقلالهم ، وفوق هذا فإن غارات الآفار على ثورنجيا التى حدثت فى ذلك الوقت حالت دون أى مزيد من التوسع على الحدود الشرقية.

لقد استنفدت موجة الفتح قوتها ، كما أن قوى الانحلال داخل مملكة الفرنجة كانت تعمل عملها بأقصى قوة . والصفحات التى كتبها جريجورى أسقف تور تروى لنا قصة ذلك الزمان . إذ إنها تسجل الوباء والمجاعة والقتل والموت الفجائى . وتذكر امتلاء الطرق بالشحاذين وقطاع الطرق ، بل إن الكنائس نفسها لم تكن بنجوة من النهب . ولما استشرت العداوات الضارية بين أمراء الميروفنجيين ، التمسوا المساعدة من النبلاء فى ممالكهم ؛ وتتجلى نتيجة ذلك فى زيادة استقلال النبلاء ونمو الإقطاع واستشراء الخروج على القانون، وفى العداوة التى نشبت بين نوسترسيا ونوستريا وبين برجنديا وأكيتانيا، التى بدا أنها تتجه نحو تكوين إمارات مستقلة . وتوفى كلوتار آخر من بقى حيا من أبناء كلوفيس فى (٥٦١) تاركا وراءه أربعة أبناء . ولكن لم يعش

من هؤلاء الأربعة إلا كاريبرت ملك باريس حتى (٥٦٧) ونشب بين سيجبرت ملك متز وشلبريك ملك سواسون نزاع طويل مرير من أجل السيادة، على حين أن الأخ الرابع وهو جنترام ملك أورليان وبرجنديا حاول أن يحفظ التوازن بينهما. ثم تفاقمت حدة العداوة بين سيجبرت وشلبريك عندما تزوجا أميرتين شقيقتين، هما برانهيلدا وجالسوينثا — وهما من بلاط القوط الغربيين الذى اشتهر بالأبهة والتمدن. على أن جالسوينثا زوجة شلبريك لقيت مصرعها خنقاً فى ظروف مريبة، وعندئذ عاد شلبريك إلى خليلته الأولى فريديجند. ولم يلبث سيجبرت أن خرّ صريعا غداة انتصاره على شلبريك، بطعنات الخناجر المسممة التى سددها إليه عملاء فريديجند. ووقعت برانهيلدا فى الأسر، غير أنها تمكنت من الهرب إلى مملكة ابنها، حيث دبرت الانتقام من أعدائها على هذه الجريمة المزدوجة. ومنذ تلك اللحظة تسيطر على هذه الفترة شخصية برانهيلدا ملكة أوستراسيا والوصية على عرشها — وأوستراسيا هى مملكة الفرنجة الشرقية — كما تسيطر على تاريخ الحقبة أيضاً بما شنته من حرب على نوستريا، وهى مملكة شلبريك فى الشمال والغرب (التى هى آخر الفتوح وأحدثها niust). ويعتبر شلبريك طراز الطاغية الميروفنجى. إذ إن الشهوتين اللتين سيطرتا عليه هما زيادة ثروته وتوسيع رقعة مملكته. ولتحقيق هاتين الغايتين صار يبيع الأسقفيات، ويجبى ضرائب باهظة، وينزل الغرامات على رعاياه الأغنياء، وذلك على حين أنه لم يكن يرى فى الخيانة ضعة ولا فى القسوة وحشية، ما دام يحقق بذلك خططه ومآربه ضد خصومه من الأمراء الميروفنجيين. وكان جريجورى أسقف تور يعده نيرون زمانه وهيرودس عصره. ولاشك أن هذه الصفات كانت شائعة بين معاصريه. ولكن شلبريك كانت له مواهب أصيلة. فإنه لاحتقاره اللسان الجرمانى، كان يقرض التراتيل

والقصائد باللغة اللاتينية ؛ وصدر عنه مرسوم أضيفت بمقتضاه أربعة حروف إلى الأبجدية . وبأمره تقرر إنكار الأقانيم الثلاثة وبطلانها باعتبارها حماقات تشبيهية ، بل لقد بلغ الأمر بتحرره الفكرى أن تحدى قانون الساليين ، الذى يعتبر الحصن الحصين لتقاليد الفرنجة ، وذلك فيما حاوله من إجازة الإرث للنساء فى أحوال خاصة . ثم إن لبرانهيلدا عدوته اللدودة شخصية بالغة القوة هى الأخرى . فقد ظلت أكثر من ثلاثين عاما مسيطرة على مصائر أوستراسيا وصامدة فى وجه هجمات شلبريك ، كما أنها تمكنت بفضل مساعدة أتباعها المخلصين ، وعقد تحالف مع برجنديا فى الوقت المناسب ، من القضاء على النبلاء الخونة . فهلك أحدهم فى لهيب قلعة أضرمت فيها النيران ، بينما لقى آخر مصرعه بإلقاء الآجر عليه من خلال سقف كنيسة الأسقف بفردان . ونصب حفيداها على عرشى برجنديا وأوستراسيا ، ولكن برانهيلدا ظلت مع ذلك قابضة على زمام السلطان . وعندما شق أمير أوستراسيا عصا الطاعة على طغيانها ، ألبت عليه أخاه ، ولم تزل به حتى هزم وأعدم . ولكن خاتمة حياتها الطويلة كانت اقتربت . فقد مات حاكم برجنديا فى (٦١٣) ، ولم تنجح برانهيلدا فى محاولتها ضم عرشى أوستراسيا وبرجنديا تحت حكم ابن حفيدها . فإن نبلاء أوستراسيا بزعامة أرنولف أسقف متز وببين ناظر القصر وهما مؤسسا البيت الكارولنجى ، استصرخا ملك نوستريا لمساعدتهما ، وأخذت برانهيلدا أسيرة على شاطىء بحيرة نيوشاتل . وعذبت مدة ثلاثة أيام ثم ربط جسدها فى النهاية فى ذيل حصان جموح ، أطلق له العنان ، وضرب بالسوط حتى جمح وأفلت زمامه .

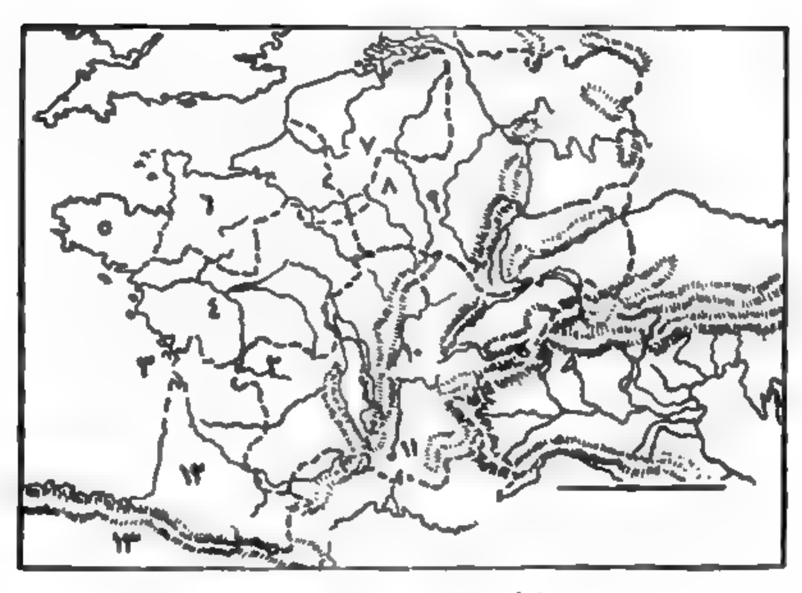
برانهيلدا وشلبريك

وقد عرفت برانهيلدا كيف تحكم الهيمنة على مابمملكتها من قوى . وعلى الرغم من التزامها خطة الحزم الشديد فى معاملة الكنيسة ، لم يفتها فى الوقت ذاته بذل المنح والهبات العديدة للأسقفيات والأديرة . وتشهد المراسلات التى دارت بينها وبين البابا جريجورى الأكبر بمدى إدراكه لسلطانها على الكنيسة والدولة ، وتقديره لأهمية نفوذها فى فرنسا . ويبدو أن النبلاء كانت لهم اليد العليا فى عهد كلوتار الثانى الذى تولى عند ذاك عرش المملكة بأجمعها. وكان تعاونهم فى أوستراسيا بوجه خاص حاسماً فى تحقيق النصر ، ويتجلى الثمن الذى انتزعوه واضحاً فى مرسوم (٦١٤) . فإن الكنيسة حرصت فيه على إبراز استقلالها ، وطالبت بحرية الانتخابات الأسقفية وزيادة سلطات المحاكم الكنسية ، على حين انتصرت الأرستقراطية صاحبة الأراضى الزراعية على موظفى البلاط ، حيث أصبح محتما منذ تلك اللحظة أن يكون انتخاب الكونتات [1] قاصراً على أبناء النواحى الذين سيتولون الحكم فيها ، وبذلك تزايد النفوذ المحلى والوراثى . ومنحت أوستراسيا وبرجنديا نصيباً موفوراً من الاستقلال الذاتى ؛ وبذا صار لكل من المملكتين طابعها الخاص المميز ونظامها الإدارى المنفصل ، وأصبح يرأسها نظار القصر ، الذين صاروا يمثلون مصالح النبلاء المحليين بقدر مايمثلون مصالح الملك . على أن المملكتين تجزأتا فى حد ذاتهما إلى إقطاعات كبيرة ، بل لقد مضى التفكك إلى أبعد من ذلك .

ومع ذلك حدث فى تلك اللحظة أن توقفت العملية برهة وجيزة ، ومن ثم يشهد حكم داجوبرت (٦٢٩ ــ ٦٣٩) آخر الأقوياء بين الملوك الميروفنجيين

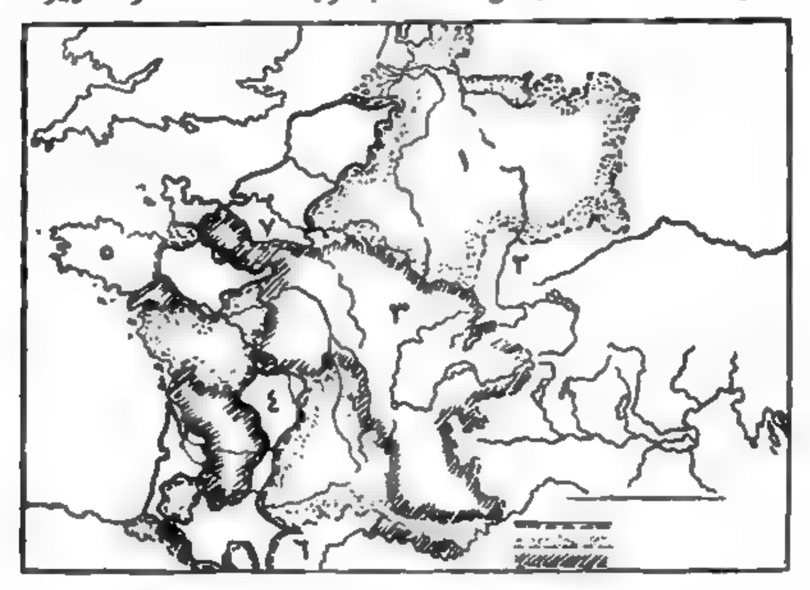
---

(١) انظر الفصل نفسه بعنوان حكم الرومان والجرمان .



(أ) من ٥١١ — ٥٦١ م

١ ـ برجنديا ٢ ـ أكيتانيا ٣ ـ بوردو ٤ ـ بواتيه
٥ ـ بريتانى ٦ ـ نوستريا ٧ ـ أوستراسيا ٨ ـ ريمز ٩ ـ متز
١٠ ـ فيينا ١١ ـ بروفانس ١٢ ـ جسكونيا ١٣ ـ القوط الغربيون



(ب) ٥٦٨ م

١ ـ أوستراسيا ٢ ـ مانيا ٣ ـ برجنديا
٤ ـ أكيتانيا ٥ ـ بريتانى ٦ ـ سبتمانيا ٧ ـ باريس

---

(١٤) خريطتا فرنسا فى عهد الميروفنجيين

الملوك الميروفنجيين ، انبثاقاً نهائياً لمظاهر القوة والجبروت من جانب السلطة المركزية . فإنه ظل عشر سنوات يحكم فرنسا بأجمعها ، بعد أن تمكن فعلا من إبعاد أخيه بتعيينه حاكما على إقليم منطقة الحدود ببلاد الباسك . وازدهرت الفنون ببلاطه المتألق الحافل بالفضائح . فإنه أولى صناعة الذهب اهتماماً خاصاً . وتأسست فى عهده الأديرة ، وقام المبشرون بنشاط عظيم . وأرغم البريطونيون والبشكنس (الباسك) على أداء يمين الولاء ، وأصبح نفوذ الفرنجة ملموساً فى شئون إيطاليا وأسبانيا . بل لقد حدث أن داجوبرت عقد محالفة مع هرقل ، تقضى بالقيام بإجراء مشترك لمناهضة الصقالبة والبلغار بوسط أوربا ، الذين كانوا يهددون حدود كل من فرنسا وبيزنطة على الراين والدانوب .

وقعة تيرترى

وعند وفاة داجوبرت انقسمت المملكة شطرين ، وعادت عملية اللامركزية والتفكك سيرتها الأولى ومن المعروف أنه حدث فى أثناء حياة داجوبرت أن طلبت أوستراسيا أن يكون لها حاكم مستقل ، وهو ابن الملك . وعندئذ ازداد ظهور نزعات الانفصال فى الأجزاء الثلاثة التى تتألف منها فرنسا . والواقع أن تاريخ القرن التالى لايدور إلا حول قصة أطماع نظار القصور ومنافساتهم . وصار الأمراء الميروفنجيون يولدون ويموتون ، وليسوا سوى أشباح قصيرة العمر ، قد أهلكها انغماسها فى الفجور (Rois fainéants) فى سن مبكرة ، دون أن يظهر بينهم فى أحسن أحوالهم إلا الورع الضعيف أو الظريف المستسلم . أما القوة الحقيقية فأصبحت فى أيدى كبار موظفى الدولة ، الذين كانت المنازعات التى تنشب بينهم من أجل السيادة الشخصية ، هى التى تقرر مصائر المملكة . على

أن مركز نظار القصور[1] كان متناقضاً من بعض الوجوه . فإنهم كانوا فى نفس الحين كما سبق أن أشرنا نواب الملك الممثلين له وزعماء لطبقة النبلاء المحليين . وعندما تعارضت هذه المصالح المتضاربة ، انحاز بعض محافظى القصر إلى جانب الملك ، بينما انضم بعضهم الآخر إلى جانب النبلاء . على أن جريموالد ناظر القصر فى أوستراسيا آنس فى نفسه من الجرأة والإقدام ما حمله على إعلان مناهضته للجانبين جميعاً . ولم يلبث حتى نفى الأمير الميروفنجى إلى إرلندة فى (٦٥٦) ، وأجلس ابنه على العرش . غير أن الوقت لم يكن مناسباً للقيام بهذه المغامرة ، فتغلب عليه النبلاء ، وأسلموه إلى ملك نوستريا فأعدمه . ولم يجد سلالته من الكارولنجيين فى أنفسهم من القوة ما يكفى لممارسة السلطة الملكية باسمهم إلا بعد مضى مائة سنة . على أن الحروب الأهلية لم تتوقف قط فى تلك الأثناء ، حيث كان كل ناظر قصر يحرص على رفع شأن إقليمه ، إما بقصد إرضاء الملك الذى يقوم على خدمته ، وإما بالحد مما طبع عليه رفاقه النبلاء من رغبة جشعة فى انتهاب الأراضى .

على أن مملكة نوستريا صارت لها اليد العليا فى (٦٥٧) بفضل ما اشتهر به محافظ القصر إبروين ، ولكن أوستراسيا طالبت بأن يكون لها محافظ قصرها وملكها الخاص ، أما برجنديا التى تولى قيادتها أسقف أوتون ، الذى رفع فيما بعد إلى مرتبة القديسين باسم القديس ليجير ، فإنها طالبت بالاستقلال . ووقع ليجير فى الأسر وأعدم بعد أن حل به من التعذيب والتنكيل ، ماجعله يظفر فى الأزمنة المتأخرة بتاج الشهداء ، واستعادت نوستريا سيادتها مرة أخرى . وقد ظل إبروين محتفظاً بسلطانه حتى وفاته (٦٨١) ، ولكن نجماً جديداً سطع فى الأفق فى ذلك الحين . فإن بيبين الثانى زعيم النبلاء الأوستراسيين قد لقى

---

(١) ناظر القصر أو حاجب القصر (Mayor of the Palace)

الهزيمة على يد إبروين ، ولكنه عاد بعد ذلك ببضع سنوات فانتهز فرصة الشقاق الذى دب بين أهل نوستريا ، فزحف على المملكة المنافسة له ، وتمكن فى معركة تيرترى بالقرب من بيرونّ من التغلب على كل مقاومة ، ونصب نفسه حاكماً فعلياً على فرنسا (٦٨٧) . ولم تكن معركة تيرترى نصراً لجرمان الشرق على جرمان الغرب : وذلك لأن پيپين ظفر بتأييد فريق كبير من النوستريين . على أن تلك المعركة كانت فى ظاهرها نصراً للنبلاء على السلطة الملكية التى كان يؤيدها جريموالد وخليفته : ولكنها لم تكن فى الواقع إلا انتصارا شخصياً لپيپين . ومنذ تلك اللحظة أصبح پيپين سيدا على فرنسا ، وصار هو الذى يهب منصب محافظ القصر لمن يشاء من أفراد أسرته ، ويحكم البلاد حكم ملك حقيق لا يعوزه إلا اللقب . وبذلك يكون ما فعله فى الواقع نهاية حكم الميروڤنجيين ، وبداية عهد الأسرة الكارولنجية .

وتمكن فى المدة بين (٦٨٧ ، ٧١٤) من فرض سلطانه على البلاد ، واستطاعت قبضته القوية أن ترفعها مكاناً علياً فى سياسة غرب أوربا . على أنه عند وفاته ، صارت مصائر أسرته ووحدة فرنسا فى كفة القدر . ذلك أن ولديه الشرعيين توفيا فى أثناء حياته ، ولمّا يبلغ أحفاده سن الرشد بعد فانفصلت برجنديا ونوستريا إحداها عن الأخرى ، وانتشرت الفوضى والاضطراب بكل أرجاء البلاد . ففى الشمال الشرقى عاث الفريزيون فسادا فى المنطقة المحيطة بمدينة كولن ؛ وحذا حذوهم السكسون فى أقصى الجنوب ، على حين اغتنمت أكيتانيا الفرصة للمرة الثانية فأعلنت استقلالها . بيد أن البيت الكارولنجى عثر عند ذاك على بطله الذى وهبه ذلك الاسم . إذ إن شارل مارتل الابن الثالث لپيپين تغلب على جميع العقبات التى صادفته الواحدة بعد الأخرى . وقد استخدم قوة أوستراسيا كما فعل أبوه من قبل وقضى على جميع العصاة النوستريين وألزم أهالى أكيتانيا الطاعة واستعاد الأطراف الشرقية بمجموعة

من الحملات المظفرة ، كما استطاع فى (٧٣٢) تشتيت شمل الجيوش العربية فى معركة بواتييه [١] ، متبعاً نصره بعد ذلك بحملته التى شنها على بروفانس . ومع ذلك فقد أظهرت الأيام أن استقلال أكيتانيا قد خدش ولكن لم يقض عليه ؛ وظل العرب محتفظين بمدينة ناربونة ، التى اتخذوا منها ملاذاً حصيناً يخرجون منه لمباغتة مدن وادى الرون .

على أن پيپين بن شارل هو الذى أتم نهائياً إخضاع أكيتانيا . إذ إن فتحه لها اتسم بالاستقرار والنجاح والثبات . كان يفوق أباه فى البراعة السياسية والتدبير ، وشاهد ذلك أنه حرص على استرضاء الكنيسة بمنحها الهبات التى تقوم على دراسة وتمعن ، وعنى بتأسيس حزب موال له بين أهالى أكيتانيا أنفسهم . وقد تجلى منه الحرص فى سياسته منذ وقت مبكر ، وكانت آية ذلك حادثاً صدر عنه . ففى (٧٥١) اتخذ پيپين لقب ملك فرنسا بعد أن حصل على موافقة البابا على مشروعه ، وبعد أن أمر بحلاق رأس آخر الميروفنجيين وإدخاله حياة الرهبنة . وبعد ذلك بثلاث سنوات توج پيپين رسمياً بكنيسة سان دينيس ، وقام بمراسم التتويج البابا استيفن الثانى ، الذى كانت الظروف قدا ضطرته إلى اجتياز جبال الألب يلتمس مساعدة الفرنجة على اللومبارد . وكان التتويج من الشعائر الجديدة على الفرنجة : فإنه كان بمثابة الخاتم الذى مهر به انتخاب پيپين لعرش المملكة ، ذلك الانتخاب الذى أقرته من قبل جمعية الشعب (المجلس الوطنى) وقد قدر لنظرية « الحق الإلهى » فى الحكم الذى تنفرد به أسرة معينة ، أن تزداد أهمية فيما عقب ذلك من تاريخ فرنسا ؛ ومع ذلك فإنه حتى فى هذه الفترة كان قيام الكنيسة بمسح الملك بالزيت المقدس ، مسحا يقترن بالسوابق المستمدة من الكتب المقدسة ، أمراً لابد

---

(١) انظر الفصل التاسع بعنوان فتح شمال إفريقية .

منه ، لموازنة ما جرى من انتهاك حرمة الميروفنجيين الذين يعتبرون من سلالة إله البحر الأسطورى ، والذين احتفظوا ، حتى فى إبان اضمحلالهم ، بما كان للوثنية فى الأزمنة السحيقة من قداسة خفية .

البابوية والكارولنجيون

ولم يكن من الأحداث العارضة تحالف البابا وأسرة الكارولنجيين ، الذى قدر له أن يغير مجرى التاريخ الأوربى بأجمعه . وعلى الرغم من أن الشكل الذى اتخذه ذلك التحالف إنمـا يرجع إلى سياسة بعض الشخصيات البارزة ؛ فإن المؤثرات المتلاقية المتجمعة التى جعلت تلك السياسـة شيئاً مرغوباً ، كانت ثمرة تطورات بطيئة . ويذكر القارئ أن كلوفيس أنشأ كنيسة يصح اعتبارها قومية أو تكاد . وقد واصلت الكنيسة الاحتفاظ باستقلالها فى ظل أحفاده ، حتى أن البابا جريجورى الكبير نفسه لم يستطع رغم تعيين نائب له فى آرل ، تنفيذ مدعياته فى السلطان ، بل اضطر إلى أن يكتفى بأن يمارس عن طريق أمثال برانهيلدا نفوذا غير مباشر . وانعكس على الكنيسة الارتباك والبلبلة اللذان يتولدان عن الحروب الأهلية : فإن انقسام المملكة لم يهيىء الفرصة لعقد المجامع الكنسية العامة ، كما أن الأساقفة تورطوا فى النزاع السياسى . واختلطت السلطات الزمنية بالكنيسة ، ولم يكن صوت البابوية مسموعاً بين فرقعة الأسلحة . فلما أن أعيد النظام إلى نصابه فى عهد الكارولنجيين ، صار من الضرورى إتمام الوحدة السياسية لفرنسا ، بزيادة العناية بتنظيم إدارة الكنيسة . إذ إن شارل لم يسهم إلا فى زيادة الاضطراب ، وذلك لأنه كافأ أتباعه بما بذله لهم من الأسقفيات والأديرة : ولكن ببين وأخاه كارلومان اللذين انسحبا فيما بعد إلى الدير ، أقرا مشروعات الإصلاح التى عرضها عليهما بونيفاس ، وصدرت على أثر ذلك طائفة من القرارات ،

التى تنظم السلطة الـكهنوتية وإدارة الـكنيسة وآدابها . وكان بونيفاس مبشراً إنجليزياً ، قام بخدمات جليلة فى ألمانيا ، حيث أدخل فى الدين المسيحى عدداً كبيراً من الوثنيين . وسنعود إلى الإشارة إلى أعماله الجليلة فيما بعد ، بيد أن أهمية عمله فى هذا المقام ، إنما ترجع إلى علاقته الوثيقة بالبابوية . وكان بونيفاس من رجال البابا المخلصين . وقد طلب من كل أسقف يتبعه أن يقسم يمين الولاء لـكنيسة روما وللقديس بطرس وقسيسه الأكبر وهو البابا . وعلى الرغم من أن پيپين وكارلومان احتفظا بما لهما من حقوق السيادة على الـكنيسة ، فإنهما كثيرا ما كانا يستشيران البابا ، ومن ثم أخذت العلاقات بين السلطتين الـكبيرتين فى الغرب تتوثق رويدا رويدا . وحدث بالفعل أن شارل مارتل تلقى استغاثة من البابوية تستصرخه لنجدتها ، وقد اشتد بها الضيق فى أثناء كفاحها مع اللومبارد . غير أنه لم يستجب لذلك النداء ، وذلك لأن مركزه لم يتوافر له من الاستقرار ما يسمح له بخوض حملات خارجية محفوفة بالمخاطر ؛ يضاف إلى ذلك أن اللومبارد كانوا الحلفاء الطبيعيين للفرنجة وأنهم انحازوا إلى شارل فى أثناء قتاله مع المسلمين . ولم يجد شارل كذلك بدا من النظر بعين الاعتبار إلى مركز أباطرة بيزنطة الذين كانوا بوصفهم أباطرة روما لا يبرحون يطالبون بالسيادة على إيطاليا . غير أن الأحداث كانت تتحرك بسرعة نحو خاتمة فاصلة . ففى (٧٥١) قذف ملك اللومبارد بقواته على راڤنا . ففر الأرخون (النائب الامبراطورى) البيزنطى وفقدت بيزنطة إلى الأبد أملاكها فى شمال إيطاليا . وفى السنة ذاتها وبتشجيع من البابا ، اتخذ پيپين لنفسه التاج بعد أن نحى عن العرش آخر ملوك الميروڤنجيين . وعندئذ أصبح تهديد اللومبارد للبابوية خطرا محدقا ؛ وكان الموقف يتطلب منها الخضوع التام ، كما أن سقوط روما بدا شيئا لا مندوحة منه . ولم يبرح پيپين مترددا ، حتى عبر البابا بنفسه جبال الألب فى مهمته الخطيرة ، التى أدت إلى

جلب قوات الفرنجة إلى إيطاليا ، وتوطيد اتحاد البابا والبيت الكارولنجى فى الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

حكم الرومان والجرمان

بالغ المؤرخون فى قيمة بقاء فكرة الإمبراطورية فى أثناء القرون التى انقضت بين سقوط روما وتتويج شرلمان . حقاً أن جذور الإمبراطورية الغربية كانت تمتد طويلا فى الماضى السحيق ، وأنها تستمد بقاءها بطبيعة الحال من السوابق العتيقة ؛ يضاف إلى ذلك أن تأسيسها لم يحدث انقلابا ثورياً فى الموقف السياسى بالغرب ؛ وكل مافعله أنه كان تعبيرا رسمياً لما كان قائماً فعلا من الأمور . غير أن مااقترن بأصلها من ظروف عجيبة والفروق الضخمة التى كانت تباعد مسافة الخلف بينها وبين الإمبراطورية الرومانية القديمة ، أنموذجها الأول المحتذى، إنما ترجع إلى حد كبير إلى اندماج الحضارتين الجرمانية والرومانية ، الذى تميز به سكان ممتلكات الفرنجة . وكل مايمكننا إيراده هنا عن ذلك الأمر هو مجرد الإشارة العابرة . ذلك أن ماحدث إنما هى عملية معقدة دامت ثلاثة قرون ، واختلف أثرها بين منطقة وأخرى ، وبين مدة زمنية وأخرى ، كما أن معرفتنا بها ضئيلة ومستمدة من سجلات متقطعة متناثرة ، وهو وضع يحول دون الوصول إلى قواعد وتعميمات وثيقة .

فمن حيث المظهر ، يبدو أن التنظيم الإدارى والسياسى بفرنسا لم يختلف إلا قليلا عما كان عليه حاله فى غالة الرومانية . إذ إن ما اتخذه ذلك التنظيم من الطرائق والمصطلحات مستمد من روما ، وكانت اللاتينية هى اللغة الرسمية . ومما هو جدير بالملاحظة فى هذا الصدد ، أن عدد الكلمات ذات الأصل الجرمانى فى الفرنسية الحديثة لايتجاوز العشرة فى المائة من اللغة الفرنسية ذاتها . أما فيما يتعلق بالوضع القانونى ، فلم يفترق الفرنجة عن سائر السكان إلا فى قيمة

الدية (Wergild) ، على حين أن مناصب كبار رجال الدين ، فضلا عن المناصب المالية ، كان يشغل معظمها الرومان الفرنسيون . ولكن لو فرض أن أوضاع هذه النظم بقيت دون تعديل ، فلا شك أن روحها كانت تعرضت فعلا لتغيرات عميقة ، لا عن طريق المؤثرات الجرمانية المباشرة فحسب بل أيضاً نتيجة ما ترتب على الغزوات من أحوال جديدة . وقد استندت الإمبراطورية الرومانية إلى الفكرة التجريدية عن الدولة ، وإلى جعل القوانين والحكومة للجميع بدرجة متساوية ، و بصورة مستقلة عن أولئك الذين يمثلونها . فالفرد ليس إلا مواطنا بالإمبراطورية لا رعية للإمبراطور . أما المملكة الفرنجية فكان اعتمادها فى فى بقائها على العلاقة الشخصية بين الرجل والرجل . وكانت سلطة الملك شخصية بحتة ، فهى من ثم تختلف باختلاف شخصية شاغل العرش . وكان رعاياه يرتبطون به بيمين الإخلاص ـ التى هى رابطة شخصية ـ وهى يمين تحتم عليهم اتباعه فى الحرب . وظهرت عند ذاك طائفة جديدة من النبلاء ، اعتمدت فى البداية على الملكية ، ثم أخذت بعد ذلك تظفر بالقوة عن طريق النفوذ الوراثى المحلى ، والإعفاءات التى كانت تغدق عليها . وكان العنصر الشخصى ظاهراً أيضاً فى المجال القانونى . فإن الرجل من هؤلاء كان يحاكم بمقتضى قوانين الجنس الذى ينتسب إليه ، سواء كان من الغاليين الرومان أو الساليين أو الريبواريين أو البرجنديين . وكانت طريقة الأخذ بالثأر ، وهى ذلك المبدأ الجرمانى القديم ، لاتزال قائمة لم يتم القضاء عليها ، ولذا حفلت صفحات تاريخ جريجورى أسقف تور بقصص الثأر والانتقام . ومن ثم فإن ما اشتهر به نظام الوظائف فى غالة الرومانية من بالغ التخصص فى الأعمال لم يعد له وجود ؛ وذلك لأن ظهور الأحوال الجديدة البدائية الساذجة أزال كل فائدة له . فأحاط بالملك «القشريفانى الحاجب» و «الصنجيل» و «الكندسطبل» ، وقام بالمهام الخاصة

أفراد من رجال البلاط لم يجر اختيارهم وفقاً لنظام خاص . وأصبحت المناطق المختلفة تحت حكم الكونتات الذين يختارهم الملك من بين جميع الطبقات ، بينما نيطت حكومة الثغور بأدواق عسكريين ، كثيرا ما أصبحوا حكاما وطنيين ومستقلين فعلا ، شأن ماحدث من دوق بافاريا وثورنجيا . وكانت بوابات المشور ومعديات الأنهار لاتزال تدفع مكوسها ، وإن حدث فى كثير من الأحيان أن أفرادا كانوا يغتصبون تلك المكوس لأنفسهم . على أن نظام الضرائب المحكم الذى تميزت به الإدارة الرومانية قد أغفل وأصبح مهملا : إذ لم يعد له مكان فى خطة أمير ليس لديه خدمات عامة يحرص على صيانتها والمحافظة عليها ، ولا يعد المال إلا شطرا من ثروة مدخرة تحول عند اللزوم إلى صحاف ذهبية أو حلى مرصعة بالجوهر . وبلغ بهم الأمر أنهم كانوا لايعدون الجيش من الأعباء العامة بالدولة ؛ إذ تحشد « الجموع » حشدا جديدا لكل حملة من الحملات . وكان رجال الجيش يعتبرون أتباع الملك ، ويؤدون الخدمة على حسابهم الخاص . أما القوات الدائمة الوحيدة فهى الحرس الملكى الخاص (Antrustions) ، فضلا عن بضع كتائب قليلة ترابط على التخوم .

على أن فئات نظام الدية[1] تقسم المجتمع ابتداء إلى غالب ومغلوب ، وتضع الغالبين الرومان دون أقل الفرنجة مرتبة . غير أن هذا الوضع لم يستمر طويلا إذ إن الميزات الشخصية قد أبرزت نفسها ، فبينما ظلت طبقة السناتوريين تمد الحكومة بالأساقفة والموظفين ، حاز أغنياء الفرنجة قسطا ضئيلا من الثقافة الرومانية . واختلطت الطبقتان إحداهما بالأخرى ، وحذا حذوهم الأرقاء والعتقاء وصغار الفلاحين من كل من الجنسين . وهنا أيضا يكون ولاء الفرد للفرد هو القوة الرابطة . فالأسقف أو رئيس الدير والموظف فى البلاط أو

(١) انظر الفصل الثالث بعنوان فرنسا فى عهد كارولنجيين ص ١٢٠ .

الحاكم المحلى كلهم رجل الملك (Leud) ، وكلهم مرتبط به برباط خاص ، وكلهم موضوع تحت حمايته . وكان هذا المبدأ نفسه معروفا فى كل إقليم (pagus). فالكونتات ينتظمون تحت إمرة الأدواق ، ويلتمس حماية الكونت الرجال الذين يقلون عنه مكانة . فكأن السلسلة الإقطاعية قد تشكلت فعلا ، وإن لم يعترف بها القانون بعد ، وهنا أخذت كلمة « رجل (Leud) تختفى ليحل محلها مصطلح : « تابع Vassus » . يضاف إلى ذلك أن هذه التبعية الشخصية قد عززها وزاد فى قوتها نمو المزارع الضخمة . فكما حدث فى القرون المتأخرة من الحكم الرومانى ، كان المالك الصغير يسارع إلى وضع نفسه تحت حماية سيد قوى بأن يتنازل له عن حيازته الحرة مقابل الحصول على وعد بكفالة سلامته وأمنه . وكانت الأديرة والأسقفيات تضيف إلى أملاكها الحقل بعد الحقل ، وذلك لأنه متى انتقلت الأملاك إلى يد الكنيسة ، لم يعد ممكناً انتقالها من حوزتها ، وكانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى ملكية الكنيسة بفرنسا مايربو على ثلث الأراضى . ويتجلى ضعف السلطة المركزية أيضاً فيما ارتكبه صغار موظفيها وتابعيها من الأخطاء والأضرار ، على أن كبار الملاك حصلوا على الامتيازات والإعفاءات تجنباً لما يقوم به هؤلاء الموظفون من ابتزازات . وبذلك أبعد موظفو الملك عن تلك الأراضى منذ تلك اللحظة ، وانتقل إلى ملاك الأراضى كل مايتصل بالضرائب والشئون القضائية من حقوق ومزايا وأرباح . والواقع أن الملكية والسيادة أخذتا بالفعل تتوحدان وتتقمصان . ومن ثم جردت الملكية (العاهلية) الوهمية نفسها من كل ماتبقى لها من سلطات قليلة . ومن هنا أخذ ما كان لدى الرومان من حكومة مركزية وآفاق عريضة للدولة يقترب من نهايته ، ويتحول إلى خصائص العصور الوسطى ومالها من الحكم المحلى والنظرة الضيقة المحدودة .

الفن والأدب والخرافات

لقد ولت حياة المدينة القديمة . وأصبحت المعابد ومدرجات الألعاب (Amphitheatres) خرائب وأطلالا ، وصارت الحدائق تشغل المناطق الخالية داخل المدن المسورة . وتكدس سكان القرى حول مسكن مالك الأرض الكبير بما يحوى من كنيسة وطاحون ودكان حداد ومخابز وإسطبلات إلى غير ذلك من الوسائل التى تكفل الاكتفاء الذاتى . وفى بعض الأحوال كانت أكواخ الأتباع تقع فى أطراف الضيعة ، على أنها تقوم فى معظم الحالات فى شوارع متجاورة ، وهى أسلاف معظم قرى فرنسا الحديثة . ولا تزال بيوت الأغنياء تحوى السقائف والأعمدة ، ولا تزال بها الحمامات والينابيع . وقامت الكنائس فى كل مكان ، منها ما اتخذ طراز البازيليكة القديمة ومنها ما هو على شكل الصليب ، يتوسطها برج بأعلاه منور ، ومنها ما بنى من الخشب على الطريقة التيوتونية . ويتألق داخلها بما رصع فيه من رخام ملون وما أسدل فيه من أستار الحرير الفاخرة الموشاة ، على أن الرخام قد انتزع أصلا من بعض المبانى القديمة ، كما أن الأستار الحريرية مصدرها بيزنطة . ويغلب الطابع المتبربر على فن النحت ، وقد اندثر نهائيا ما اشتهرت به النواويس الآرليسية من تقاليد النحت الأصيلة . فلم يبق على ازدهاره القديم سوى صياغة المعادن ، لأنها كانت تحظى بتشجيع خاص من البلاط الميروفنجى ، ومن هنا تأسس حى الصاغة فعلا فى ظل كنيسة نوتردام بباريس .

وأخذ التغير السريع يلم باللغة الحديث . ولم يعد الفرق كبيرا بين اللغة السوقية الدارجة ولغة الأدب ، وأخذت اللهجات المختلفة تسير فى عملية التشكل بفعل ضغط القوانين الصوتية . فاستخدمت لفظة (Flumina de sanguine) للدلالة على « أنهار الدم » واستخدمت عبارة (promissum habemus)

للتعبير عن قولهم « لقد وعدنا » . واستعيرت ألفاظ ألمانية كثيرة ، ولكن اللسان الجرمانى لايفتأ يحتفظ بمكانته فى المناطق الشرقية . وباستثناء كتاب التاريخ الذى ألفه جريجورى أسقف تور ، فإن الأدب اقتصر أو كاد على تراجم القديسين ، وهى مؤلفات تكرر فى تشابه ممل سرد المعجزات التى أتاها بطلها المترجم له . وفيها تتعاقب العبارات الرتيبة والجمل السقيمة بعضها وراء بعض ، وليس بين الكتاب واحد متمكن من لغته . وليس فيهم من ألم بأية حال بالدراسات الكلاسيكية ، بل إن الاعتقاديات اللاهوتية نفسها قد أقفل رتاجها دون معظم رجال الدين من أهل غالة . وتشربت ديانة سواد الناس بالتقاليد الوثنية ، بل الحق أن الوثنية نفسها لم تخمد نارها ولم تختف نهائياً . فإن ماذاع عند الكلتيين من عبادة إلـه البحيرة وإلـه الجدول ، كان لها من يعبدها سراً ، كما أن الإلـه أودن كان لايزال له مقره فى غابة الأردن . على أن دعوة الكنيسة التى تعززها الرهبة من السلطة الدنيوية ، قدر لها أن تجرد الآلهة القديمة من سلطانها ، غير أن الصياد الأسود واجتماع الساحرات عند منتصف الليل ، وكل مايصدر عن صنوف العفاريت من الغيلان والأقزام والوحوش من ضجيج ، قد ظلت تلاحق خيال العصور الوسطى وتستثيره . ومنذ ذلك العصر أصبح الشيطان (وهو « العدو » كما أخذوا يسمونه ـ وهو لفظ يجمع بين الخوف والخفاء) بارزا مشهورا فى المعتقدات الشعبية ، وأخذ الدين يتشح برداء معتم قاتم . فإن أحداً من الناس لن يستطيع فى اعتقادهم درء انتقام الله أو مكر الشيطان إلا بإقامة الشعائر الدينية . ويظهر القديسون فى الحقول عياناً ، وتصبح المعجزات ونذر السوء من خبرات الحياة اليومية . وترهق الأحلام والفأل عقول الرجال ، وتكتسب الأضرحة والمقدسات الدينية قدرات سحرية على النفع والمضرة .

فهل يوجد فى مثل هذا العالم شىء طبيعى ومعقول أكثر من أن الإمبراطور قسطنطين ، وقد شفته المعجزة من البرص ، قد اعتنق المسيحية ، جالباً معه الإمبراطورية الرومانية بأجمعها ؛ وأنه بادر من فوره بالإنعام على البابا سلفستر بتولى الحكم الإمبراطورى فى الغـــرب منسحباً هو نفسه بغاية التواضع إلى بيزنطة ؟ أو هل هناك شىء طبيعى أكبر من أن تتناقل الألسن أن القديس بطرس بشخصه قد دعا القوات الفرنجية للدفاع عن مدينته المقدسة ؟ وكيف يمكن فى حالة مثل تلك الأشكال والنظم أن تحمل ألفاظ مثل الشريف (البطريق Patricius) والإمبراطور والجمهورية بما لهن من تاريخ قديم ومعقد أى معنى أو أهمية دستورية مضبوطة إلى عقل رجال السياسة فى ذلك الزمان ؟

الفصل الثالث عشر

البـــابوية

١ — نفوذ البابوية فى إنجلترة وألمانيا وفرنسا

لقد شهد القرنان اللذان أعقبا وفاة جريجورى الكبير ، تطور النفوذ البابوى بأوربا الغربية ، ذلك النفوذ الذى مضى متمهلا مضطربا وخفياً غير مدرك حتى عند أصحابه أنفسهم . وقد كان لما اتصف به جريجورى من خلق ومكانة شخصية ، أثره فى رفع مكانة كرسى القديس بطرس إلى مستوى لم يستطع خلفاؤه المحافظة عليه ، ولم تكد شخصيته القوية تتوارى عن الأنظار ، حتى تجلى عدم استقرار مدعياته . أجل إن بعض المشاكل التى أثارتها ممالك البرابرة قد حلت ، ولكن مصاعب جديدة بالغة الضخامة صارت ملموسة . وقد أخذ الاضمحلال يدب إلى المذهب الأريوسى . وتحول اللومبارد إلى العقيدة الكاثوليكية ، واقتفت أسپانيا آثارهم عندما اتخذ ريكارد (٥٨٦-٦٠١) الكاثوليكية عقيدة قومية . على أن الخطر كان وقتذاك بالغ الاختلاف وشديد الخطورة . فلم يكن فى وسع الأمراء الجرمان ، وقد انصرف كل منهم إلى إنشاء حكومة مركزية قوية ، أن يتخلوا عن أى من عناصر سيادتهم . فلو حدث أن أنشأ هؤلاء الحكام مجموعة من الكنائس القومية لا تدين للبابوية إلا بولاء لفظى مجرد من الإخلاص ، لكان ذلك ضربة مسددة إلى قلب روما ذاته . والواقع أن الحوكان ينذر بنشوء ذلك الوضع السيء . ذلك أن كلوفيس وخلفاءه لم يكونوا ايطيقون مطلقاً أى تدخل فى سيطرتهم على الكنيسة ، ولقد ظل منصب القاصد الرسولى (نائب البابا) بمدينة آرل مركزاً شرفياً ، لا يقوم بعمل النائب

عن جوار روما. ولم يتوقف اللومبارد عن العدوان حتى بعد اعتناقهم المسيحية. وربما جاز فعلا أن تخاف البابوية وهى واقعة بين سيوف اللومبارد (Inter Gladios Lombardorum) قيام مملكة جرمانية فى إيطاليا. على أن نشاط جريجورى أوتى فى أسپانيا حظاً أوفر من النجاح. إذ توثقت بفضله العلاقات بين روما وبين الأساقفة الأسپان، ولذا تميز القرن الأخير لحكم القوط الغربيين بنمو نفوذ الأساقفة، الذى بلغ من سيطرته على الشئون العلمانية أن طغى على سلطان الملكيات نفسها. وعلى الرغم من أن أحكام البابوية وقواعدها أرهقت الروح الاستقلالية للكنيسة الأسپانية، فإن هجوم الجيوش الإسلامية عرض سلطان الكاثوليكية لضربة أشد خطورة.

على أنه لم يكن بد من أن يعدل التوازن عن طريق جهة أخرى. ذلك أن بقايا المسيحية البريطانية كانت تراجعت إلى المناطق الغربية أمام زحف السكسون. وقد حملت العقيدة قبل ذلك إلى إرلندة، حيث نشأ مركز جديد للمدنية، يجتذب إليه القديسين والعلماء من أرجاء العالم. وفى هذه الجزيرة المنقطعة عن العالم القديم والتى لم تمسها أسنة المغيرين الجرمان، بقيت تقاليد الحضارة القديمة حية فى الأديرة الكبيرة، وإن أصابها الهزال ومسها التبرير. ولا شك أن الجو الخاص الذى يريم على هذا العالم الأجنبى الغريب، إنما يتجلى فيما صدر عنهم من قصائد لاتينية نلمس فيها طريقة الكلتيين فى مراعاة الإيقاع والوزن فى حروف العلة بالكلمات المتتالية فى مخطوطاته الفائقة التى تفرد بينها كتاب المشبكات (Book of Kells) بما حوى من الحليات والحروف الكبيرة[1]. بيد أن الكنيسة الإرلندية لم ترض بالبقاء فى عزلة. إذ إن كولومبا نشر الإنجيل فى اسكتلندة والجزائر الغربية، كما أن أيونا أصبحت

(١) انظر ص (١٥٦ — ١٥٧) والحروف الكبيرة مستخدمة فى بدء الجمل والأعلام فى اللغات الأجنبية. [المترجم]

مركزاً شهيراً للمسيحية . وعبر كولومبان البحر إلى فرنسا ، حيث أقام أديرته التنسكية بمنطقة الفوج . وتولى جال فى سويسرا وكيليان فى باقاريا نشر المثل العليا الإرلندية (الهيبرنية) .

روما والكنيسة الكلتية

وانطوى هذا النشاط التبشيرى على بعض الأخطار التى تهدد سلطان روما . وفيما خلا ما نشب من فروق صغيرة ، كان لها طابع جدلى بحت مثل الاختلاف على تحديد موعد عيد الفصح وطريقة قص شعر الرهبان ، فإن الكنيسة الكلتية احتفظت بكل من إرلندة وغرب بريطانيا بتقاليد بدائية كثيرة ، وأبدت نفورا من الاعتراف بقيمة نظام الهيئة الكنسية وترتيباتها ، التى تطورت فى الأقاليم التى قطعت فى المدنية شوطاً أبعد ، والتى أنشئت على غرار النظام الإدارى فى الإمبراطورية الرومانية . كان هناك الأبروشية والأسقفية والأسقف والمطران والمجالس والقوانين الكنسية ، وفوق هذا كله السلطة المركزية بروما ـ ولكن هذا النظام المنطق لم يثر حماسة بين مجتمعات الأديرة القبلية بإرلندة . ومع أن بعض الحالمين المتحمسين من « جزيرة القديسين » (إرلندة) هذه ربما تجرأوا على توبيخ الملوك ، بل ربما كانوا عرضة فى بعض الأحيان لخنق برانهيلدا الرهيبة ، إلا أن أرباب السياسة والتدبير من البابوات مثل جريجورى أدركوا أن توطيد سلطان الكنيسة على المجتمع العلمانى لن يتحقق إلا باستخدام أساليب بالغة العلمانية ، وبإنشاء قوة مدربة منظمة . ولقد فكر هؤلاء الساسة فى أن يتخذوا من هيئات الرهبان عونا عظيم القدر فى تحقيق هذا المبدأ ؛ ويجعلوا منها قوة يركن إليها فى دعم سلطان البابوية والقضاء على كل أسقف متمرد ، ولم يكن الأساقفة فى العادة سوى نبلاء أقويا انتزعوا مناصبهم كرهاً من ملك ضعيف أذعن لإرادتهم . ولكن الفئة التى تمت الاستفادة منها على



(١٥) خريطة إيطاليا من القرن السابع إلى الثامن

١ - صقلية
٢ - كالابريا
٣ - بنيفنتو
٤ - كامبانيا
٥ - روما
٦ - نهر التيبر
٧ - توسكانيا
٨ - نوستريا
٩ - أوستريا
١٠ - ميلان
١١ - بارفا
١٢ - ليجوريا
١٣ - نابولى

هذا الوجه ، لم تكن فئة الرهبان الإرلنديين ذوى النزعة الفردية ، ممن يتحدون الملك والأسقف بل البابا نفسه ، وإنما هم طائفة الرهبان البندكتيين الذين عمدوا إلى إفناء شخصياتهم فى الإذعان لقادتهم الروحانيين .

وكان إيفاد البابا جريجورى القديس أوغسطين فى مهمته التبشيرية ببلاد الإنجليز نقطة التحول فى هذه العملية ، وإن بدت مهمة ضئيلة الشأن فى ذلك الزمان . وتم تنصير إنجلترة رويدا رويدا واستغرق الشطر الأكبر من القرن السابع ، بيد أنه انطوى على سلسلة من الانتصارات والهزائم ، التى كان مردها تقلب الحظ بالممالك من ناحية ، والعداء الناشب بين الكنيستين الرومانية (الكاثوليكية) والكلتية من ناحية أخرى . وظلت كنيسة كانتربرى معقلا حصينا لنفوذ روما وكنيستها ، على أن مرسيا قد ظلت مملكة وثنية ، كما أن نورثمبريا ترددت بين الإخلاص لحليفتها الكنتية (Kentish) وولائها لما تبشر به « أيونا ولنديسفارن » على المذهب الكلتى . وكان مجمع هويتبى فى (٦٦٤) وهو المجمع الذى أكد ظفر كنيسة روما ، أول علامة سجلت ما يمكن تسميته باسم تنظيم الكنيسة الإنجليزية اللاتينية . وفيه قسمت البلاد إلى أبروشيات ، وأصبح القس المركز الفعال لكل أبروشية . وأخذت الكنائس الحجرية تحل محل الكنائس التى كانت تبنى فى الماضى من الخشب ، ثم ظهر نظام الأبروشيات بعد فترة من الزمن . وأصبحت المجامع تعقد بانتظام ، وأخضع الرهبان والقسس على السواء لحكم رؤسائهم . ومنذ تلك اللحظة تحولت إنجلترة رويدا رويدا إلى إقليم موال لسيادة روما الروحية . وازدهر التعليم فى المدارس الكبرى ، واستجلبت موسيقى الكنيسة وزخارفها من وراء البحار رغبة فى زيادة فخامة وبهاء هكسهام وويرماوث . ونفذت الحماسة الدينية إلى قلوب الطبقة الحاكمة . فدخل الدير سيدات من الأسرة المالكة ،

وأخذ الملوك يظهرون اهتماماً شديداً بالمخلفات المقدسة أو يتشحون بأردية الحجاج ، وينطلقون ابتغاء قضاء أيامهم الأخيرة فى روما .

وافتتح ولفريد اليوركى سلسلة الحملات التبشيرية الأنجلوسكسونية بألمانيا والأراضى المنخفضة ، وهى سلسلة بلغت ذروتها بفضل اسم بونيفاس العظيم . ولن نفى النتائج السياسية التى ترتبت على عمل بونيفاس حقها من التقدير مهما بالغنا فى الإشادة بها . وكان مسرح معظم ما بذله من جهود إقليما يقع خارج حدود الإمبراطورية الرومانية ، وكان من المستحيل أن يعتنق سكانه غير المتحضرين المسيحية لولا مساندة شارل مارتل ، الذى كانت فتوحه بدورها تدين بالشىء الكثير لمعاونة بونيفاس وأتباعه . وفى (٧٣٢) أنعم البابا على بونيفاس بلقب كبير الأساقفة ، ونظمت كنيسة ألمانيا تحت زعامته بوصفه عضواً مخلصاً يدين بالولاء والطاعة لروما . وفى هذه الآونة تم إقناع البافاريين والألامان الذين سبق أن اعتنقوا المسيحية على أيدى رهبان من الإرلنديين ، بالاعتراف بالسيادة البابوية بفضل مساعدة الفرنجة وسلطانهم . على أن عمل بونيفاس لم ينته عند هذا الحد . فإنه أقبل بناء على دعوة من بيبين وأخيه على إصلاح كنيسة الفرنجة . فأزيل كثير من الأخطاء والعيوب ووضعت الأسس لعقد المجامع الكنسية بانتظام وإلزام الأساقفة بالاعتراف الصريح بسلطة البابا .

لقد أدخل بونيفاس المسيحية والحضارة إلى وسط ألمانيا ؛ فيسر بذلك تقدم شارل مارتل بتلك المنطقة ، كما مهد السبيل لما حدث فيما بعد من ضم شرلمان لتلك المنطقة إلى ملكه ، وبذا أسهم بونيفاس فى وضع أسس السيادة الكارولنجية . كما أنه أخضع لسلطان البابا الكنيستين الكبيرتين بفرنسا وألمانيا ، ووثق أواصر التحالف بين البابا وبين كبير الفرنجة ، ذلك التحالف الذى أصبح عاملا فاصلا يتحكم فى تاريخ أوربا الغربية . هذا وإن القوى السياسية

التى تمخض انفساحها عن قيام الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وأعنى بذلك بسط النفوذ البابوى ورسوخ دولة الـكارولنجيين ، إنما تدين للمسيحية الأنجلوسكسونية بدين لا يقل عما أسداه فيما بعد ، إحياء العلوم والفنون الذى وضع بذرته وطوره فى بلاط شرلمان تقاليد بسكوب البندكتى وبيده الجليل (Bede) ، التى شجعها ونماها ألـكوين وأتباعه .

٢ - توازن القوى فى إيطاليا

اللومبارديون

كانت ظروف اللومبارد داخل الإمبراطورية مختلفة تماماً عن الظروف التى صحبت دخول معظم الأجناس الجرمانية الأخرى . ذلك أن هذه الأجناس كانت تمد جنداً محالفة (Foederati) — أى أنهم كانوا من الناحية النظرية مدافعين عن الدولة الرومانية — كما كانوا بصورة ما يؤلفون الشطر المقاتل والقوة الضاربة من السكان . أما اللومبارد فإنهم احتلوا الديار الإيطالية بوصفهم أعداء علنيين وفاتحين فعليين . ولم يكن يحق لملاك الأراضى الرومان أن يشتركوا فى ملكية أملاكهم مع « الضيوف »[١] البرابرة . إذ جرت العادة على الإجمال بنفيهم منها وحرمانهم من كل شخصية قانونية ـ وذلك فى مراحل الغزو الأولى على الأقل . ومن ثم لم يكن هناك أى احتمال لقيام تنظيم مزدوج كالذى حدث فى مملكة ثيودوريك[٢] ، كما أن اللومبارد المنتصرين نزعوا فيما يبدو إلى الاحتفاظ بوحدتهم العنصرية وتقاليدهم سليمة مبرأة من كل شائبة ، والحيلولة دون تسرب الفكرات والنظم الرومانية إليها .

على أنه قدر لطبعهم بالطابع الرومانى أن يتم فعلا ، ولـكن بوسائل أخرى ،

(١) انظر ص ١١٦ بعنوان الممالك الجرمانية الرومانية .

(٢) انظر ص ١٢٤ بعنوان إيطاليا فى عهد ثيودوريك .

حتى إذا وافى عهد تدخل الفرنجة ، كان اللومبارد وقد قضوا قرنين مستقرين بقطر متشبع بالمؤثرات الروحية والمادية لحضارة البحر المتوسط مدة تربو على الألف سنة ، ـ قد تعرضوا لتغيرات عظيمة فى طريقة عيشهم . فلم يعد اللومباردى يعد المدن المشيدة من الأحجار أماكن جديدة يجوز له نهبها . فإن تلك المدن أصبحت محلا لإقامة ملوك اللومبارديين أو نبلائهم ، ومراكز عسكرية وإدارية للمناطق التى تمد الطبقات الحاكمة بكل ماتحتاج إليه من وسائل العيش . فاتخذ عاهلهم مقر إقامته فى القصر (palatium) المشيد فى پاڤيا على الطراز الرومانى القوطى ؛ وقد بادر البرابرة إلى تقدير ألوان الترف فى عيشة الحضارة والرفاهية بسرعة أصبحوا معها لايستغنون مطلقا عن خدمات حشد كبير من الصناع والتجار الرومان ـ أمثال المهندسين المعماريين والبنائين وتجار الجواهر وصناع الدروع والسلاح ، والموردين لـكل ماتحتاجه حياة المدينة من مطالب . ويتجلى التغير فى أوضح صوره فى صفحات كتاب پول الشماس ، وهو لومباردى سطر تاريخ قومه فى أثناء النصف الثانى من القرن الثامن . ويستفاد مما كتبه أن ثياب أسلافه التى كانوا يرتدونها عند أول ظهورهم بإيطاليا ، قد أصبحت من عجائب التاريخ ، وأنه لم يعرفها إلا من صور المناظر فى قصة اللومبارد التى أمرت الملكة ثيودليندا حوالى (٦٠٠) للميلاد بتصويرها على جدران قصرها الذى شيدته فى مونزا . وهو يلاحظ أن الصور تمثل بوضوح[١] المظهر العام للومبارد فى ذلك الزمن ، وأزياءهم فى الثياب وقص الشعر . فقد كانوا يحلقون مؤخر الرأس تماما ، ولـكنهم يتركونه طويلا فى مقدم الرأس ، ويفرقونه فى الوسط فيتهدل على الخدين . ويستطرد الـكاتب فيقول ، إنهم كانوا يلبسون ثيابا فضفاضة معظمها من الـكتان مثل ثياب الأنجلوسكسون ولهـا خطوط عريضة مختلفة

---

(١) Paul. Diac. iv. 22

الألوان ، وقد انتعلوا أحذية طويلة الرقبة تكاد تكون مفتوحة حتى أطراف أصابع القدمين وتربط بشريط مستعرض. ثم شرعوا بعد ذلك يرتدون السراويل الضيقة ، ويجعلون عليها فى أثناء ركوبهم أغطية خشنة من الصوف ؛ غير أنه يضيف إلى ذلك أن هذه العادة قد نقلت عن الرومان .

ولم يقف أثر الرومان عند حد الأزياء الجديدة فى الثياب والأسلحة . فإنه على الرغم من أن قلة منهم كانت تستطيع التحدث باللاتينية عند دخولهم إلى شمال إيطاليا لأول مرة ، فإن تغير الأحوال واشتداد التعقيد فى الحياة اليومية كانت فى جانب اللسان الأكثر تمدنا ، ولم يلبث استخدام الألفاظ اللومباردية حتى أصبح يعد أمرا حوشيا مبتذلا فى نظر النبلاء . ثم أتم هذه العملية ماحدث من المصاهرة والاختلاط المستمر بين الفاتحين وبين سكان يفوقونهم عددا ، وكانت نتيجة ذلك أن الإيطالية ظلت إلى يومنا هذا أنقى لغات الرومانس . وينبغى لنا أيضاً ألا نغفل الأثر الثقافى للكنيسة بما كان لها من مراكز تعليمية مثل دير بوبيو القائم فى الأراضى اللومباردية ذاتها ـ هذا إلى أن العقود وغيرها من المستندات القانونية كانت تصاغ على الدوام فى صيغة رومانية ، ومع أن القانون اللومباردى كان جرمانيا ، فإنه لم ينج من تسرب الأفكار الرومانية إليه ، وتلقى استبداد الحاكم باعثا قويا كما حدث دائما فى حالة القبائل التيوتونيـة كلما اتصلت بالإمبراطورية وأساليبها ووسائلها ، وإن اختلف مركز الأدواق متقلبا بين منزلة الموظفين المرءوسين وصغار الملوك المستقلين ضلا تبعاً لما يبديه الملك من صلابة الخلق والقوة الشخصية . مثال ذلك أن دوقيتى بنيفنتو واسبوليتو زادتا فى تحررها بتقدم الزمن بالقرن الثامن ، غير أن دوقيات شمال إيطاليا أخذت على التدريج تزداد خضوعا للسلطة المركزية .

ومما له دلالته أن ملك اللومبارديين ظل يتخذ لنفسه لقب ملك الشعب

اللومباردى (Rex Gentis Lombardorum) . إذ إن قومه ظلوا مختلفين على الدوام فى وضعهم القانونى عن سكان إيطاليا الرومان ، ولا يغرب عن البال أن جميع وسائل الحضارة وأدواتها التى سبقت الإشارة إليها ، كانت إلى حد كبير فى أيدى التجار والفنانين والصناع الرومان . وفضلا عن ذلك فإن الملاحين الذين يعملون على صفحة نهر پو وصناع الدروع والزرد فى لوكاو كريمونا ومنتجى الفاكهة والخضر اللازمة لقصور نبلاء اللومبارد ، كانوا فى الأغلب الأعم من الرومان، كذلك بقايا نقابة الصناع المعروفة باسم (Maestri Comacini)، وهى تلك النقابة الغامضة التى عفى عليها النسيان المكونة من الفنانين ، الذين يرجح أنهم بقوا بعد اندثار نظام التعليم[1] الجامعى فى العصر المتأخر من الدولة الرومانية ، والذين كثيرا مايتردد اسمهم فى المناقشات التى تدور حول أصول الفن الإيطالى ومصادره . والواقع أنه لايوجد أى شاهد حقيق يصح أن يستند إليه فى أدعاء قيام طراز لومباردى خاص فى هذه الفترة ، سواء فى فن العمارة أو البواعث الزخرفية (Motifs) .

السياسة الإيطالية

إن تاريخ إيطاليا منذ (٦٠٠ إلى ٨٠٠) للميلاد يمكن تلخيصه فى أنه تاريخ نضال بين قوى خمسة لاتتفق أهدافها بعضها مع بعض . على أن دولتين من هذه القوى الخمسة هما مملكة اللومبارد والإمبراطورية البيزنطية فقدتا أثرها الحاسم الفعال فى السياسة الإيطالية عند نهاية تلك الفترة . أما القوة الثالثة ، وهى دولة الفرنجة ، فلم يكن تدخلها إلا فجأة وعلى فترات ، ولكنها تلعب دورا قويا فى أثناء نصف القرن الأخير ، وهو دور بلغ ذروته بتألق نجم شرلمان . أما القوة الرابعة وهى البابوية فازدادت على الأيام نفوذا ، وهو

(١) انظر ص ٥٥ بعنوان اضطراب شئون الزراعة .

نفوذ حقيق لاشك فيه على الرغم من استتاره وراء ماتراءت فيه البابوية من سمة العجز . فأما القوة الخامسة ، وهي دوقيتا بنفينتو واسپوليتو — فتمثل « الفرسين » على لوحة الشطرنج الإيطالية ، فعلى الرغم من ضآلة شأنهما في حد ذاتهما ، فإنهما كانتا تقبضان على خطوط داخلية ، وغالبا ما كانتا العامل الفاصل في مشاكل ضخمة بما تقومان به من حركات غير منتظرة وهجمات غير متوقعة[1].

وكانت السياسة الثابتة لكل ملك لومباردى قوى هي إخضاع إيطاليا[2] برمتها لسلطانه . ومن الجلي أن تقصى الملوك لهذا الهدف الذى تمليه عليهم الحاجة إلى مكافأة أتباعهم بإقطاعهم الأراضى بقدر ماتمليه عليهم الحاجة إلى سلامة الملك الشخصية والمحافظة على هيبته وكرامته — كان يلقى بطبيعة الحال مقاومة من القوى الأربعة الأخرى . بيد أن نواب الإمبراطور البيزنطى فى رافنا ، لم يترددوا فى استخدام القوات اللومباردية لمناهضة البابوات المتمردين بينما استعانت البابوية أكثر من مرة بالملك اللومباردى ، لقمع مايصدر من بنفينتو واسپوليتو من حركات .

وكان الغرض الذى ترمى إليه بيزنطة الاحتفاظ بما فى قبضتها من المناطق البحرية بإيطاليا ، والإبقاء على موظفيها لوقف نمو قوة النبلاء من أصحاب الأراضى ، فضلا عن القضاء على قوة البابوية التى هى أكبر أرباب الأملاك جميعاً ، ثم يأتى أخيراً الحصول على الجزية المطلوبة للدفاع عن ممتلكاتها بالأقاليم الشرقية التى تتركز بها فى ذلك الأوان مصالحها الحقيقية — ولم يكن الإمبراطور يرى فى ازدياد نفوذ البابا إلا مصدر قلق وكدر له ، ومن ثم لم يكن ليرضى

---

(١) نسجل هنا أن هاتين الولايتين اللومبارديتين التابعتين لم تعملا متحدتين .

(٢) إن الذى يعبر عمليا عن تلك الفكرة هو الأسطورة التى تمثل أوتارى (٥٨٤) يركب منطلقا إلى غمار البحر فى الطرف الجنوبى الأقصى لإيطاليا ، ويلمس بحربة عمودا منفردا يبرز من بين الأمواج ، وهو يقول « ليكن هنا حد مملكة اللومبارد ! » .

بذلك النفوذ إلا بوصفه وسيلة لدعم وحدة الإمبراطورية سياسياً ودينياً .

أما الكرسى البابوى ، فلم يكن له من غرض فى تلك الأثناء ، إلا مجرد المحافظة على بقائه . وعلى الرغم من اختلاف صنوف السياسة التى اتبعتها البابوية فى سبيل ذلك ، فإن هدفها النهائى ظل ثابتاً لا يتغير . على أن الزمن ونمو الأمم الغربية كانا يعملان فى جانب البابوية . والراجح أن ذلك لم يكن واضحاً تماماً للمجلس البابوى ، ولكن الشيء الذى كان الجميع يشعرون به ، هو أنه مهما يكن الأمر ، فإنه لا ينبغى إذلال البابا والحط من قدره حتى يتساوى بأى أسقف لومباردى من جهة ، ولا بأى موظف بيزنطى من جهة أخرى ، ومن ثم اقتضت الحكمة الاعتراف بسيادة الإمبراطور حتى اللحظة الأخيرة ؛ ولكن البابوات المعروفين ببعد النظر والذين استطاعوا الشخوص بأبصارهم إلى سهول فرنسا وراء ممرات الألب لا يمكن أن تخفى عليهم العواقب النهائية التى تترتب على ما قاموا به من تدبيرات خفية ودقيقة حيال بيزنطة .

وكانت مرامى اسپوليتو وبنيڤنتو بسيطة ومباشرة : — وهى الاستقلال المحلى وتوسيع رقعتيهما على حساب جيرانهما ، على حين أن سياسة الفرنجة قبل الفتح ، كانت تحددها بواعث ثلاثة رئيسية ، الضعف الداخلى وصداقة اللومبارديين التقليدية التى تقضى بالامتناع عن التدخل فى شئون إيطاليا ، إلى أن تمكنت الخيوط الدقيقة للدبلوماسية البابوية من اجتذاب القوات الغازية إلى أبواب روما .

على أن هذه العناصر المتحاربة تصالحت فترة من الزمن بفضل مادار بينها من وفاق ومن إقامة توازن مقلقل مضطرب للقوى ، وهى النتائج التى ترتبت على المشاكل الداخلية أو وجود أمراء ضعاف . وقد قصر خلفاء جريجورى الكبير عما أوتى هو من شخصية قوية وبراعة تدبير ؛ كما أن أباطرة الرومان الذين خلفوا هرقل انصرفوا إلى الاهتمام بما تعرضت له الدولة من خطر

الإسلام : واضطربت الأمور بمملكة اللومبارد بالمنازعات على وراثة العرش وتمرد الأتباع الإقطاعيين ، وذلك على حين أن فرنسا لم تبرح تمزق أحشاءها منازعات محافظى القصر (الحجاب) المتنافسين . على أن الفترة الحاسمة فى إيطاليا تقترن بظهور شخصيات قوية تتولى دفة الأمور : أمثال البابوات جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١) وجريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) وليو الإيسورى (٧١٧ — ٧٤١) وهو الإمبراطور الذى اشتهر بتحطيم الصور وليوتبراند (٧١٢ — ٧٤٤) أعظم ملوك اللومبارد . ولا شك أن التصادم المدوّى بين هذه الشخصيات التى تتمثل فيها السياسات المتطاحنة قد أضاء أرض إيطاليا الحافلة بالعواصف ، بوميض خاطف أظهر لنا ما دار هناك من تغيرات حقة .

وعند حوالى (٧٠٠) للميلاد تعرض مركز بيزنطة للدمار . فعلى الرغم من أن كبار الموظفين لم يزالوا فعلا خاضعين لسلطة الإمبراطور ، فإن السلطة الفعلية كانت بأيدى الأسرات التريبونية الإقطاعية ، التى لم تقتصر اختصاصاتها فى مناطقها على الناحية العسكرية فحسب ، بل تشمل كذلك الولاية القضائية وحق فرض الضرائب . ذلك أن تنظيما جديداً قد ظهر ، ولن تنشب فى إيطاليا ، كما كان يحدث فى الماضى ، ثورة يقوم بها أرخون (Exarch) (أى نائب إمبراطور) متمرد ، بل يقوم بها الموظفون المحليون ، الذين هم أشد خطراً منا لأرخون ، وظهرت فى (٦٩٢) دلائل تنبىء بالأحوال الجديدة ، عندما دعا الإمبراطور جستنيان الثانى، وفقاً لسياسة الإمبراطورية التقليدية ، إلى عقد مجمع ترولو (أو المجلس التكميلى للمجمع المسكونى الخامس والسادس Quinisextum) رغبة فى تقنين قواعد ومعايير للعقيدة وتوحيد الممارسات الدينية فى الشرق والغرب على السواء . بيد أن البابا رفض الموافقة على قرارت ذلك المجمع ، فأرسلت بيزنطة موظفاً كبيراً يلقب

بالبروتوسپاثاريوس (Protospatharius) إلى روما ، ومعه تعليمات بإلقاء القبض على البابا المتمرد . ولكن ولت منذ زمن بعيد الأيام التى استطاع فيها جستنيان الأول[1] إنزال الإذلال والمهانة بالبابا فيجيليوس . فإن جند الحرس الوطنى الإيطالى (المليشيا) تقاطروا إلى روما ، ولم يفلت البروتوسپاثاريوس من عواقب غضبهم إلا بالتوارى عن أنظارهم تحت سرير البابا .

وتجددت الأزمة بعد ذلك بخمس وعشرين سنة ، يوم تجرأ الإمبراطور ليو على فرض ضرائب جديدة على الغرب بعد أن نجح فى الدفاع عن بيزنطة فى الحصار الشهير الذى ضرب عليها فى (٧١٧ — ٧١٨) . فاندلعت الثورة فى إيطاليا وزحف الأرخون على روما متحالفاً مع ليوتبراند ملك اللومبارد — وهو اتحاد طريف فى بابه — فاستصرخت روما لمساعدتها دوقيتى اسپوليتو وبنيفنتو . وامتزج الكفاح السياسى والاقتصادى بشىء من الشعور الدينى المتأجج عندما أعلن الإمبراطور ليو فى (٧٢٥) سياسة التحطيم أى مناهضة عبادة الصور المقدسة[2] — فالعقيدة والاعتقاديات (Dogma) لم تكن عند الإيطاليين إلا شيئاً عسيراً يعز على الأفهام ، ولكن الصور كانت تشكل عنصراً حيوياً فى الإخلاص للعقيدة والتعلق بها ، ولذا لم يفت البابا أن يتخذ من النزاع على عبادة الصور سلاحاً قوياً يشهره فى وجه الإمبراطور ، ولم يلبث البابا أن صور ليو فى صورة المسيح الدجال نفسه . ويقول أحد المعاصرين إن البابا جريجورى الثانى : «سلح نفسه كأنما يتأهب لمنازلة عدو» ، وأخذ يخاطب الإمبراطور بلغة لم يسبقه إلى استخدامها أحد من رعاياه — على أن الثورة الإيطالية أخمدت فى النهاية ، بعد أن لقى أحد نواب الإمبراطور مصرعه ، وبعد أن أنفذ أرخون آخر من بيزنطة لإعادة الأمن إلى نصابه .

---

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البعثات التبشيرية والدبلوماسية البيزنطية .

(٢) انظر الفصل التاسع بعنوان النزاع حول تحطيم الصور .

تدخـــل الفرنجة

وهنا بدأت مرحلة أخرى جديدة فى انفصال الشرق عن الغرب . فقد قرر الإمبراطور سلخ أبروشيات صقلية وجنوب إيطاليا فضلا عن أبروشيات الساحل الأدرياتى الشرقى من أسقف روما وضمها إلى بطريرك القسطنطينية . وحددت هذه الخطوة الخطيرة تاريخ جنوب إيطاليا فى العصور الوسطى ، إذ زاد اصطباغ ذلك الإقليم فى أثناء القرون التالية بالثقافة والميول الهلينية (اليونانية) ، بل حتى بالسكان اليونانيين ، وكان ذلك نتيجة لتدفق اللاجئين الأرثوذكس بشدة على تلك المناطق فى أثناء منازعات حركة تحطيم الأيقونات . وفى الوقت ذاته ، أضعفت هذه الخطوة نفوذ البابا ، فيما يتعلق بممتلكاته داخل الإمبراطورية ، حتى أصبح لايتجاوز أسقفاً إقليميا ، يتولى أمر لوائى[1] ثخوم (Themes) هما رافنا وروما (وقد تم عند ذاك فصلهما ووضع نظام مستقل لكل منهما على حدة) .

على أن ارتباط البابا بالإمبراطور ، كان شيئاً لابد منه للمحافظة على الوجود المستقل للبابا . وقد رفض شارل مارتل الدعوة التى وجهت إليه للاشتراك فى السياسة الإيطالية ، ولم يكن فى الإمكان ترك مملكة اللومبارد التى بلغت ذروة قوتها فى عهد ليوتبراند ، دون إيجاد قوة توازنها . ولذا فإن البابا تدخل للمرة الثانية لمصلحة سيده الإمبراطور ، وأنقذت رافنا مركز الإدارة البيزنطية بشمال إيطاليا بعد أن أوشكت القوات اللومباردية على الاستيلاء عليها .

وشبت اضطرابات داخلية بعد وفاة ليوتبراند ، حتى إذا ذهبت راتشيز خلفه الورِع ، وحل محله فى العرش آيستولف ، صارت هناك دولة مركزية قوية تواصل تحقيق غرضها التقليدى من إخضاع إيطاليا كلها . وجاءت فى أعقاب ذلك تطورات سريعة . ففى (٧٥١) وهى السنة التى أخذ فيها پيبين

---

(١) ألوية الثخوم هى المناطق العسكرية القائمة على الثغور أى الحدود . (المترجم)

لنفسه التاج تلبية لاقتراح البابا ، سقطت رافنا أمام هجوم اللومبارد ، فقضى نهائياً على الحكم البيزنطى بتلك الولاية (الأرخونية) . وأخذ آيستولف يحشد فى السنة التالية كل موارده تمهيداً للهجوم على روما . وفى (٧٥٣) عبر البابا ستيفن جبال الألب ليلتمس المساعدة من ملك الفرنجة ، ولم تنقض سبعة أشهر حتى أعلن پيپين الحرب على المملكة اللومباردية ، وقام بغزو إيطاليا . وحلت الهزيمة والتشتت بجيش آيستولف فى معركة سوسا ، فاعتصم وراء أسوار پافيا . وفرض پيپين الملك المظفر على أعدائه المقهورين رد رافنا والممتلكات البابوية إلى حالتهما الأولى ، ولم يكد يعود إلى بلاده ، حتى استدعى على عجل وإلحاح فى (٧٥٦) ليواجه تجدد العدوان . وللمرة الثانية تعرضت پافيا للحصار ، واعترف العدو المقهور فى مقابل حصوله على السلام بپيپين سيداً أعلى للمملكة اللومباردية على حين تقرر تسليم « الأرخونية » إلى يد القديس بطرس وخلفائه الجالسين على كرسى روما البابوى .

وتوفى آيستولف فى تلك السنة عينها ، تاركا الموقف فى إيطاليا على حاله من الناحية الرسمية . وتقبل الجميع بالرضا سيادة پيپين على ممتلكات آيستولف على الرغم من أنه لم يفتحها حتى ذلك الحين فتحاً إقليمياً . وبذلك صار البابا صاحب السلطة العليا لا فى روما فحسب ، بل فى الأرخونية أيضاً ، ومع ذلك فإن الإقليمين كليهما لم يزالا يعتبران من الناحية الاسمية شطراً من الإمبراطورية على أن تدخل الفرنجة ظل مع ذلك سنداً غير مضمون ؛ وفى تلك الأثناء كان يبدو محتملا أن ينبعث الخطر اللومباردى من جديد .

وارتقى دسيدريوس العرش بعد آيستولف ، وتضاعفت مخاوف البابا عندما تزوج شارل بن پيپين من ابنة ملك اللومبارد . ولم تنقض بضع سنوات على وفاة پيپين فى (٧٦٨) حتى لاح فى الأفق بوادر قيام كتلة فرنجية مؤلفة من الفرنجة والباڤاريين واللومبارديين ، تخضع لنفوذ الملكة الأرملة برترادا .

ولكن الموقف تغير فجأة عندما انفصل شارل عن زوجته اللومباردية فى (٧٧٢) وبعد ذلك بسنتين أغار شارل على إيطاليا بدعوة من البابا هادريان . واستسلمت باڤيا بعد حصار طويل ، وحمل دسيدريوس وأسرته أسرى ، وزالت من الوجود مملكة اللومبارد المستقلة عند نهاية (٧٧٤) .

منحة قسطنطين

هذه — بأوجز عبارة — هى الحقائق المتعلقة بتدخل الفرنجة فى إيطاليا . وتتوارى خلف تلك الحقائق صورة معتمة غير واضحة المعالم تتألف من دبلوماسية ملتوية ومطامع شخصية وتفاعل حضارتين : الحضارة الرومانية بمالها من تاريخ طويل من الفكرات التشريعية والدستورية ، وبما استقر فى لغتها من أثر قرون مديدة من الحكم المستقر والخصائص الفلسفية المميزة والحضارة الجرمانية بما تنطوى عليه من الولاء الشخصى وبما لها من ذكريات قبلية وقصور فى فهم المصطلحات التجريدية . ومن المحال علينا فى عالم عجيب كهذا زاخر بالأساطير والخزعبلات وبالصيغ الإمبراطورية العتيقة نصف المفهومة ، أن نؤلف صورة متكاملة من الجذاذات البتراء التى نتلقفها من أفواه السذج من كتاب تراجم البابوات ومن التواريخ التى كتبها الرهبان الأدميون ، لتكون بياناً مقنعاً عن العملية الطويلة الأمد ، التى فصم بها أساقفة روما علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية القديمة ووضعوا بها أنفسهم تحت حماية قوة الغرب الناهضة المسيطرة . ولاشك أن كل رمز يقع لنا يمكن إثارة مالا حد له من المجادلات حول أهميته . فماذا كانت طبيعة ذلك « الديكيو Dicio » أى حق السيادة والسلطة التى ادعى البابوات أنهم يمارسونها بالنيابة عن الإمبراطور على الأراضى الإيطالية ؟ وماذا كان آخر مدى « ممتلكات القديس بطرس» وحدود إمارته التى تحولت البابوية بسبب امتلاكها لها حوالى ذلك الوقت

إلى سلطة زمنية ؟ أو ما المقصود بمنحى بيبين وشرلمان وهباتهما المتتالية ؟

لقد كانت كل حركة تصدر ، ترتفع إلى منزلة الأهمية الدستورية ، كما أن ما دار من الجدال فى العصور الوسطى بعد ذلك حول علاقة الإمبراطورية بالبابوية ، كان الأصل فيه إرسال راية وبعض المفاتيح إلى ملك الفرنجة ، أو الإنعام بلقب « البطريقى Patricean » أو الإمساك بعنان فرس . وكانت الصور والأساطير تتخذ قوة الوثائق . ويبدو أن القصة الشهيرة التى حدثت بين الإمبراطور قسطنطين والبابا سلفستر[1] ، التى ظلت طوال العصور الوسطى تؤلف ،ظهراً أساسياً من مظاهر الجدل والدفاع عن مدعيات البابا ، قد ظهرت بأوضح صورة فى تلك الفترة ، وربما جاز اعتبارها عملية تبرير أكثر منها تزييفاً مقصودا ، أو عدها ترجمة نقلت مصطلح الفكر الجارى أو مصطلح التقوى السائدة وعبرت عن علاقة البابا السياسية بالإمبراطور ببيزنطة . وتؤكد القصة أن قسطنطين الأكبر لم يتنازل فقط عن قصر اللاتيران الخاص به للبابا ، ولم يعطه فحسب حق السيادة أى الديكيو على الغرب ؛ بل وهبه كذلك التاج والأرجوان ، تمشياً مع وظيفته المقبلة ، على حين أن رجال الإكليروس التابعين له الذين صار لزاماً عليهم منذ تلك اللحظة أن يحلوا محل مجلس السناتو بروما ، مثلما احتل أتباعه من الأساقفة مناصب حكام الأقاليم ، — قد أصبح من حقهم استخدام زخارف الخيول البيضاء واتخاذ أحذية رجال السناتو التى يشتهونها . وبهذه الصورة العجيبة المحرفة للتاريخ تنعكس لدى القارئ بوضوح تام هيئة الأحوال والمنازعات المعاصرة ، ويشهد المنافسة الدائرة بين المجلس البابوى والموظفين البيزنطيين فى إيطاليا ، والتنازع حول صحة الهبات الفرنجية ومشكلة مدعيات اللومبارد فى امتلاك الأقاليم المغزوة .

---

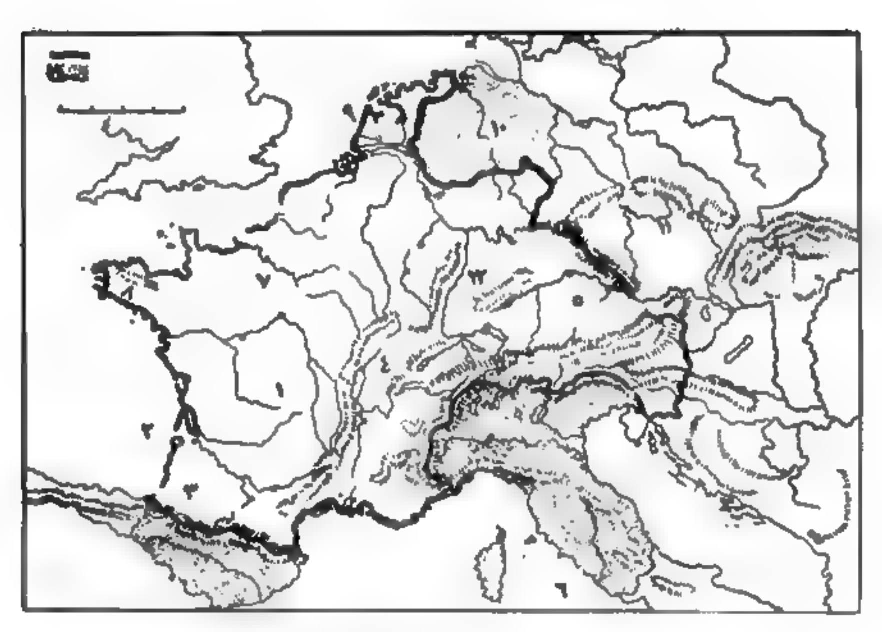
(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الفنون والآداب والخرافات .

على أن أهم ماله دلالته هنا إنما هو بقاء فكرة الإمبراطورية حية بوصفها المادة الأساسية التى تشكل عليها رؤى عالم الأحلام ذاك من حيث قيام دولة دينية (ثيوقراطية) بروما . إذ إن إيطاليا ظلت أكثر من خمسة وعشرين عاماً تمد أباطرة حركة تحطيم الصور لاجباة ضرائب وغلة فقط ، بل تمتبرم كذلك دعاة انفصال غير أتقياء . وعلى الرغم من ذلك لا نعثر فى أى مكان على لسان يعبر – ولو همساً – عن إمكان قيام وجود مستقل للبابوية خارج ممتلكات الإمبراطور . وليس هناك ماهو أوضح من هذا دليلا على أن عقل القرن الثامن لم يزل يعتبر إمبراطورية روما العالمية التى يرأسها الإمبراطور فى القسطنطينية ، هى الصورة السائغة عقلا والأنموذج الوحيد المقبول عن النظام الأرضى فى هذه الدنيا . وروما هى المركز العريق للإمبراطورية . وهى من وجهة نظر الرومان المركز الأوحد الحقيق للإمبراطورية . ولن يتيسر لإنسان أن يبرر نظريا تتويج إمبراطور غربى ، إلا بنقل ثورة التركيز من شخص الإمبراطور إلى مركز الإمبراطورية العتيق « روما » ذاتها ؛ ولا يخفى أن مبرر الوجود (Raison d'etre) لإمبراطور غربى من وجهة النظر البابوية كان حماية مصالح الكنيسة بالسلاح فى غرب أوربا ، وكان فوق كل شىء ، حماية العاصمة العريقة عاصمة أوغسطس وقسطنطين ، الكرسى المقدس والمسكونى للقديس بطرس وخلفائه .

البابا والكارولنجيون

وعلى الرغم من أنه بدت فى الأفق مقدمات مبهمة أنذرت بمثل هذه الإمكانات ، فإن الموقف المباشر ظل غامضاً . والواقع أن السنوات الثلاثين التالية شهدت هبوطاً مطرداً فى آمال البابوية التى اشتد ارتفاعها عند سقوط مملكة اللومبارديين . لقد انقلب ميزان القوى فى إيطاليا ، فإن پيپين عبر

جبال الألب بحملتين صليبيتين ليفوز بالخلاص جزاء له على استجابته للاستغاثة البطرسية (Petrine) . أما شارل فإنه استقر بالأراضى الإيطالية وصار سيداً أعلى ثابتاً وكبيراً علمانياً للبلاد . وكان لكفاح اسپوليتو وبنڤنتو ومحاولاتهما فى سبيل الاستقلال فضل عظيم فى رفع شأنهما كحليفين للبابا لهما قيمة عظيمة وإن لم تكن محققة . ولكن هاتين الولايتين أصبحتا آنذاك تابعتين إقطاعيتين لأمير الفرنجة ، ولم تعد معاندتهما تعود على البابا بأية مصلحة . ومنذ تلك اللحظة أصبح واضحاً أنه لو اختلف البابا والكارولنجيون ، فلن يجد البابا مدافعاً يستطيع أن يشخص إليه التماساً للعون . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فكلما تم لشارل فتح جديد رائع ، ازدادت رقعة إمبراطوريته اتساعاً ، وتضاءلت أبعاد مملكة البابا وقلت أهميتها . ثم إن توحيد أوربا الغربية بزعامة سيد واحد ، أبرز العلاقات الدولية وجعل لها أهمية كبيرة ، وصار لزاماً أن تخضع مدعيات البابا فى استيريا وجنوب إيطاليا للعلاقات الديبلوماسية المتبادلة بين آخن وبيزنطة ، وقد جأر البابا بأمر أنواع الشكوى من تمرد كبير أساقفة راڤنا واعتداءات دوق اسپولينو ، ولكن شكواه ذهبت أدراج الرياح يوم كان شارل يقوم بحملاته على التخوم السكسونية . والواقع أن البابا كان يتعين عليه بوصفه زعيما لعالم المسيحية فى الغرب القيام بدور أقرب إلى السلبية من دور نصير العقيدة المسلح ، ولكنه انطلق وقد نقشت على عملته عبارة الديانة المسيحية (Christiana Religio) ، وأضفيت القداسة على أسلحته وبفضل صلوات الكنيسة ودعواتها — انطلق ليبيد الوثنيين فى وسط ألمانيا ويقيم أسقفيات جديدة وراء حدود باڤاريا . وتردد صدى الإشاعات فى الخارج بأراضى الشمال نفسها ، حيث تولى إذاعتها أوفا ملك مرسيا ، بأن شارل عزم على خلع البابا وإحلال أحد رجال الكنيسة من الفرنجة محله . ذلك أن عالم العقيدة نفسه لم يسلم من عبث الأوتوقراطية المستبدة الجديدة فى



(١٦) خريطة إمبراطورية شرلمان

١ - أكيتانيا
٢ - بوردو
٣ - فاسكونيا
٤ - برجنديا
٥ - بافاريا
٦ - روما
٧ - نوستريا
٨ - بريتانى
٩ - فريزيا
١٠ - سكسونيا
١١ - الصقالبة
١٢ - الالامان

الغرب . إذ حدث فى مجمع (سينودس) فرانكفورت الذى دعاه شارل إلى الاجتماع ، رداً على مجمع نيقية الذى انعقد حديثاً فى الشرق ، أن ارتفع صوت لاهوت الفرنجة الفتىّ وأعلن بنبرات حادة مليئة بالثقة تنديده بكل من حركة تحطيم الصور ومذهب عبادتها بدرجة سواء ، ودمغه للإمبراطور والإمبراطورة بسبّة الهرطقة ، بل حتى اتهام اليونانيين بالافتقار إلى الروح العقلية الناقدة فيما يتعلق بأسطورة سلفستر . على أن البابا الذى وافق على قرارات مجمع نيقية ، لم يستطع أن يقوم بأى احتجاج ذى أثر . بل الحق أنه كان مستعداً لإعلان كفر الإمبراطور الأرثوذكسى إذ أراد شارل ، وذلك فيما لو أصر الإمبراطور على الاستمساك بالأبروشيات اليونانية وإمارات جنوب إيطاليا التى كان البابا يدعى ملكيتها . بيد أن إخضاع الشئون المذهبية للمصالح الدنيوية لدويلة البابا ، ليس أقل أهمية من خضوع البابا واستكانته إزاء أهداف شارل التى انقلبت مؤقتاً على بيزنطة . إذ لم يحدث قط منذ أيام جستنيان أن انحدرت البابوية إلى مثل هذا الدرك الخفيض . ومن العجيب أن سلطة الحبر الأعظم فى روما ذاتها لم تسلم من التحديات . فإن الانتخابات البابوية كان يصحبها على الدوام القتال الذى يدور فى الشوارع عنيفاً عارماً ، ويوجه من داخل القصور المحصنة ، وهو أمر يعتبر ظاهرة مألوفة فى المدن الإيطالية فى أثناء القرون الوسطى ، وكثيراً ما كانت المنافسات بين النبلاء الإقطاعيين وموظفى الكنيسة تجد فرصتها التى تتشفى بها فيما ينشب من المنازعات الدموية بين البابا الشرعى والبابا الخصم .

الفصل الرابع عشر

شرلمان

حدث فى يوم عيد الميلاد من عام (٨٠٠) أنه بينما شرلمان ينهض فى أثناء إقامة القداس ، من ركوعه على ركبته أمام قبر القديس بطرس بروما ، أن وضع البابا على رأسه تاجاً وحياه أهل روما بصيحات مدوية قائلين : « إلى شارل أوغسطس الذى توجه الله ، إمبراطور الرومان العظيم المحب للسلام ، نتمنى النصر والعمر الطويل » . لقد أشعل هذا المنظر خيال المؤرخين ناراً متأججة . فهناك فى الباسيليكا العتيقة التى تتـــلألأ بأنوار الشموع والحلل الـكهنوتية المرصعة بالجوهر ، وقف محارب أوربا الأول ، قاهر العرب والآفار والسكسون ، الذى تمتد مملـكته من البلطيق إلى شاطىء الأدرياتى ، وتترامى من شمال أسبانيا إلى الدانوب الأوسط ، يفرض وصايته الدفاعية على المسيحية الغربية ، بقبوله ذلك التقليد الجليل المأثور عن روما الإمبراطورية ، كما أنه « باتحاد الرومان والتيوتون واندماج ذكريات الجنوب وحضارته مع طاقة الشمال الفتية . . . يبدأ التاريخ الحديث »[1] .

ولا شك فى أن تلك الساعة كانت من أروع اللحظات فى تاريخ البابوية، لا يضارعها من حيث تأثيرها الدرامى سوى ذلك المنظر الآخر الذى حدث ذات شتاء فى يوم عاصف تساقط فيه الجليد بفناء قصر كانوسا[2] ، حيث

---

(١) انظر ج . برايس فى (The Holy Roman Empire) ص ٤٩ (ط ٨ — لندن ١٨٩٢) .

(٢) يشير الكاتب إلى ماحدث للإمبراطور هنرى الرابع بقلعة كانوسا بالقرب من ريجيو اميليا بإيطاليا ، حيث وقف يطلب الغفران من البابا جريجورى السابع فى ١٠٨٧ على معارضته فى مسألة التعيينات . (المترجم)

وقف إمبراطور ذليل ينتظر ثلاثة أيام ليحصل على غفران البابا . ولكن أهمية ذلك النصر كشأن أهمية انتصار هلدبراند كانت عميقة متغلغلة . فلم يكن الاحتفال الذى أقيم بكنيسة القديس بطرس حلا دستوريا للمشكلات التى تكمن بطبيعتها فى علاقات شارل بالبابوية . إذ إنه لم يغير من الموقف الفعلى شيئاً ، ولم يسو أية مشكلة من مشكلات المستقبل[1] . ومع ذلك فإنه على حد قول برايس : — بداية عصر جديد ، من حيث إنه حدد خطوط ما نشب بين البابوية والإمبراطورية من نزاع لانهاية له ، وهو النزاع الذى تتألف منه خلفية السياسة الأوروبية فى العصور الوسطى .

ومنذ أيام ثيودوسيوس ، يوم أصبحت المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية ، لم يتم التوصل إلى صلح دائم يوفق بين مدعيات الكنيسة والدولة . ولم يكن فى الإمكان الوصول إلى حالة الاستقرار إلا بخضوع إحداهما للأخرى خضوعاً تاماً . وقد زاد الأمر تفاقماً فى ذلك الحين صعوبة تحديد مصالح الطرفين يوم أصبح نفوذ الكنيسة الزمنى (الدنيوى) أشد تنظيما منه فى أى يوم سابق . وتتمثل مدعيات البابوية بأوضح صورها فى خرافة منحة قسطنطين . أما وضع شرلمان فيمكن أن تعبر عنه كلمات ألكوين حيث قال : « أيها الملك ... إنى لأدعو الله أن يخضع لمدلك حاكم الكنيسة ، وأن تحكمك اليد اليمنى للقوى القاهر » . وإن جستنيان نفسه يصح أن يقر هذه العبارة ، وذلك مع التجاوز عما تتجه إليه من الازدواج بين الكنيسة والدولة . ومن ثم فلن يستطيع حل هذه المشكلة وإيقاف النزاع بين الإمبراطوريتين الروحية والزمنية إلا حلا وسطاً يوفق بينهما مؤقتاً أو سيادة أحد الطرفين على الآخر سيادة جارفة

---

(١) عن الآراء الحديثة المتعلقة بتتويج شرلمان ، انظر ك . هلدمان فى (Das Kaiser-tum Karls des Grossen) (وعار ١٩٢٨) .

قاهرة . وطالما كان شرلمان على قيد الحياة ، لم يكن أحد ليجرؤ على وضع سيادته موضع نزاع أو جدال ، ولم يستطع أحد من الكتاب أمثال چوناس أسقف أورليان وهنكمار رئيس أساقفة ريمس ، أن يجرؤ على تأييد النظريات التى تجعل لسلطة البابا السيادة على سلطة الإمبراطور (auctoritas sacra pontificum) ، إلا حينما أخذ الانحلال يدب فى إمبراطوريته فى ظل الحكم الضعيف لابنه وأحفاده . وراحت القرون المتعاقبة بما اجتمع لها من موفور السوابق ، تصوغ بإحكام وتفصيل مسألة العلاقة بين الكنيسة والدولة . وقد لفقت هذه المسألة فى أثواب فلسفة عامة ، استوحيت مما دار بين الفقهاء ، وعلماء اللاهوت من كتابات متنازعة متضاربة ، وكانت القالب الذى صيغت فيه أعظم قصيدة أنشدت فى العصور الوسطى ، ومع ذلك فعلى الرغم من أن أشد البابوات والأباطرة نزوعا إلى السياسة ، ربما ترددوا فى مواصلة الفكرة حتى نهايتها المنطقية ، فإن الصراع بين السلطتين الاستبداديتين لم يكن يحله عمليا إلا الدفع بقوة « الأمر الواقع والظرف القاهر Jorçe maeure

ومع ذلك فإن تلك المتناقضات لم تتم صياغتها حتى وقتذاك بوضوح تام ، حتى ليخالجنا الشك فى أن شرلمان قد تدبر تماما فى المشكلة الدستورية من حيث علاقتها ببيزنطة . إذ كان فى الغرب جماعة زعمت أن العرش الإمبراطورى يعتبر شاغرا ، وذلك نظرا لأن إيرين سملت عينى ولدها الإمبراطور وزجت به فى السجن ، وبذلك انفردت بالحكم امرأة تولت عرش القياصرة . غير أن مفاوضات شرلمان مع بيزنطة التى طال أمرها وانتهت آخر الأمر بالاعتراف به إمبراطورا « باسيليوس » فى (٨١٢) مقابل تنازله عن فتوحه فى دالماتيا، تدل أنه لم يكن يشارك فى هذا الرأى . ولا شك أن الفكرة التى ظلت قائمة فى

أن هناك إمبراطورية رومانية (Imperium Romanum) واحدة يحكمها فى الشرق والغرب إمبراطوران متعادلان ، بيد أن أحوال أوربا المتغيرة قطعت كل علاقة بينها وبين الحقائق القائمة . ذلك أن الفروق والاختلافات بين الشقين فى القانون والإدارة وفى الدين والثقافة والفنون وفى المصالح الاقتصادية قد فصلت بين الشقين الشرقى والغربى ، اللذين افترقا حتى فى ذلك الحين نفسه افتراقا جغرافيا ، بما اندس بينهما فى شبه جزيرة البلقان من ممالك صقلبية . والواقع العملى أن العلاقات بين الإمبراطورية الغربية (التى يمكن منذ ذلك الحين إطلاق ذلك الاسم عليها) وبين شقيقتها البيزنطية كانت أشبه تماما بالعلاقات بين دولتين أجنبيتين ، لا تحفلان إلا بالحرص على المحافظة على حدودهما والتسوية السلمية لما بينهما من منازعات ، وإن لم تعد تجمعهما بعد نظرة مشتركة إلى المتبربرين .

ولا شك أن المركز السامى الذى بلغه شرلمان فى أوربا الغربية والذى أضفيت عليه الصفة الرسمية بعد تتويجه إمبراطورا فى (٨٠٠) ، لم يتهيأ له إلا بفضل نشاطه المدهش الدائب فى إدارة الحكم داخليا فضلا عن الفتوح الخارجية . فقد تمت فى حكمه الطويل الذى امتد ستا وأربعين سنة مالا يقل عن ستين حملة حربية ، قاد الملك الفرنجى نصفها بنفسه . ففى كل عام ، وبعد عقد الاجتماع السنوى للجمعية العامة فى ميدان مايو ، كان المجندون الوافدون من أقرب المناطق إلى التخوم المتنازع عليها ، يقادون على بلاد العدو فى حملات عاتية مجردة من كل رحمة . فيما قرره ألكوين ببساطة تامة فى إحدى المناسبات قوله : « خرج الملك بجيشه لينزل الخراب بسكسونيا » .

على أن عددا كثيرا من هذه الحملات قد أجرى دفاعا عن الحدود ، فإن فتح ببين لمقاطعة أكيتانيا دعا شرلمان فيما بعد إلى عبور البرانس لتأسيس « ولاية ثغور » أسبانية كما أن تحويل باقاريا من دوقية شبه مستقلة إلى جزء حقيق من الإمبراطورية اقتضى تدمير مملكة الآفار الواقعة على نهر التيس

والتى تنزع دائما إلى العدوان . على أن أعظم فتوح شرلمان قاطبة وهو فتح وسط ألمانيا وشمالها ، وإن كان الأصل فيه الانتقام من السكسون بسبب غاراتهم على أديرة منطقة الراين ، إلا أنه تجاوز كثيرا هدفه الأول ولم ينته عهد شرلمان حتى كانت حدود الإمبراطورية قد زحفت من نهر الراين إلى نهر الإلب ، وبذلك تكون المنطقة المترامية الواقعة بين النهرين قد ضمت إلى الإمبراطورية فى أيامه ، كما اتخذ التنظيم الإدارى والكنسى لألمانيا صورته فى العصور الوسطى .

على أن السجلات المعاصرة لاتلقى الشىء الكثير من الضوء على الناحية العسكرية من هذه المنجزات الباهرة ، وذلك لأن تلك السجلات كثيرا ماتتسم بسمة البلاغات الرسمية . وكانت البلاد مليئة بالعوائق الطبيعية الكئود ، إذ كانت مناطق مترامية منها مكسوة بالغابات أو المستنقعات . وكانت ممتلكات السكسون تبدأ على مسافة بضعة فراسخ من الشاطىء الأيمن لنهر الراين ، وتمتد إلى نهر الإلب عبر سهول وسط ألمانيا المكسوة بالغابات ، وهى المنطقة التى نزلها على التعاقب الوستفاليون والأنجراريون والإيستيفاليون . وإلى الشمال الذى هو أعسر مدخلا بكثير ، كانت تمتد منطقة المستنقعات الساحلية الموجودة بين مصبى الويزر والإلب ، ويقوم وراءها عند قاعدة شبه الجزيرة الدانمركية ، موطن النورد البنجيين (Nordalbingians) آخر المدافعين عن استقلال السكسون . ومع أن الحملات التأديبية كانت تجرد فى كل صيف تقريبا بين عامى (٧٧٢ و ٧٨٠) وهى السنة التى بلغت فيها الفتوح نهر الإلب ، فإنه يبدو أن أحدا لم يفكر قط فى القيام بحملات فتح منظم حتى ذلك الحين ، باستثناء ما كان من إقامة حكومة أطراف بمنطقة الرور ، تدعمها مجموعة مثلثة من الحصون المشيدة فى هرزبرج وزيبرج وكارلزبرج . ومع ذلك فإن تعاون المبشرين الذى شهدناه قائماً فى فترة التحالف بين بونيفاس وشارل مارتل[١] ، قد تواصل ،

(١) انظر الفصل ١٣ بعنوان روما والكنيسة الكلتية .

كما يبدو أن الجمع بين هجمات الإرهابيين والدعاية للمسيحية كان من سياسة شرلمان التقليدية الثابتة التى اتخذها لبث التعليم والثقافة فى سكسونيا . وهى سياسة غير رشيدة ، لم تلبث عواقبها السيئة حتى ظهرت وشيكا . إذ كان العصيان السرى ينتشر فى الغابات الجرمانية . إذ ظهر بوستفاليا زعيم اسمه ويدوكند، وانضم إليه الأنصار فى جميع النواحى الأخرى . وكانت نتيجة ذلك أن كانت الأديرة تحرق ويضطر القساوسة إلى الفرار ، كما أن قوة فرنجية ضخمة كانت تزحف نحو الشرق على الصقالبة ، مزقت على نهر الويزر وتشتت شملها . وعندئذ صمم شرلمان أن يفتح تلك المناطق فتحا فنيا . وهنا لجأ ويدوكند إلى الدانمركيين ، وأعمل الفرنجة الذبح فى ٤٥٠٠ من الأسرى السكون عند فردان بدون أدنى مبالاة . على أن حملات الصيف المنيفة ما لبثت أن أخضعت إيستفاليا خضوعا ظاهريا ، واضطر شرلمان فى (٧٨٤) أن يقضى الشتاء كله فى ألمانيا استعدادا للحملة النهائية . وعند نهاية (٧٨٥) تم إخضاع سكسونيا بأكملها ، فيما عدا منطقة المستنقعات الساحلية فى الشمال والمنطقة الواقعة من وراء الإلب .

على أن النصر لم يكن تاما مؤزرا على الصورة التى تحدثت بها رسائل شرلمان المزهوة إلى البابا . ولا كانت التدابير اتخذت من النوع الذى يتمخض عن توطيد المكاسب وشد أواصرها . ومن ثم فإن مرسوم إعلان تسليم السكسون (Saxon Capitulary) الذى يرجح صدوره غداة الفتح ، يمكن اعتباره دراسة شائقة فى الإكراه والقهر . إذ قسمت البلاد بمقتضاه إلى مناطق يحكمها كونتات ، من حقهم وحدهم بالإضافة إلى مندوبى الملك (Missi) ، توجيه الدعوة لعقد جمعية عمومية . على أن الكنيسة كانت الأداة القوية التى يستخدمها طغيان الفرنجة . إذ يختتم المرسوم بالعبارة التالية : « على القسس أن يراعوا

ألا تعصى هذه الأوامر » . ومعنى هذا أن جرة قلم واحدة كانت فى نظرهم كفيلة بإزالة الوثنية ، وقادرة على إجراء تغيير شامل فى أسلوب الحياة السكسونية بأكلها من المهد إلى اللحد . إذ إن الامتناع عن قبول التنصير كان جزاؤه الموت . وكان أكل اللحم فى أثناء الصيام الكبير يستوجب العقوبة عينها . كما فرضت الغرامات الفادحة على كل من لم يعمد ابنه قبل نهاية السنة ، على حين صار إحراق الجثث الجنائزى على ماجرت به عادة السكسون والنورسيين يعتبر من الكبائر العظمى . ومما يشهد بما تنطوى عليه ديانة السكسون من طبيعة بدائية وتوحش ، ما صدر من أوامر تحرم ممارسة شعائر من أمثال أكل لحوم البشر وتقديم الأضاحى البشرية وتفرض عقوبة الإعدام على مخالفة هذه الأوامر . ومما يزيدنا عجباً أن يظن ولاة الأمور آنذاك أن من الممكن أن تطبق فى هذا القطر العسير القياد وغير المروض أحكام نظام يتولى فيه قسيس الأبروشية الأجنبى الذى يعيش على مايستخلصه من جمهور المصلين من الخدمات القهرية والعشور ، باستخدام شعيرة الاعتراف[1] سلاحاً سياسياً ، يكفل الخضوع والولاء للملك والشعب المسيحى ، أى الفرنجة .

وأدرك ألكوين الخطر ، وعبر عن معارضته لتلك الإجراءات بطائفة لاذعة من الأقوال المأثورة . فهو يصرخ : « يقول الناس إن العشور هى التى قوضت عقيدة السكسون » ـ ويقول : « وينبغى للمرء أن يدرك فوق هذا أن العقيدة تنبع من الإرادة الحرة ، لا من القهر . فكيف يستطاع إجبار الإنسان على الإيمان بما لا يؤمن به ؟ وربما أمكنك أن تجر إنساناً إلى حوض التعميد جراً ، أما إلى العقيدة فلا » . ولكن أحداً لم يأبه بتحذيراته . وانقضت بضع سنوات بدا فيها أن كل شىء يمضى على خير ما يرام . حتى لقد

(١) انظر إعلان تسلم السكسون المادة ١٤

استخدم السكسون فى حرب التخوم وسُيِّروا على الصقالبة والآفار . ولكن صدورهم كانت تضطرم خفية بالاستياء الغاضب، الذى اشتعل فى النهاية عصياناً، لم ينشب لهيبه حتى انتشر بسرعة فى كل أرجاء ألمانيا . فتعرضت الكنائس للحريق والنهب ، ولقى الأساقفة والقسس مصارعهم ، وأصبح كل ما أقامه الفرنجة من نظم عرضة للدمار . وأخذ شرلمان على غرة ، فلم يستطع حشد قواته على الفور ، بيد أن مقاومة السكسون لم تلبث حتى قضت عليها فى السنوات التالية قضاء نهائياً حملات جيوش زحفت من جميع الجهات ، وفى (٧٩٧) أخضع كل شيء حتى منطقة السواحل الشمالية ذاتها ، ملجأ الثائرين الفارين من وجه الدولة . وفى خريف تلك السنة ، صدر فى آخن (ايكس لاشابل) دستور جديد لسكسونيا ، بعد مشاورات لم يشترك فيها فحسب كونتات وأساقفة من الفرنجة ، بل حضرها أيضاً مندوبون عن الأقطار الجرمانية . وبمقتضى ذلك الدستور ألغيت جميع القوانين الجائرة التى أصدرها الفاتح ، ومنذ تلك اللحظة أصبحت سكسونيا تحكم بطريقة تماثل طرق الحكم الشائعة بالأقطار الفرنجية الأخرى . وكانت المرحلة الأخيرة هى مرحلة ترويض منطقة نورد البيبجيا العسيرة القياد ، ولكن ذلك لم يتحقق إلا فى (٨٠٤) ، يوم سيرت عليها آخر حملة نظامية فى حكم شرلمان ، بإرغام السكان على النزوح قهراً إلى شطر آخر من مملكة الفرنجة ، ومنح بلادهم للأبودريين Abodrites ، وهم شعب صقلبى مجاور أظهر ولاء كحليف للفرنجة .

حروب الآفار ورونسيسفال

كانت منطقة الحدود التى أطلق عليها فيما بعد اسم منطقة « دانيا » ، هى المعقل الشمالى لمجموعة من مناطق « الأطراف العسكرية » التى يتولى ضبطها نخبة منتقاة من القواد أحسن اختيارها ، وقد أطلق عليهم فيما بعد اسم

المارجريف (Margraves) أى كونتات وحكام (Grafs) الأطراف والثغور (Mark) . ومع أن دولة الفرنجة لم يكن لها إلا سيادة مفككة على الصقالبة فى الشرق ، فإن نهرى الإلب والسال يعتبران فعلا الحدود الحقيقية لمملكة الفرنجة. ثم هناك فى أقصى الجنوب باڤاريا التى ألحقت بالإمبراطورية ، والتى تقع وراءها ببلاد المجر مملكة الآڤار . وقد استولى الآڤار كأسلافهم الهون البدو الرحل ، على موقع ممتاز فى أوربا الوسطى ، على الحافة الغربية لنطاق السهوب الأسيوى العظيم ، وظلوا قرنين من الزمان يلقون الرعب فى قلوب الشعوب النازلة فى المنطقة المترامية بين البلطيق والپلوپونيز (المورة) ، وقد هددوا بيزنطة نفسها أكثر من مرة . على أن قوتهم أصابها الوهن قبيل تلك الفترة، فتخلص من نير الآڤار كثير من القبائل الصقلبية التى كان الغاصبون يعيشون على كدها . بيد أنهم كانوا لا يزالون من القوة بحيث يهددون الحدود الشرقية للإمبراطورية الغربية ، حتى إذا هدأ السكسون قليلا وأتاحوا للدولة فترة هدوء قصيرة ، بادرت جيوش شرلمان باتخاذ خطة الهجوم . وتقدم إريك (Eric) دوق فريولى على الدانوب فاقتحم الحلقة الكبيرة ، التى تتكون من متاريس ترابية مستديرة تؤلف المعقل الرئيسى لدى الآڤار ، واستولى على كنوز هائلة من الذهب والمنسوجات النفيسة والأوعية الغالية ، وهى الغنائم التى حصلت عليها أجيال الآڤار المتعاقبة ، التى يرجح أن معظمها قد انتهب من مدن الإمبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها . ثم توالت بعد ذلك الحملات التى تم بها القضاء على الآڤار .

وقد أصبحت النمسا تؤلف عند ذاك جزءا من الإمبراطورية ، وشرع مستوطنون من جرمان باڤاريا[1] يستقرون فيها وفى الجزء الغربى من المجر .

---

(١) انظر الفصل الحادى عشر بعنوان انحلال إمبراطورية الآڤار .

وهنا أصبحت المناطق الشرقية نفسها من المجر تعتبر جزءا من الإمبراطورية . وبذلك عاد إلى الوجود بعد قرون عديدة خط حدود پانونيا المعروف عند قدماء الرومان.

هنا أصبحت الكتلة الضخمة الفسيحة من أراضى أوربا الغربية عدا أسپانيا وجنوب إيطاليا تحت سيد واحد للمرة الثانية ، يبسط سلطانه على طبقة حاكمة من نبلاء الفرنجة والأكيتانيين والألامان واللومبارد ، ويحرك بسرعة مدهشة لا يكاد يصدقها عقل جيوشاً من أحد أطراف ممتلكاته إلى الطرف الآخر ، لكى يدفع إلى الخلف تخوم الوثنية المعادية . ولاشك أن هذا المثل الاتحادى الأعلى للإمبراطورية المسيحية المقاتلة ، هو الذى فرض طابعه القاهر على حضارة القرون الوسطى فى الغرب ، وهو الذى عاش بعد تقسيم المملكة الكارولنجية إلى عدد كبير من الإمارات المقاتلة ، والذى لعله لا يزال يعمل عمله باعتباره ضربا من مجتمع المشاعر داخل نطاق مجموعة الأمم الأوربية .

ولم يتجل ذلك المبدأ الاتحادى بوضوح أشد من تجليه فى تلك الهالة السحرية الرومانسية التى تحيط بذكريات يوم رونسيسڤال الفاجع . إذ انحدر شرلمان إلى أسپانيا بدعوة من حليفه المسلم حاكم برشلونة العربى ، الذى كان يحاول التخلص من سيطرة الخليفة الأموى بقرطبة . وعندى أن تحالف شرلمان مع ذلك الحاكم المسلم له أهميته التى تعادل فى قيمتها أن أول نصر أحرزه الفرنجة هو استيلاؤهم على مدينة پامپيلونا ، وهى مدينة تابعة لمملكة استورياس المسيحية . على أن الحملة أخفقت فى الاستيلاء على سر قسطة ، وبينما كانت طوابير الجند المتقهقرة تعرج ببطء فى ممرات البرانس الضيقة ، تعرضت مؤخرتهم لهجوم الباسك (البشكنس) ، وهم شعب مسيحى معاد للفرنجة — حتى أبيدت برمتها . ولم يتيسر للفرنجة الانتقام منهم على تلك الكارثة ، غير أن الحملات التالية التى وجهت على ذلك الإقليم الوعر ،

تمكنت فى النهاية من إنشاء منطقة الأطراف (الثغور) الأسبانية فى المنطقة التى تقع جنوب جبال البرانس مباشرة . على أن الأساطير التى تطلق لنفسها العنان فى العبث بالحقائق التاريخية ، تحول غارة (٧٧٨) الفاشلة تلك إلى حملة صليبية مجيدة . أما اشتباك المؤخرة مع الباسك وما أصابها على يديهم من حظ عاثر ، فقد حولته الأسطورة إلى معركة احتشد فيها من جيوش الوثنيين مالم تشهد بلاد لعددهم مثيلا ، وقهروا فرسان الإمبراطور المغاوير الذين سقطوا فى ساحة الشهادة دفاعاً عن الايمان والعقيدة . وبعد ذلك بثلاثة قرون تناول الشاعر تلك القصة الشعبية لا فى تفاصيلها الحقيقية الدقيقة بل فى صورة المثل الأعلى القائم الانتشار الفروسية المسيحية ، وجعل منها تلك الملحمة الفاخرة التى تسمى « أنشودة رولان Chanson de Roland » ، فأصبحت بذلك قطعة خالدة من تراث أوربا الخيالى .

نظام الإدارة الكارولنجية

كان الجهاز الذى سيطر به شرلمان على شئون إمبراطوريته الضخمة جهازا غلبت عليه السمة الجرمانية ، شأن الجهاز الذى استخدمه الميروفنجيون . فإن معظم النظم كانت لاتزال قائمة ، مثل إدارة الحكم المحلى بواسطة الكونتات ومرءوسيهم من الموظفين ، ومثل نظام القضاء العنصرى والمجالس السنوية . هذا إلى أن الطابع الشخصى والمرن غير المحدد الذى يتسم به الحكم لدى الفرنجة ، والذى سبق لنا موازنته بالحكم الرومانى الثابت التجريدى[1] ، ظل قائماً ومعمولا به فى ظل الحكم الإمبراطورى نفسه . إذ لم يبرح الإمبراطور يعد إلى حدما قائد المقاتلين التيوتون فى الحرب ، الذى يحيط به ثقاته من زملائه فى السلاح ، الذين كانت خدماتهم له موضع التبادل بين الطرفين دائماً .

(١) انظر الفصل الثانى عشر بشئون الحكم الرومانى والجرمانى .

ويجوز أن يتولى كونتات القصر قيادة الجيوش على الحدود، كما يقوم «الصجيل» (Seneschal) بإدارة حركة المطبخ ، أو يرسل «القهرمان» في سفارة دبلوماسية إلى بافاريا .

وكانت الإدارة المالية بدائية بالمثل . إذ إن نظام الخدمات العامة المحكم الذى كان لدى الرومان قد اندثر فى عهد الميروفنجيين ، وجعل نظام الضرائب فى أبسط الصور ، إذ اقتصر على رسوم المعديات وعلى مكوس الطرق والدخولية فضلا عن المكوس المفروضة على حيازات فردية معينة . وكان يطلب من الناس فى بعض حالات معينة صيانة الطرق والكبارى والتحصينات ، فضلا عن استضافة مندوبى الإمبراطور ومدهم بالمؤن . على أنه ينبغى ألا تضللنا اللوائح والتنظيمات الكثيرة والتفصيلية التى نجدها فى مجموعات الأوامر والمراسيم التى أصدرها شرلمان رغبة فى تنظيم التجارة وضبط الأسعار ، تضليلا يخفى عنا الحقيقة المجردة ، وهى أن المبدأ الذى تقوم عليه مالية الدولة عنده وعند غيره من ملوك الجرمان يقوم على فكرة « الخزانة » الملكية . وكان الأساس فى إيرادات الدولة هو ما يحصل من الضياع الملكية من ريع ، تزيد فى مقداره الغرامات والمصادرات وغنائم الحرب والهدايا الإجبارية . ومن هنا يستبان أن القائد التيوتونى كان يكافئ أتباعه بما يمنحهم من الأراضى ، وما يهبهم من الامتيازات المحلية فى القضاء والضرائب التى ينزل لهم عنها باعتبارها ملكا خاصاً له . على أن الظروف المعقدة الناجمة عن المزج بين الثقافتين الرومانية والجرمانية ، وتولى الجرمان السيادة فى أقطار منحتها روما حضارة متقدمة ، عرضت هذه القرارات إلى ما لاحصر له من صنوف التفرقة والقيود . ومع ذلك يظل الفرق والتباين عظيما بين الإمبراطورية البيزنطية التى هى الاستمرار المباشر لروما بما لها من جهاز خدمة مدنية ، وما لها من جهاز للضرائب معقد ومنظم ، وما لها من جيش وأسطول دائمين ؛ وبين الأقطار الرومانية الجرمانية فى غرب أوربا ،

التى كانت السلطة المركزية فيها لا تقوم على موارد مالية مستديمة ولا تستند إلى تنظيم إدارى ، وإنما ترتكز فقط على التزامات من خدمات شخصية وولاء شخصى يؤديان للحاكم مباشرة من كل فرد من أفراد رعيته . على أن هناك سلطة متوسطة نمت بين الملك والرعية ناجمة عن ظهور عوامل النظام الإقطاعى التى بدت بوادرها فى تلك المدة ، ولم يكن بد لنموها من أن تقوض سلطات ملكية من ذلك النوع لا تستطيع فعلا أن تتخلى عن شطر من سلطتها دون أن تضيعها بأكملها .

وتتجلى العملية واضحة فى الجيش الكارولنجى . ولعل الخدمة العسكرية كانت أفدح الأعباء التى تفرضها الدولة على رعاياها ، كما أن نفقات التسلح كانت تبهظ الرجل الحر الفقير ، الذى كان لا يزال عرضة لحمل السلاح طبقاً لما جرت عليه عادة الجرمان . واتخذت بعض الإجراءات للتخفيف عنه ، فلم يعد يدعى للخدمة بأية منطقة سوى الطبقات الغنية إن كانت الحملة موجهة إلى منطقة نائية من الحدود ، وكثيراً ما كان يسمح لاثنين أو ثلاثة من صغار الملاك بالاشتراك معاً فى إرسال رجل واحد إلى « الجيش » ، وتزويده بالعتاد . على أن ذلك لم يكن كافياً . فقد ولت منذ زمن بعيد تلك الظروف التى كانت تيسر فى الأزمان السابقة البدائية حشد مجموعة مسلحة مكونة من جميع الأعضاء الأحرار فى القبيلة الذين يتساوون على وجه التقريب فى الوضع الاقتصادى . إذ تزايد التفاوت فى ثروة الأفراد ، وأخذ القتال يصبح رويداً رويداً الحرفة الوحيدة التى اختص بها السادة الإقطاعيون ، كما يقوم به كل من يملكون الخيل والدروع . وينتمى إلى الفئة الأخيرة كل من وهب إقطاعاً ، أو توصلوا عن طريق « التوصية » إلى الارتباط بعلاقة تبعية مع « السيد الإقطاعى » اقترنت بالالتزام بالقيام بالخدمة العسكرية[1] . هذا وإن التغير الذى تحول بمقتضاه

(١) انظر الفصل الثانى عشر بعنوان الحكم الرومانى والجرمانى .

الجيش ـ وهو فى الأصل مجموعة من الأحرار لا يربطهم بقائدهم فى الحرب إلا رابطة الولاء ـ إلى هيئة مجمة من الفصائل التابعة لسيدها الإقطاعى التى لا يتولى فيها الملك بوصفه المولى الإقطاعى الأعلى القيادة إلا عن طريق أتباعه من النبلاء ، إنما هو وضع لا ينتمى فى الحقيقة إلا إلى القرون التى أعقبت ذلك . ولكن شرلمان اعترف فعلا بالوضع الرسمى لكبار السادة الإقطاعيين عندما أمر المجندة بالتقدم إلى مواطن الاحتشاد المحددة إما بقيادة الكونت الحاكم الإمبراطورى بالمنطقة ، وإما تحت إمرة سادتهم الإقطاعيين المحليين ، ولم يعد بعيداً الزمن الذى أصبحت فيه التبعية وراثية ، والذى صار فيه ولاء الأتباع مقصورا على سادتهم المباشرين ، والذى يقوم فيه النبلاء فى ظل ملكية ضعيفة كريهة ، بقيادة قواتهم لتدمير السلطة المركزية .

ومع ذلك فقد حدث مؤقتاً أن شرلمان بفضل ما اشتهر به من شخصية قوية وفتوة دافقة ، استطاع أن يحافظ على ما أقامه من وحدة الإشراف والضبط على أملاكه المترامية الأطراف . وكان كل كونت من أتباعه يحكم منطقة من الإمبراطورية ، وقد فوضوا لا فى مراجعة أتباعهم فحسب ، بل فى الرقابة أيضاً على أعمال موظفى السادة الإقطاعيين من الكنسيين والعلمانيين سواء . يضاف إلى ذلك ماحدث من نمو نظام المبعوثين الملكيين رغبة فى حبك أطراف السلسلة التى تربط بين الحاكم وبين كل فرد من أفراد رعيته . وبمقتضى ذلك النظام قسمت المملكة بأجمعها إلى مجموعات تتألف كل منها من عدة كونتيات ، يطوف بها اثنان من المبعوثين فى كل عام عدة ، أحدهما من رجال الكنيسة والآخر من العلمانيين ، ويتوليان الشئون القضائية . وكان مجال واجباتهما رحيباً . فلم يكن من واجبهما فقط الإشراف على يمين الولاء الذى تقسمه الرعية للإمبراطور ، وأن يتحققا من انتظام ورود إيرادات غابات التاج وممتلكاته ، وأن المراسيم مفهومة ومنفذة ، وأن المجرم يلقى جزاءه على جريمته

وأن العدالة تجرى مجراها ، وأن الخدمة العسكرية تنفذ على وجهها الصحيح ، بل لقد أمرا كذلك بالتفتيش على الكنائس والأديرة ، « لكى يتأكدا أن القسس يراعون نظمهم ، وأن الرهبان يتبعون بإخلاص قواعد القديس بنيدكت ، وأن ما أصدره الإمبراطور من لوائح عن ترانيم الصلوات ينفذ ، وأن كتب الإيمان مطهرة من كل خطأ ، وأن المبانى تصان ، وأن الشعب يحضر القداس فى أيام الآحاد ، وأنه يعرف عقيدته فيعلم « قانون الإيمان » وصلاة « أبانا الذى فى السموات ... » وأنه لم تضلله الخزعبلات القديمة »[1] .

القوانين الكارولنجية

وقد خلف لنا ثيودولف أسقف أورليان صورة وصفية رائعة لمسير هذين المبعوثين ، وهو أوسع شعراء عصر النهضة الكارولنجية ثقافة ، وكان هو نفسه أحد هؤلاء المبعوثين وإن تصويره الدقيق للتفاصيل ، وما عرف عنه من روح إنسانية رحبة وفكاهة ماكرة ونظرة ناضجة حصيفة ، مختلفة كل الاختلاف عن نظرة رجال الأديرة المشوبة بالبراءة أو التعصب اللذين اتصف بهما كثير من معاصريه ، — كل ذلك يبعث الثقة فى روايته التى تعرض علينا فى وضوح مشرق ، الأحوال فى جنوب فرنسا عند نهاية القرن الثامن . وهى ترسم مرحلة أخرى جديدة فى عملية التحول التى سجلها من قبل أوسونيوس وسيدونيوس وأپولينارس وجريجورى أسقف تور[2] . وتتجلى ذكرياته الشخصية فى رسالته : «نصيحة إلى القضاة» وهى ثمرة الخبرة التى اكتسبها فى أثناء جولاته فى الجنوب. وهو يصف بلمسات من قلمه ضروب التباين بين مناظر پروڤانس — كالتلال الصخرية الوعرة الشديدة الانحدار والسيول المندفعة والخوانق والأخاديد

---

(١) انظر لافيس فى (Histoire de France) ج ٢ ص ٣١٩ (باريس ١٩٠٣) .

(٢) انظر ماقبله ص ٦١ ، ١٢٠ ، (الفصل ١٢) وخريطتى فرنسا فى عهد الميروفنجيين .



١٧ — صورة صليب بيوكاسل ، نقوش على وجهه الشرق

الراكدة الخانقة الهواء ومستنقعات المناطق الساحلية القاتلة كريهة الرائحة ومنحدرات نهر الرون العريضة والمدن الفاخرة التى تحيط بها الأسوار العالية : مثل آرل وافينيون ونيم وأورانج ومارسيليا وكثير غيرها مما ورد ذكره فى تلك القصيدة . ثم يحملنا الكاتب بعد ذلك إلى دار المحكمة فى (ناربونة) . وهى لاشك ليست إلا بناء مجلس مدينة رومانيا قديماً ، كان حتى ذلك الحين يزين العاصمة السابقة للإقليم . وقد احتشد حول مدخلها المرتفع جمهور من المتقاضين يعج بالضجيج . ويدخل القاضى إلى قاعة المحكمة بعد حضوره القداس يصحبه كاتب ، ثم يعمد الحاجب بعد إدخاله إلى ساحة المحكمة كل من لهم الحق فى حضور الجلسة ، إلى إقفال الأبواب دون أعين جمهرة من المشاهدين الفضوليين . ويتخذ القاضى جلسته الوقور على الكرسى ذى الأرجل المقوسة يحيط به وجهاء المدينة ، ثم يعمد إلى اختيار مستشاريه القانونيين . وعندئذ يبدأ عمل اليوم . ويتوقف ثيودولف عند هذه النقطة لكى يوجه النصح فى الإجراءات . فيقول: ينبغى للقاضى ألا يتكلم بسرعة شديدة ولا ببطء شديد ، وينبغى له أن يوجه المتقاضين ويساعدهم على شرح قضاياهم أمامه ، فيشجع الخجول والوجل ويشكم الوقح ويسكت الثرثار ويسيطر على ضجيج الصائحين باستخدام صوته القوى ـ على أنه ينبغى مع ذلك أن يلزم مكانه ، وأن يمتنع عن استخدام العصا يقرع بها الأكتاف والرءوس ، كما ذاع عن بعض ضيق الصدر من القضاة .

ويؤكد المؤلف وهو ينحدر من سلالة القوط الغربيين وممن درج على التقاليد الرومانية القانونية ـ تشديده على عيوب الطريقة الجرمانية فى الإدلاء بالمعلومات ودحضها بواسطة الأيمن ـ وهو يرى أن وسائل حلف اليمين بأجمعها وبكل ما حوت من أساليب إثبات واتهامات يدعمها القسم وتملأ